الكاتب الفيتنامي

فاييت ثانه نغويين

Viet Thanh Nguyen

الفائز بجائزة البوليتزر لسنة 2016 عن روايته «المتعاطف»

مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

اللاجئون

THE REFUGEES

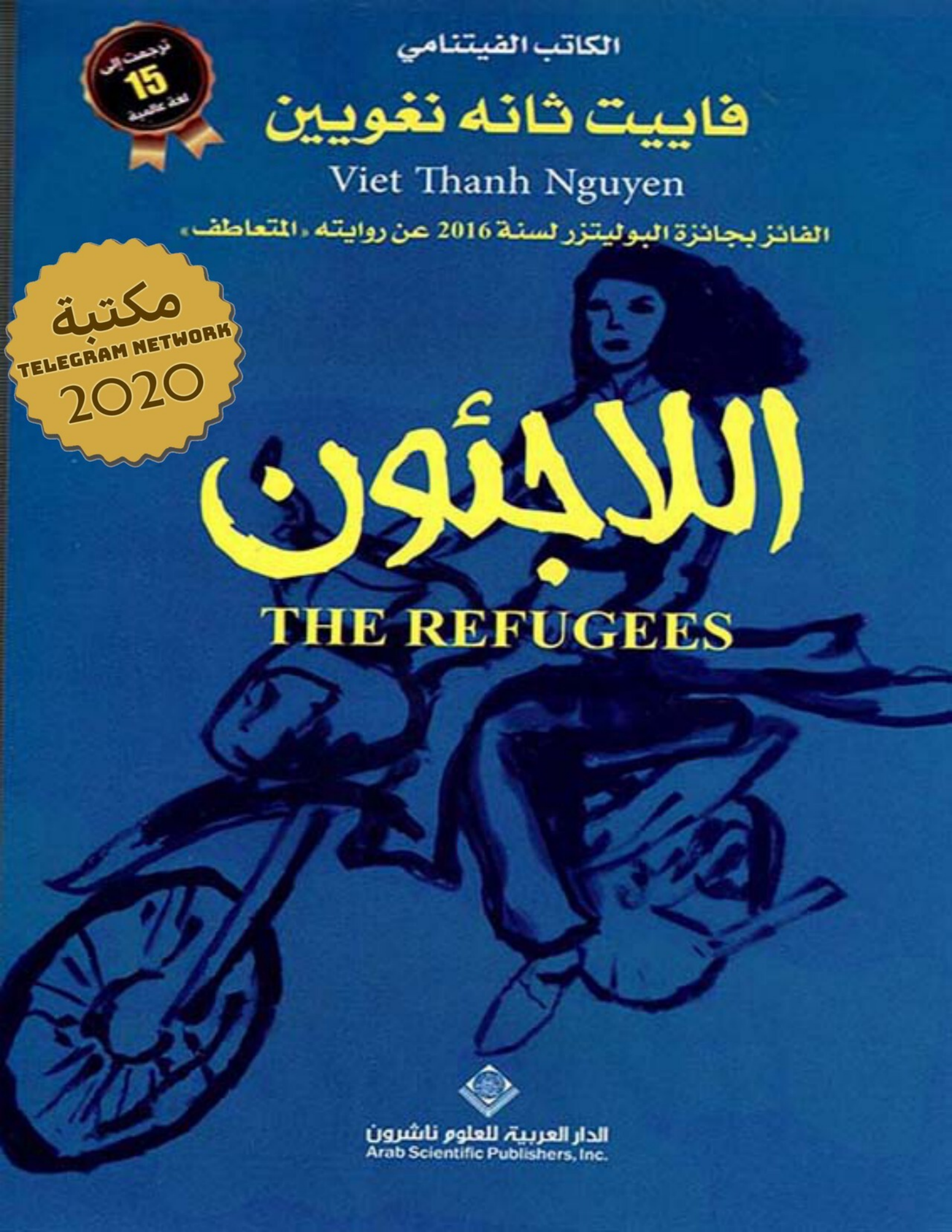

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

اللاجئون
THE REFUGEES

اللاجئون
THE REFUGEES

الكاتب الفيتنامي
فاييت ثانه نغوين
Viet Thanh Nguyen

ترجمة : مصطفى ناصر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

THE REFUGEES

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Grove Press - New York

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyrigh 2017 © by Viet Thanh Nguyen

All rights reserved

Arabic Copyright © 2018 by Arab Scientific Publishers, Inc.S.A.L

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو **2018** م – **1439** هـ

ردمك 9 – 614 – 01 – 2543 –8

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

icebook.com/ASPArabic
vitter.com/ASPArabic
ww.aspbooks.com
sparabic

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**
التنضيد وفرز الألوان: **أبـجـد غرافيكس،** بيروت – هـاتف (+961–1) 785107
الطباعـة: **مطـابع الـدار العربية للعلـوم،** بيروت – هاتف (+961–1) 786233

إهداء

إلى كل اللاجئين، أينما وجدوا..

«كتبتُ هذا للأشباح، لأنهم يعيشون خارج نطاق الزمن،

فهم الوحيدون الذين يملكون زمام السيطرة عليه...»

روبرتو بولانو، انتويرب

«ليست ذكرياتك التي تطاردك.

وليس ما تكتبه الآن..

إنما تطاردك الأشياء التي نسيتها،

وكان يجب أن تنساها.

وتستمر في نسيانها طوال حياتك».

جيمس فنتون، (قدّاس ألماني)

نساءٌ سود العيون

ربما تباغت الشهرةُ أحدنا من حيث لا يتوقع، وخاصة ذلك النوع من الشهرة الذي لا يسيغه ذوي العقول الرشيدة، خشية أن يتعرضوا للاختطاف ويبقوا رهن الاعتقال لسنوات، أو يواجهوا الإذلال في فضيحةٍ جنسية، أو ينجوا من حادثٍ مدبّر يمكن أن يودي بحياتهم.على كل حال لا بد أن يحتاج مثل هؤلاء الناجين إلى من يمدّ إليهم يد العون، على الأقل في كتابة مذكراتهم، وقد يأتي لي وكلاء أعمالهم في وقتٍ ما أو يقابلونني مصادفة.قالت لي أمي:

«على الأقل اسمك لن يُكتب على شيءٍ من ذلك».

وحين أخبرتها بأنني لن أمانع إذا أثنى علي احدهم أو ذكر اسمي في فقرة الشكر والامتنان في نهاية الكتاب، قالت:

«دعني أقص عليك هذه الحكاية».

تلك ليست أول مرة اسمع فيها هذه الحكاية، ولن تكون الأخيرة حتماً.ثم تابعت أمي كلامها:

«هناك في الوطن، كان احد مراسلي الصحف يدّعي باستمرار أن الحكومة تُلقي الناس في السجون وتعذبهم.فما كان من الحكومة إلا أن فعلت معه نفس الأشياء التي قال إنها تمارسها مع الآخرين.أرسلوه إلى المنفى ولم يره احدٌ مرة أخرى.هذا ما يحصل عادة للكتاب الذين يضعون أسماءهم على مؤلفاتهم».

حين اختارني فيكتور ديفوتو لهذه المهمة كنت قد وطدت نفسي على أن أكون من المؤلفين الذين لا تظهر أسماؤهم على أغلفة الكتب.وكيلُ أعماله عرض عليه احد كتبي التي تحمل اسماً مستعاراً وكنت قد كتبته لقاء اجر، مؤلف الكتاب المزعوم هو والد الصبي الذي أطلق النار في المدرسة وقتل عدداً من زملائه.قال لي فيكتور:

«إنني لا اختلف كثيراً عن ذلك الأب في خطيئته».

كان فيكتور الناجي الوحيد من حادث تحطم إحدى الطائرات، حيث مات مائة وثلاثة وسبعون من الناس، ومنهم زوجته والأطفال.كان يظهر، أو ما تبقى منه على الأقل، في جميع برامج الحوارات التلفزيونية، فيكاد المرءُ يتصور أنه يرى جثة وليس أكثر من ذلك.كان صوته المتهدج يأتي بنبرات هامسة رتيبة، وعيناه إذا نظر للأعلى تعكسان ظلال أشخاصٍ ينتحبون.قال الناشر الذي يتعامل معه إن من الضروري أن ينهي الرجل حكايته ما دام الجمهور يتذكر تلك المأساة، وهذا ما كان يشغلني يوم عاد أخي الميت ليزورني.

أيقظتني أمي بينما كان الظلامُ حالكاً في الخارج وهي تقول:

«لا تخف، يا بني».

من الباب المفتوح لغرفتي كان الضوء المتسلل يعذبني..

«ولماذا أخاف؟»

حين قالت أمي اسمه لم أفكر بأخي الذي مات منذ زمنٍ بعيد.أغمضت عيني وقلت لها إنني لا اعرف عنه شيئاً غير اسمه، لكنها ألحت، وقالت:

«جاء إلى هنا ليرانا».

ثم أزاحت الأغطية عني وجرجرتني حتى نهضت، وكانت عيناي شبه مغمضتين.كانت أمي في الثالثة والستين من العمر، وكثيراً ما تنسى هذا الشيء أو ذاك.قادتني إلى غرفة الجلوس وهي تجهش بالبكاء، لكني لم اندهش.ثم قالت وهي تنحني على الأرض قرب كرسيها الزهري وتتلمس السجادة:

«كان واقفاً هنا، على هذه البقعة المبللة من الأرضية».

ثم زحفت على ركبتيها إلى الباب الأمامي وهي بثياب النوم، وبدأت تتعقب الأثر.وحين لمستُ السجادة وجدتها رطبة.صعقتني الدهشة لحظة، وكان الصمتُ المهيمن على المنزل في الساعة الرابعة صباحاً ينذر بالشؤم.ثم تنبّهت إلى صوت المطر في قنوات التصريف، فتراخى الخوف الذي كان ينخسني كالسكين في رقبتي.لا بد أن أمي فتحت الباب، ثم تبللت بقطرات المطر، وعادت إلى الداخل.انحنيتُ عليها وهي مقرفصة بجوار الباب، ويدها على المقبض، قلتُ لها:

«انك تتخيلين بعض الأشياء».

أزاحت يدي عن كتفها، ونهضت، والغضب يشع من عينيها المعتمتين..

«اعرف ما الذي رأيته.كان يمشي ويتكلم.أراد أن يراك».

«وأين هو الآن، ماما؟ لا أرى أحداً».

تنهدت أمي بعمق وكأنها تأسف لأني عاجز عن استيعاب مثل هذه الأشياء الواضحة..

«بطبيعة الحال لن ترى شيئاً.إنه شبح، أليس كذلك؟»

منذ أن توفي أبي قبل بضع سنوات كنا نعيش أنا وأمي بانسجام.نتشارك النجوى بالكلمات، ولكني كنت أحبذ الصمت والكتابة بينما هي تحب الكلام.كانت دائماً تمدّني بالشائعات والقصص، وخاصة ذلك النوع من القصص الذي أود سماعه فيما يتعلق بأبي، الرجل الذي لم يتسن لي أن اعرفه كثيراً، ولطالما حدثتني عن حياته حين كان شاباً يرفل بالسعادة.ثم صارت تحكي لي قصص الرعب مثل تلك القصة عن الصحفي، ومغزاها أن الحياة، شأنها شأن السياسة، تستمتع أحياناً بتعذيبنا.وأخيراً تأتي بذلك النوع المفضل لديها من القصص، عن الأشباح، وكانت تحفظ منها الكثير، وبعضها من ابتكاراتها الخاصة.

أخبرتني أمي ذات يوم بهذه الحكاية، وقد سمعتُها من قبل مرة أو مرتين، أو ربما ثلاث مرات، قالت:

«العمة سايكس ماتت بنوبة قلبية وهي بعمر ستٍ وسبعين سنة».

وكان تكرار نفس القصة مرة بعد مرة من عاداتها.ولكني لم آخذ حكاياتها يوماً على محمل الجد.

«..كانت العمة سايكس تعيش في بلدة فونغ تاو بينما نحن نعيش في نيها ترانغ.كنتُ ذات يوم احضّر العشاء واحمله إلى الطاولة حين رأيتها جالسة هناك وهي بثياب النوم.شعرها الرمادي الطويل، الذي تعوّدت أن تربطه في ضفيرة، منسدل على كتفيها ويغطي وجهها أيضاً.حينذاك كادت الأطباق تسقط من يدي.ولما سألتها عما تفعله هنا ابتسمت ببرود ليس إلا.ثم نهضت، وقبلتني، وأدارت وجهي إلى المطبخ.وحين استدرتُ مرة أخرى لم أجدها.لا بد أنه كان شبحها.العم أكد الأمر حين اتصلت به.العمة ماتت في صباح نفس اليوم على سريرها».

العمة سايكس ماتت بسلام، كما قالت أمي، على سريرها وبين أفراد العائلة، وكان شبحها يتجول في المنزل لأنه جاء ليودعنا.أعادت أمي سرد نفس الحكاية عن العمة ونحن نجلس إلى طاولة المطبخ في الصباح الذي قالت فيه إنها رأت أخي.جئتُ لها بإبريق الشاي الأخضر وفحصتُ درجة حرارتها رغم احتجاجها، وكانت النتيجة، كما توقعت، اعتيادية.هزّت المحرار أمام وجهي وقالت إن

أخي اختفى فجأة لأنه ربما كان منهكاً.على كل حال لقد قطع رحلة آلاف الأميال عبر المحيط الهادئ.

قلتُ لها:

«إذن كيف وصل إلى هنا؟»

رمقتني بنظرة إشفاق وقالت:

«جاء يسبح.ولهذا كان مبللاً».

قلتُ، وأنا أمازحها:

«كان أخي سبّاحاً ماهراً.ترى كيف كان شكله؟»

«نفس شكله الاعتيادي تماماً».

«مضت الآن خمسٌ وعشرون سنة.ألم يتغير أبداً؟»

«الموتى يظهرون دائماً على نفس الهيئة التي رأيتهم فيها آخر مرة».

تذكرتُ ملامح أخي في آخر مرة رأيته فيها فاختفى على الفور أي أثر لروح الفكاهة في داخلي.تلك النظرة المذهولة على وجهه، وعيناه المفتوحتان اللتان لم يرفّ لهما جفنٌ حتى عندما كان اللوحُ المشقوق في بدن القارب يضغط على خده ـ لم أرد رؤيته مرة أخرى، على افتراض وجود شيءٍ أو شخصٍ يمكن رؤيته.بعد أن ذهبت أمي إلى عملها في الصالون حاولتُ الرجوع إلى النوم لكني لم استطع.كانت عيناه تحدقان بي كلما أغمضتُ عيني.أدركتُ الآن أنني لم أتذكره منذ أشهر.منذ مدةٍ طويلة كنت أجاهد نفسي لكي أنساه، لكني كلما اجتزتُ منعطفاً في الشوارع أو خطر في ذهني ظننتُ أنني ربما أصادفه، فقد كان أفضل صديقٍ لي.في أي مكانٍ مهما كان بعيداً يمكن أن تذكره، أو اسمع صوته خارج منزلنا يناديني باسمي.تلك هي الإشارة التي كان يرسلها لي لاتبعه على أزقة قريتنا، عبر بساتين الكاكايا والمانغو وصولاً إلى الخنادق والحقول، ونحن نراوغ بين جذوع النخيل المتفحمة والحفر التي خلفتها القنابل.في ذلك الزمن كانت هذه من نزوات الطفولة.

لكني حين رجعتُ إلى ذكريات الماضي استنتجت أننا أمضينا شبابنا في بلدٍ تسكنه الأشباح.أبونا رحل من هذه الدنيا، وكنا نخشى أنه لن يعود.قبل رحيله كان قد حفر ملجأ يحمينا من القنابل قرب منزلنا، شيّده من أكياس الرمل وغطى سقفه بألواح الخشب.رغم أنه مكانٌ حار ولا ينفذ إليه الهواء، وشديد الرطوبة بحيث تفوح منه رائحة العفن وتكثر فيه الديدان، إلا أننا كثيراً ما ذهبنا

إلى هناك لنلعب حين كنا صغاراً.وحين كبرنا كنا نذهب لندرس ونحكي القصص.كنتُ من أكثر الطلاب اجتهاداً في مدرستي، بحيث دفع ذلك مدرس اللغة الانكليزية لأن يخصص بعض الوقت لتدريسي بعد ساعات الدوام، وتلك الدروس كان يشاركني فيها أخي.وكان يقصّ علي حكايات طويلة من الفولكلور الشعبي، وكذلك الشائعات.وحين كانت الطائرات تحوم فوق رؤوسنا نسرع مع أمي لنختبئ في الملجأ، وهو يهمس بقصص الأشباح في أذني ليشتت انتباهي.غير أنه كان يصرّ دائماً على أنها ليست من قصص الأشباح، بل هي روايات تاريخية من مصادر موثوقة، على سبيل المثال، تلك القصة عن النسوة الحيزبونات من العصور القديمة اللائي يمضغن جوز نخيل الفوفل ويبصقن عصارته الحمراء بينما يقرفصن على أوراكهن في السوق، ويراقبن بعيون حذرة أفران الفحم أو سلال الأدوات.وقصة أخرى عن سكان أرضنا الطيبين الذين لا يكذبون قط، كما تقول العجائز، الذين رأوا النصف الأعلى من جثة ملازم كوري قذفه انفجار لغمٍ أرضي فتعلق بأغصان شجرة المطاط؛ أو غيرها من تلك القصص التي كثيراً ما كنت اسمعها مثل قصة الأمريكي الأسود الذي سُلخت فروة رأسه وبقيت جثته تطفو على جدولٍ غير بعيد عن موقع سقوط طائرته الهليكوبتر.وكانت عيناه مفتوحتين ودماغه يشبه الهلال الذي يلمع على سطح الماء؛ وقصة عن جندي ياباني مقطوع الرأس كان يتلمس طريقه بين شجيرات المنيهوت بحثاً عن رأسه.هؤلاء الغزاة جاءوا للاستيلاء على أرضنا ولن يرجعوا إلى بلادهم، كما تقول العجائز في ثرثرتهن وهن يكشفن أسناناً نخرة، هكذا أخبرني أخي.كنت ارتعش من الغبطة رغم الظلام والوحشة، وأنا اسمع عن النساء ذوات العيون السود، وبدا لي أنني لن أتمكن من سرد قصصٍ مثلها.

هل كان من سخرية الأقدار أنني صرتُ اكسب رزقي من كتابة قصص الأشباح؟ طرحتُ هذا السؤال على نفسي مراتٍ عديدة وأنا ارقد على سريري في قيلولة الظهيرة، ولكن يبدو أن النساء ذوات العيون السود والأسنان النخرة سمعنني.وقلن وهن يسخرن مني، أنت تسمي هذه التي تعيشها حياة؟ كانت أسنانهن تصدر صريراً وهن يضحكن.وسحبتُ الأغطية حتى غطيت انفي، كما تعوّدت أن افعل أثناء السنوات الأولى لإقامتي في أمريكا، حين لم تكن تلك المخلوقات المخيفة تتجول في الصالة فقط بل في الخارج أيضاً.كان أبي وأمي كثيراً ما يسترقان النظر من وراء ستائر غرفة الجلوس قبل الرد على أي خبطات على الباب، خوفاً من صبيان الحي الذين تعلموا أشياء جديدة عن العنف لأنهم كبروا في زمن الحرب.حذرتني أمي من ذلك مرة، أو مرتين، أو ثلاث مرات وهي تقول:

«لا تفتح الباب لأي طارقٍ لا تعرفه، لا نريد أن يكون مصيرنا مثل مصير تلك العائلة التي ربطوا أفرادها تحت تهديد السلاح.وكانوا يحرقون أصابع احد الأطفال بأعقاب السجائر حتى أرشدتهم الأم إلى المكان الذي يخفون فيه النقود».

كانت فترة مراهقتي في أمريكا مليئة بمثل هذه الحكايات المحزنة، وكلها تثبت ما قالته أمي، أننا لا ننتمي إلى هذا المكان.كنا نعيش في بلدٍ تعني فيه الثروة كل شيء، ونحن لا نملك من

الثروة غير حكاياتنا.

حين استيقظتُ على خبطات الباب كان الظلامُ قاتماً في الخارج.ساعتي كانت تشير إلى 6:35 مساءً.ثم سمعت ضربات مرة أخرى، ولكنها جاءت خفيفة وحذرة.بصرف النظر عن أي شيء ظننت أنني اعرف الطارق.أغلقت باب غرفتي توجساً من أي شيءٍ، وسحبت الأغطية على رأسي، وقلبي كان يخفق سريعاً في صدري.تمنيتُ أن يذهب، لكنه راح يحرك أكرة الباب، وعرفت أن ليس لدي اختيار آخر سوى أن انهض.انتصبت شعيرات جسمي وأنا انظر إلى أكرة الباب كيف تتحرك.ثم ذكرت نفسي بأنه ضحّى بحياته من أجلي، فأقل ما يمكنني القيام به أن افتح الباب.

رأيته شاحباً منتفخ الأوداج، شعره كالريش، والبشرة داكنة، متلفعاً بثوبٍ اسود وقميص رمادي مهلهل، والذراعان والساقان بارزة كالعظام.آخر مرة رأيته فيها كان أطول مني بمقدار رأس؛ أما الآن فالأمر معكوس بيننا.سمعته ينطق اسمي، وكان صوته خشناً مرتعشاً، لا يشبه بأي حال نبرات صوته في فترة المراهقة.لم تتغير عيناه في شيءٍ، إنهما نفس العينين الفضوليتين، وكذلك الشفتين، فهما منفرجتان قليلاً، على استعداد للكلام دائماً.رأيتُ كدمة أرجوانية مع لطخات سوداء على جانبه الأيسر، ولكن الدم الذي أتذكره غير موجود، غسله ماء البحر المالح كما أتصور، وبددته الأعاصير.مع أن السماء لم تمطر لكنه كان مشبّعاً بالماء.كنت أشم منه رائحة البحر، والأسوأ من ذلك أنني شممت رائحة خشب القارب، متعفناً بالعرق البشري والفضلات.

سمعته ينطق اسمي فارتعدت فرائصي، هذا شبحُ الشخص الذي طالما أحببته، ذلك النوع من الأشباح الذي قالت أمي إنه لن يؤذيني.قلتُ له:

«ادخل».

تصوّرت أن تلك أشجع كلمة استطعت قولها.لم يتزحزح عن مكانه، ظل واقفاً ينظر إلى السجادة المبللة بقطرات الماء المتساقطة منه.ولما جلبتُ له قميصاً وبنطلوناً ومنشفة نظيفة رمقني بعمق فاستدرت وتركته يبدّل ثيابه.كانت الملابس هي الأصغر حجماً لدي ومع ذلك وجدها كبيرة بالقياس إليه، البنطلون وصل إلى أسفل القدمين، والقميص كان فضفاضاً.ثم مشيتُ أمامه إلى الداخل، وفي هذه المرة امتثل لي، وجلس على سريري المجعد.لم ينظر في عيني، كأنما كان خائفاً مني أكثر مما أنا خائف منه.كان في الخامسة عشرة من العمر بينما أنا في الثامنة والثلاثين، لم اعد ذلك الفتى الساذج الذي يتلعثم في الكلام بلا سبب، كما حصل حين أجريتُ المقابلة مع فيكتور.ولأني مؤلف، وإن كنت من المرتبة الثالثة أو الرابعة من المؤلفين، فأنا أبالغُ في الحرص على الشكليات أكثر مما ينبغي.لكن ما عسى أن يقول المرء إذا تكلم مع شبح غير أن يسأله عن سبب مجيئه؟ ولكني مع ذلك كنت خائفاً من الجواب، لذلك قلت:

«ما الذي جعلك تتأخر كل هذه المدة؟»

نظر إلى قدمي الحافيتين بأظافرهما الحادة.لعله استنتج أنني لا اختلف الآن عن ذلك الطفل الذي تعوّد أن لا يعبأ بمظهره كثيراً ولا يُحسن التعامل مع الأطفال.علاقتي مع أمي كانت كل شيء في حياتي، وكذلك العلاقات التي لا تدوم أكثر من ليلة.

«كنت مضطراً لأن تسبح.لا بد أن المسافة التي قطعتها تحتاج إلى زمنٍ طويل، أليس كذلك؟»

«نعم».

بقي فمه مفتوحاً، كأنما أراد قول المزيد ولكن لم تكن لديه الثقة بنفسه أو لم يعرف كيف يعبّر عن ذلك.ربما كان هذا التجلي الأخير للأشباح من النتائج الأولى لما كانت تعتبره أمي من طباعي الغريبة، كانسان أعزب بلا أطفال يعيش منعزلاً.أو ربما لم يكن الأمر من تلفيق خيالي لكنه مجرد عرض لشيءٍ خبيث، مثل السرطان الذي فتك بابي.لقد مات أبي بسلام، كما قالت أمي، بين أفراد عائلته في المنزل، على العكس مما حصل لابنها، أو ما كان سيحصل لي على نحوٍ ما.كانت نيران الذعر تتأجج في داخلي من بئرٍ لا قاع له بحيث التصقت أطرافي بالأرض الصلبة، حتى أفقت من غيبوبتي لأسمع الباب الأمامي يُفتح، قلت له:

«أمي تريد رؤيتك.انتظر هنا.سوف أعود حالاً».

حين عدتُ مع أمي لم نجد غير ملابسه المبللة والمنشفة.كانت أمي تحمل بيدها القميص الرمادي نفسه الذي كان يلبسه على القارب الأزرق الذي عليه علامة العيون الحمر.

قالت أمي:

«والآن هل صدقت كلامي؟ لا تدر ظهرك أبداً للأشباح».

كانت رائحة البنطلون الأسود القصير والقميص الرمادي نتنة من محلول ملحي، وكانا محملين بشيء أثقل من الماء.حين حملتهما إلى المطبخ كانت الملابس في يدي دليلاً مادياً لا يقبل الشك.لقد رأيته يلبس هذه الثياب عشرات المرات من قبل.وتذكرتُ البنطلون حين كان نظيفاً وغير ملطخ بالقذارة بل هو ازرق ناصع، والقميص ليس رثاً ورمادياً بل ابيض اللون وأنيقاً.قالت أمي مرة أخرى وهي ترفع غطاء غسالة الملابس:

«هل صدقت كلامي؟»

ترددتُ في الإجابة.يقول بعض الناس إن الإيمان يتزعزع في داخلهم، ولكن إيماني الذي تغلغل في النفس أخيراً كان مصدر رعبٍ لا يوصف.قلت:

«نعم، صدقت».

سمعتُ صوت الغسالة يدندن في الخلفية ونحن نجلس لتناول العشاء في المطبخ، والهواء مشبع بروائح الينسون والزنجبيل.قالت أمي وهي تنفخ البخار عن كوب الشاي:

«المجيء إلى هنا تطلب منه سنوات.لأنه قطع كل تلك المسافة سباحة».

على كل حال يبدو أن شيئاً من هذا لم يؤثر على شهيتها أو سبّب لها خللاً في نظام معدتها الحديدية، ولا حتى أثر في ذكرياتها عن الحادث الذي وقع على القارب فأحال ابنها إلى شبح.

قلت:

«الخالة سايكس عاشت بعيدة عنا مئات الأميال لكنك رأيتها في نفس اليوم الذي ماتت فيه».

«الأشباح لا تعيش حسب قوانيننا.كلُّ شبح يختلف عن غيره.هناك أشباح طيبة وأخرى شريرة، وأشباح سعيدة وأخرى تعيسة.أشباح الناس الذين ماتوا وهم كبار، وأشباح الشباب والأطفال.هل تتصور أن أشباح الأطفال تتصرف مثل أشباح أجدادنا؟»

لم أكن اعرف شيئاً عن الأشباح.لم أؤمن يوماً بالأشباح ولم اكترث لكلام أي شخصٍ اعرفه عن هذا الموضوع غير أمي وفيكتور، الذي كان يبدو هو نفسه كالأشباح، فالحزن المضطرم في داخله جعله شاحب اللون ويكاد يكون جلده شفافاً، بينما اللون الوحيد المميز فيه يأتي من لطخات الشعر الأحمر الأشعث.حتى بالقياس إليه هناك تلميحات من العالم الآخر جاءته مرتين، مرة على الهاتف وأخرى في غرفة الجلوس في منزله.لم يتغير شيءٌ منذ اليوم الذي ذهبت فيه عائلته إلى المطار، ولا حتى الغبار المثير للشجن.كنت أظن أن النوافذ لم تفتح في منزله منذ ذلك اليوم، كأنه أراد الإبقاء على الهواء المستنزف الذي كانت زوجته وأطفاله يتنفسونه قبل أن يواجهوا مصيرهم الشنيع بعيداً عن الوطن.«الموتى يتجولون في كل مكان»، قال مرة وهو ينزوي على كرسيه، وكان يضع يديه بين الفخذين، «نحن الأحياء وحدنا نبقى في مكاننا ولا نتحرك».

بهذه الكلمات افتتحتُ الفصل الأخير الذي كنت اكتبه عن حياته، ذلك الفصل الذي عملتُ عليه بعد أن ذهبت أمي لتنام ونزلتُ وحدي إلى القبو الذي كانت تبدد ظلمته مصابيح النيون.لم أكتب غير جملة واحدة ثم توقفت حين سمعت وقع أقدامٍ على السلم.ذلك الإيقاع المخيف كنت اسمعه طوال الليل، اكتب بضعة سطور وبعدها انتظر وأترقب شيئاً لا يأتي، وفي اليوم اللاحق اسمع المزيد من نفس الأصوات.كانت تلك الهواجس من ذكرى فيكتور تلح عليّ حين رجعت أمي من صالون التجميل وهي تحمل أكياس البضائع التي اشترتها من الحي الصيني، أحدها مليء بالخضروات،

والآخر فيه ملابس داخلية، زوج بيجامات، بنطلون جينز ازرق، سترة قطنية، جوارب، قفازات صوفية، قبعة بيسبول.بعد أن وضعتها مع قميصه وبنطلونه النظيفين والمكويين قالت:

«لا يمكنه أن يتجول في مثل هذا الجو البارد بالثياب التي أعطيتها له، مثل أي متشردٍ أو مهاجر غير شرعي».

قلتُ لها إنني لم أفكر على هذا النحو فاستغربت وانزعجت من تجاهلي لاحتياجات الأشباح.لكنها بعد العشاء عادت إلى وضعها الطبيعي.وتحسّن مزاجها بحيث لم انزل إلى القبو كالمعتاد بل بقيت لمشاهدة أحد المسلسلات التلفزيونية التي كانت تستعيرها بالجملة، وهي تتناول حياة نساء كوريات جميلات ينخدعن في علاقات رومانسية متشابكة.قالت لي في تلك الليلة، وقد أحسستُ أن كآبتها تقرّبني منها أكثر:

«لولا الحرب لكنا مثل الكوريين الآن.سايغون تكون مثل سيئول، ويكون أبوك حياً، وأنت متزوج ولديك أطفال، وأنا ربة بيتٍ سعيدة، ولما اضطررت للعمل في محلٍ للتجميل».

كانت تلفّ شعرها في قارصات، وماعون بذور البطيخ في حضنها.سكتت قليلاً ثم أضافت:

«اقضي أيامي الباقية في زيارة الأصدقاء وهم يزورونني، وإذا مت يأتي مئات الناس لحضور جنازتي.سأكون سعيدة إذا أتي عشرون منهم إلى هنا، وأنت تهتم بكل الأشياء.ذلك يشعرني بالخوف أكثر.لن تتذكر حتى أن ترمي أكياس القمامة أو تدفع الفواتير.ولن تخرج لشراء الخضروات».

«سوف أتذكر أن اهتم بما تحتاج إليه روحك».

«متى تقام مراسم الجنازة؟ متى يكون الاحتفاء بالذكرى السنوية لوفاتي؟ ماذا تقول في تلك المناسبة؟»

«اكتبي لي الأشياء التي يفترض أن أقولها».

«لو كان أخوك حياً سيعرف ماذا يفعل، هذا واجبُ الأبناء».

لم يكن لدي جواب على هذا.

حين لم يظهر في الساعة الحادية عشرة ذهبت أمي لتنام.ونزلتُ إلى القبو من جديد وحاولت الكتابة.كان مضمون الكتاب يدخل منطقة ضبابية، وأنا أتلمس طريقي لإيجاد مسار إلى العالم غير الدنيوي للكلمات، مسار كان يسهل إتباعه في بعض الأيام بالقياس إلى أيام أخرى.كانت

تجثم على كتفي وأنا أتخبط في العتمة ببغاء الأسئلة، تسألني كيف عشتُ ومات هو.كنت أصغر سناً واضعف بدنياً منه، لكننا دفنا أخي، تركناه ينزل إلى أعماق المحيط من غير كفن أو حتى كلمة تأبين.كان نحيبُ أمي وعويلُ أبي يرنّ في ذاكرتي، لكن ذلك لم يخلصني من صمتي.الآن ربما كان من المناسب أن أقول بعض الكلمات، لكي استدعيه إلى ذاكرتي كما أراد، ولكني لم اعثر على كلماتٍ مناسبة.وحين فكرت في ليلةٍ أخرى تمضي دون أن يعود سمعت وقع أقدامٍ تأتي من أعلى السلم، ذكرت نفسي بأنني أؤمن بالأشباح.أتصور أنه لن يؤذيني.

قلتُ وأنا افتح الباب:

«لا تقرع الباب، إنه منزلك أيضاً».

نظر إلي فحسب، ثم لاذ بالصمت كالمعتوه.وبعد ذلك قال:

«أشكرك».

كان صوته أقوى الآن، عالي النبرة، وفي هذه المرة لم ينظر بعيداً.ما زال يلبس قميصي وبنطلوني، وحين عرضتُ عليه الثياب التي أحضرتها له أمي رفضها قائلاً:

«لستُ في حاجةٍ إليها».

«لكنك تلبس الثياب التي أعطيتها لك».

استمر صمته طويلاً حتى ظننتُ أنه لم يسمعني.ثم قال أخيراً:

«كنا نلبس الثياب لأننا من الأحياء، لم تعد تفيدنا في شيءٍ».

أرشدته إلى الأريكة..

«تقصد أنتم الأشباح؟»

جلس قربي، مفكراً في سؤالي قبل أن يرد:

«ألم نكن دائماً نؤمن بالأشباح؟»

أمسكتُ يده:

«كانت لدي شكوكي الخاصة.لكن لماذا رجعت؟»

بدت نظراته مريبة.لم تطرف عيناه مرة..

«لم ارجع، وجدتُ نفسي هنا فحسب».

«إذن فأنت لم تترك هذا العالم حتى الآن؟»

هزّ رأسه..

«ولم لا؟»

لاذ بالصمت من جديد.ثم قال أخيراً:

«لماذا تشغل نفسك بالتفكير في هذه الأمور؟»

نظرتُ بعيداً، ثم قلت:

«كنتُ أحاول أن أنسى».

«لكنك لم تنسى».

«لا أستطيع أن أنسى».

لم انس قاربنا الأزرق الذي لم يكن يحمل اسماً، والقارب أيضاً يبدو أنه لم ينسني، العيون الحمر المرسومة على جانبي مقدمته ما زالت تحدق بي.بعد أربعة أيامٍ تكاد تخلو من الأحداث على بحرٍ هادئ تحت السماء الزرقاء والليالي الصافية رأينا جزراً ترصّع الأفق من بعيد.وبعد فترة ظهرت سفينة من مسافةٍ بعيدة تتجه إلينا.كانت تجري مسرعة ونحن نتحرك ببطء، مثقلين بأكثر من مائة من البشر على زورق صيدٍ لا يقدر أن يحمل أكثر من الطاقم وحمولته من الأسقمري المجمد.سحبني أخي إلى حجرة المحرك الضيقة التي تملؤها الضوضاء وراح يمسّد شعري الطويل بمنديله ويربطه في تسريحة متعرجة ما زلت اعملها أحياناً.قال لي «لا تتكلم بشيء»، كان آنذاك في الخامسة عشرة من العمر وأنا في الثالثة عشرة.«تبدو كأنك فتاة.والآن اخلع قميصك».

كنتُ دائماً امتثل لما يطلبه مني، ولكني في هذه المرة شعرت بالخجل منه، مع أنه لم يكن ينظر لي وهو يخلع قميصي ويمزقه إلى نتف.ربط على صدري العاري بعض قطع القماش، ثم خلع قميصه وجعلني ألبسه وربط الأزرار، وبقي هو بقميصٍ ممزق.ثم صبغ وجهي بزيت المحرك وأسرعنا نتخبط في الظلام حتى جاء القراصنة يبحثون عنا.هؤلاء الصيادون كانوا يشبهون آباءنا وأخوتنا، فهم هزيلون وبشرتهم سمراء، غير أنهم كانوا يحملون السكاكين والبنادق الرشاشة.طلبوا منا أن نُخرج ما لدينا من الذهب، والساعات، والأقراط، والأساور، والقلائد.ثم اخذوا الفتيات

الصغيرات والمراهقات، عشرة منهن تقريباً، وكانوا يطلقون النار على من يعترض من الآباء والأزواج.ولاذ الجميع بالصمت باستثناء الأشخاص الذين كانوا يُجرجرون، ويصرخون أو يبكون.لم أكن اعرف أي واحدةٍ منهن، إنهن فتيات من قرى أخرى، وهذا جعلني اشكر الله على أنني لست منهم وأنا أتمسك بذراع أخي.حين صعدت كل الفتيات إلى سفينة القراصنة استعدوا للرحيل، فتنفستُ الصعداء مرة أخرى.

نظر لي آخرُ رجلٍ من القراصنة وهو يمر قربي.كان بعمر أبي تقريباً، انفه كأنف خنزير أحرقته الشمس، ورائحته مزيج من العرق والسمك المتعفن.اقترب مني ذلك الرجل النحيف، الذي كان يتكلم بعض الكلمات من لغتنا، ورفع حنكي وقال، «يا لك من فتى وسيم!» وهنا بادره أخي على نحو غير متوقع بأن طعنه بسكينٍ كان يخفيها في جيبه.ووقفنا نحن الثلاثة ننظر في ذهول إلى النصل الذي يقطر دماً، ولم ينقطع الصمت إلا حين صرخ الرجل النحيف من الألم، ثم سحب بندقيته، ووجه ماسورتها إلى رأس أخي.ثم جاءت تلك الفرقعة التي ما زلتُ اسمعها حتى الآن.وسقط أخي صريعاً في الحال، والدم يتدفق من جبينه، والفك والجذع يرتطمان بالدكة الخشبية في خبطةٍ مرعبة ما زال صداها يرن في أذني.

فما كان مني إلا أن لمست الكدمة على جبهة أخي وقلت له:

«هل ما زال الجرح يؤلمك؟»

«لم يعد يؤلمني.هل ما زال الأمر مؤلماً لك؟»

تظاهرتُ مرة أخرى بأنني أفكر بالسؤال الذي اعرف إجابته.ثم قلت:

«نعم».

كان الرجلُ النحيف قد دفعني على الدكة فسقطتُ وألحق ذلك بي جرحاً بالغاً على مؤخرة رأسي.ثم راح يمزق قميصي مما تسبب لي بخدوش دامية بأظافره الحادة.ولما أدرت وجهي رأيت أمي وأبي يصرخان، كادت طبلتا أذني تنفجران، فلم اسمع شيئاً.صرختُ ولكني لم اسمع صوتي، مع أنني أحسست بفمي يفتح ويغلق.كان العالم من حولي اخرس، كما حصل في أوقاتٍ أخرى مع أمي وأبي وأنا نفسي، لا احد منا كان يقول شيئاً حول هذه المسألة.صمتهم وصمتي كالسكاكين التي تقطعني إرباً.ولكن ما آلمني أكثر ليس هذه الأشياء، ولا حتى ثقل الرجال المكومين فوقي، بل هو ذلك الضوء الساطع على عيني المعتمتين وأنا انظر إلى السماء وارى عقب سيجارة محترقة بين شفتين غليظتين، أراهما في تلك اللحظة قبل أن تطفأ السيجارة على جلدي.

منذ تلك اللحظة أصبحت أتجنب ضوء النهار.حتى أخي لاحظ هذا، وكان يقرّب راحة يده من وجهي ليظهر لي أنني أكثر بياضاً منه.كنا نفعل نفس الشيء في الملجأ، نقرّب أيادينا من وجوهنا لنرى إن كنا نراها في الظلام.كنا نريد أن نعرف أننا ما نزال موجودين، يغطينا التراب المتفتت الذي ينهمر مع كل حركة، بينما ذكرى الطائرات النفاثة الأمريكية وهي تهدر فوق الرؤوس تجعلني ارتعش.في أول مرة سمعت فيها الطائرات همس في أذني وقال لي أن لا اقلق.إنها فانتوم فحسب.

قلتُ له:

«هل تعرف ما الذي أحببته في تلك الأوقات؟»

هز رأسه.كنا نجلس على الأريكة في مكتب القبو، وهو مكانٌ اشد دفئاً من غرفة الجلوس في تشرين الثاني.

«..أننا كنا نخرج إلى الشارع بعد القصف، وأنت تمسك يدي ونحن نقف تحت وهج الشمس ونغمض عيوننا.ما أحببته أننا كنا نختبئ في الظلام ثم ما يلبث الضوء أن يسطع.وبعد تلك الأصوات المدوية كالرعد يأتي الصمت».

هز رأسه بلا مبالاة دون أن يرفّ له جفن وكان منزوياً على الأريكة مثلي، وسيقاننا تتلامس.وكانت الببغاء جاثمة على كتفي، تقرفص هناك منذ أن تركنا أخي يسقط في البحر، وخطر لي أن ترك الببغاء تتكلم هو السبيل الوحيد للتخلص منها.

قالت الببغاء:

«اخبرني بشيء، لماذا أعيش وتموت أنت؟»

رمقني بعينين لن تتيبسان مهما بقيتا مفتوحتين.إذن كانت أمي على خطأ.لقد تغير أخي، والدليل يتمثل في العينين اللتين بقيتا محفوظتين داخل محلولٍ ملحي منذ زمنٍ طويل، مفتوحتين إلى الأبد.

قال:

«أنت ميتٌ أيضاً، لكنك لا تعرف».

تذكرتُ حديثي مع فيكتور.السؤالُ نفسه كان يلح علي ذات ليلة في الساعة الحادية عشرة، مما جعلني اتصل به، وكنت اعرف أنه يبقى صاحياً.«نعم، أنا أؤمن بالأشباح»، قال، ولم يبد عليه الاستغراب وهو يسمع صوتي.تخيلته منزوياً على كرسيه، والرأس شعلة تحترق على جسدٍ من

الشمع، تعصف به الذكريات عن الطائرة المحطمة التي سلبت حياة عائلته.حين سألته عما إذا كان يرى الأشباح قال، «أراها طوال الوقت.إذا أغمضت عيني أرى زوجتي وأطفالي ما زالوا أحياء.أراهم من طرف إحدى عيني المفتوحتين يأتون بحركات خاطفة ثم يختفون قبل أن أتمكن من التركيز عليهم.وأشم رائحتهم أيضاً، عطر زوجتي وهي تتمشى، الشامبو في شعر ابنتي، العرق على بلوزة ابني.يمكنني الإحساس بوجودهم، ابني يمسح يده على يدي، وأنفاس زوجتي على عنقي كما تعوّدت أن تفعل وهي تنام قربي، وابنتي تتشبث بركبتي.في النهاية لا بد لك أن تسمع الأشباح.زوجتي تخبرني أن أتأكد من مفاتيحي قبل مغادرة المنزل.وابنتي تذكرني بأن لا احرق الخبز المحمّص.وابني يطلب مني أن اسوّي أوراق الأشجار في الحديقة حتى يلعب عليها.وكلهم يغنون بسعادة أغنية عيد ميلادي».

كان عيد ميلاد فيكتور منذ أسبوعين، وتخيلته جالساً هناك وسط الظلام، يغمض عينيه ويسمع أغاني أعياد ميلاده الماضية ــ حتى وضعت ذلك المشهد كافتتاحية لمذكراته.

سألته:

«ألا تخاف الأشباح؟»

على الطرف الآخر من الهاتف، في خضم الصمت الثقيل، سمعت خشخشة ثابتة.

قال:

«أنت لا تخاف الأشياء التي تؤمن بها».

كتبت هذا أيضاً في دفتر ذكرياته، رغم أنني لم افهم قصده.

لكني الآن فهمت.جسمي متيبسٌ وأنا انتحب دون خجل أو خوف.وكان أخي يراقبني بفضولٍ وأنا ابكي عليه وعلى نفسي، على السنوات التي كنا سنقضيها معاً دون أن يحصل ذلك، على الكلمات التي لن نتبادلها: أخي، وأبي، وأنا.والأهم من ذلك أنني بكيت على الفتيات الضائعات اللائي لن يرجعن إلى عائلاتهن، وأنا كنت من بينهن.

حين طُبعت مذكرات فيكتور بعد شهور بيعت منها آلاف النسخ.وكان لدى النقاد آراء متضاربة في شأنها.ولم يُذكر اسمي في أي مكانٍ من الكتاب، غير أن شهرتي المتواضعة بدأت تتخذ مكاناً مرموقاً وسط أولئك الذين يعملون وراء الكواليس في صناعة النشر.جاءتني وكيلة أعمالي لتعرض علي كتابة مذكرات أخرى بشروط مريحة أكثر، مثل قصة الجندي الذي خسر ذراعيه وساقيه وهو يحاول إبطال مفعول إحدى القنابل.لكني رفضت تلك المشاريع.إذ كنت منهمكاً بتأليف كتابٍ آخر خاص بي.

كانت نبرة صوتها تدل على الموافقة وهي تقول لي:

«حكايات أشباح أخرى؟ يمكنني أن أسوّق ذلك.الناس يعشقون الرعب في هذه الأيام».

لم أخبرها بأني لا ارغب في إرعاب الناس.ليست كل الأشباح تميل إلى الانتقام وإثارة الشغب.أشباحي كائنات مسالمة وخجولة مثل شبح أخي، فضلاً عن أشباح النساء المنتحبات في حكايات أمي.كانت أمي، وهي خبيرة في حكايات الأشباح، قد أخبرتني بأن أخي لن يعود.لقد اختفى بمجرد أن أدرت له ظهري، ومددت يدي إلى علبة المناديل الورقية.كنت أحس شيئاً من الإحباط وأنا انظر إلى مكان جلوسه على الأريكة، برودة باقية لا يمكنك لمسها.صعدتُ إلى الطابق الثاني لأوقظها، وبعد أن وضعتُ إبريق الشاي على النار جلسنا معاً في المطبخ لتسمع حديثي عن زيارة ابنها.بعد أن بكت عليه لسنوات ماضية لم تعد تبكي الآن.قالت:

«تعرف أنه ذهب ولن يرجع، أليس كذلك؟ جاء وقال كل ما أراد قوله».

بدأ إبريق الشاي يغلي وينفث البخار من منخره الوحيد.

قلت:

«ماما، لم اقل بعد كل ما أردت قوله».

أمي التي لم تبتعد نظراتها عني حين كنا على متن القارب تنظر بعيداً الآن.في كل حكايات الأشباح التي تحفظها هناك جانبٌ من القصة لم تشأ التطرق إليه، نوع من العلاقة التي لم ترد الإبقاء عليها.في المطبخ تحضر معنا أشباح اللاجئين والقراصنة، وشبح القارب وهو يتفرّسنا بعيونٍ حمر لا تنغلق، وشبح الفتاة التي أريد لي أن أؤدي دورها، تلك هي الأشباح الوحيدة التي تخافها أمي.

«ماما، هل لديك قصة أخرى؟ إنني أصغي».

وسرعان ما وجدت أمي قصة، كعهدي بها.قالت:

«كانت هناك امرأة تحب زوجها من الأعماق، ذلك الجندي الذي اختفى في مهمة خلف خطوط العدو.صدر تقريرٌ قيل فيه إنه لقي حتفه؛ لكن المرأة رفضت أن تصدق.وتنتهي الحرب وتهرب المرأة إلى هذا البلد الجديد، وفي وقتٍ لاحق تتزوج من جديد بعد عقود.ستبقى تعيش سعيدة إلى اليوم الذي يعود فيه زوجها الأول من عالم الموتى، بعد إطلاق سراحه من معسكر الأسرى السري الذي بقي فيه نحو ثلاثين عاماً».

كدليلٍ على صدق كلامها أعطتني أمي إحدى الصحف وفيها صورة فوتوغرافية للمرأة مع زوجها الأول، بعد أن التأم شملهما في المطار منذ سنوات.نظراتهما لا تلتقي.يبدوان خجولين، قلقين، يائسين، يحيط بهما الأصدقاء ومراسلو الصحف الذين لا يمكنهم رؤية شبحين آخرين يحضران هذه المناسبة الحزينة، إذ كانا مجرد أطيافٍ من حياتهما السابقة.

قالت أمي وهي تصبّ لي كوباً من الشاي الأخضر:

«هذه الأنواع من الحكايات تحصل طوال الوقت».

في المساء كانت جلسة تحضير الأرواح من طقوسنا الجديدة، أمي أصبحت سيدة عجوز، وأنا أيضاً تقدّمت بي السن.سألتني:

«لماذا تسجّل ما أخبرك به الآن؟»

كنت أضع الأوراق في حضني، والقلم على أهبة الاستعداد في يدي.قلتُ لها:

«لا بد أن يفعل هذا شخصٌ ما».

هزت رأسها استنكاراً، مع أنني تصورت أنها راضية وهي تقول:

«يا لهؤلاء الكتاب! لكنك على الأقل لا تختلق الأشياء مثلهم».

تأتيني القصص على هذا النحو أحياناً، عن طريقها هي.كانت أمي تقول لي مرة، أو مرتين، أو ربما ثلاث مرات، «دعني أقص عليك هذه الحكاية».لكني في أكثر الأحيان أسعى إلى تصيّد الأشباح بنفسي، فهذا شيءٌ يمكنني القيام به دون أن اضطر لمغادرة المنزل.لأن الأشباح تسكن بلادنا، ونحن نسكن بلادها أيضاً.إنها كائنات يغلب عليها شحوبٌ غريب، وتخاف منا أكثر مما نخاف منها.نحن نادراً ما نرى ظلالها، علينا البحث عنها وإخراجها من مخابئها.ها هي الطلاسم والتعويذات على مكتبي، زوج ممزق من البناطيل وقميص متهرئ، مع أنها نظيفة وجافة ومكوية جيداً، تذكرني بصدق كلام أمي.الحكايات أشياء يفبركها خيالنا.نبحث عنها في عالمٍ غير عالمنا، ونتركها هناك حتى يعثر عليها احدٌ غيرنا، في هيئة ربما لا تختلف عن هذه الثياب التي تسكنها الأشباح.

الرجلُ الآخر

كانت خطة لايم تقتضي أن يمضي في طريقه بهدوء مخترقاً صفوف الناس المنتظرين بعد نزوله من الطائرة، ولكنه وجد نفسه يقف متردداً عند البوابة يتأمل الوجوه الغريبة في فضولٍ وتلهف.في إحدى يديه حقيبة من قماشٍ خشن، ويمسك باليد الأخرى الاستمارة التي أعطتها إليه السيدة لندمولدر مندوبة خدمات اللاجئين التي كانت تضع على وجهها نظارات بإطارٍ من العاج.حين كانت تودعه في مطار سان دييغو أخبرته أن كفيله، باريش كوين، سوف يكون بانتظاره في سان فرانسيسكو.كانت تلك رحلته الثانية بالطائرة، وقد أمضى الوقت في العبث بكيس بسكويتٍ مملح فارغ، حتى طلب منه الرجل الذي كان يجلس بجواره أن يتوقف.الاتيكيت الأمريكي أربكه، لأن الأمريكيين أحياناً يكونون مؤدبين جداً، وفي أحيان أخرى يتصرفون بوقاحة لا تطاق، يتدافعون كما يفعلون الآن للنزول من الطائرة.وفوضى الأصوات التي تخترق أذنيه باستمرار أربكته أكثر، وجعلت من الصعب عليه أن يفهم الكلمات الإنكليزية المشوشة التي كان يسمعها من الإذاعة الداخلية للمطار.تساءل عما إذا كان قد نسي شيئاً ذا أهمية حين لمح الرجل الذي ظن أنه باريش كوين واقفاً في مؤخرة الصفوف يحمل لوحة كتب عليها بخطٍ أنيق بالحبر الأحمر «السيد لايم».كاد يقفز من الفرح وغمره إحساسٌ لا يوصف بالامتنان، إذ لم يطلق عليه احدٌ من قبل لقب «السيد».

كان باريش كوين رجلاً في منتصف العمر، وباستثناء تسريحة ذيل الحصان بلونها الرمادي، يبدو منظره مميزاً، بعينين عميقتي النظرات يغلب عليهما الأخضر وانفٍ طويل مستدق.كان يضع على رأسه قبعة بنية صغيرة ويلبس سترة جلدية سوداء مفتوحة الأزرار بالكاد تغطي كرشه المتدلي.اقترب منه لايم بخجل، وقبل أن ينطق كلمة بادره الآخر بترديد اسمه مرتين:

«لاي..أم، كما أظن؟ لاي..أم، أليس كذلك؟»

كان باريش يتكلم الإنكليزية وهو يصافح لايم ويخطئ في تلفظ اسمه، مستخدماً مقطعين وليس مقطعاً واحداً.

خمّن لايم أن كونه أجنبياً أصبح شيئاً واضحاً للعيان.ثم رد عليه قائلاً:

«نعم، هذا أنا».

أراد أن يصحح لباريش، ولكن قبل أن يفعل ذلك اندفع باريش ليحضنه دون أن يتوقع منه ذلك، فتركه يربّت على كتفيه ببلادة مدركاً أن الناس الآخرين كانوا ينظرون إليهما باستغراب ويتساءلون دون شك عن طبيعة علاقتهما.وأخيراً تراجع باريش ولكنه بقي يمسك كتفيه وينظر إليه بغرابة مما جعل لايم يتدارك نفسه، ويحس ارتباكاً شديداً وهو يرى نفسه أصبح موضعاً لتلك النظرات الفاحصة.

قال باريش أخيراً:

«سوف أكون صادقاً معك، لم أتوقع أن أراك بهذه الوسامة».

«حقاً؟»

ابتسم لايم ولم يضف شيئاً.لم يكن واثقاً من أنه يسمع كلمات الرجل بوضوح، ولكنه سبق أن تعلم تحمّل مثل هذه المواقف، وظل يتغاضى عن طريقة تلفظ اسمه حتى يتضح الخطأ والصواب من سياق الكلام.

قال الشابُ الذي يقف بجوار باريش بلكنة إنكليزية أيضاً:

«توقف عن هذا، إنك تحرجه كثيراً».

في ذلك الوقت خفّ الضغط على أذني لايم وتحولت فوضى الأصوات إلى نبرات اعتيادية واضحة.

قال باريش:

«إنه صديقي العزيز ماركوس شان».

كان ماركوس شاباً في منتصف العقد الثاني من العمر، أكبر من لايم ببضع سنوات، الذي كان سيبلغ الثامنة عشرة مع حلول الصيف.بدت ابتسامة ماركوس مستهجنة إلى حدٍ ما وهو يمدّ إليه يده، ولم يستغرب لايم لأنه هو نفسه بالقياس إلى ماركوس كان يفتقر إلى تلك المؤهلات.حتى اصفرار أسنانه بدا شيئاً مخزياً بالقياس إلى بياض أسنان ماركوس.كان ماركوس مفتول العضلات يرفع رأسه بشموخ يوحي بهيئة رجلٍ يتوقع الحصول على إرثٍ، بينما إحساس لايم بالقهر والمديونية جعله دائماً يمشي مطأطئ الرأس كأنه يبحث عن سنتات مفقودة.ولأنه اقصر من ماركوس وباريش كان مضطراً لأن يرفع رأسه وهو يتكلم:

«إنني سعيدٌ بلقائكما».

وبدافع الإحراج، لأنه لم يزل يُمسك يد ماركوس، أضاف:

«تبدو كأنك الشخصية رقم واحد في سان فرانسيسكو».

حرر ماركوس يده بلطف وهو يقول:

«هذا رائع.ومن رقم اثنين إذن؟»

كان باريش مقطب الجبين وهو يوجه له يعاتبه قائلاً:

«اسكت.لماذا لا تبدي شيئاً من المساعدة فتحمل حقيبة لايم؟»

وبينما كان ماركوس يحمل الحقيبة ويجرّها وراءه قاد باريش رفيقه لايم عبر ممرات المطار، بينما كانت يده مستقرة على مرفقه.ثم أشار باريش بيديه وهتف كأنه يلقي خطبة بحيث أثار انتباه جميع من في صالة المطار، أو ربما أثار استغراب سان فرانسيسكو كلها.

«لا بد أن هذا سبّب لك صدمة، يمكنني تخيّل إلى أي مدى يبدو الأمر غريباً.المجيء إلى هنا من انكلترا كان كافياً ليسبب لي صدمة حضارية».

ألقى لايم نظرة عابرة من فوق كتفه إلى ماركوس وقال:

«جئت من انكلترا أيضاً؟»

قال ماركوس:

«من هونغ كونغ، يمكنك القول إنني رجل انكليزي فخري».

ضغط باريش على مرفق لايم وأحنى رأسه وهو يهمس بحميمية في أذنه:

«على كل حال، يبدو أنك عانيت من ظروفٍ صعبة في رحلتك».

«لا، لم يكن الأمر سيئاً».

تكلم لايم بلامبالاة، رغم أن احتمال إعادة سرد الحكاية غمره بالذعر.خلال أربعة شهور منذ فراره من سايغون، طلبوا منه أن يروي حكايته مرة بعد مرة، البحارة، وجنود المارينز، وعمال الخدمة الاجتماعية، وكانت أسئلتهم دائماً متوقعة.كيف حصل الأمر؟ كيف تشعر الآن؟ ألم يكن ذلك

فظيعاً جداً؟ أحياناً كان يخبر الفضوليين منهم بأن ما حصل له قصة طويلة، وكان ذلك يحفزهم أكثر لسماع نسخة مختصرة عنها.مثل هذه التفاصيل الصغيرة تطرّق إليها لايم بينما كان ماركوس يقود السيارة إلى خارج الكراج، وعبر الشوارع الفرعية، ثم إلى الطريق السريع.كان لايم يعتبر نفسه من اللاجئين الشباب المجهولين، وراح يسرد بعض الحكايات المشوقة عن حياته ابتداءً من الوقت الذي ترك فيه والديه في لونغ زوين خلال الصيف الماضي، ثم حصل على عملٍ في أحد مقاهي سايغون، إلى أن تتوج كل ذلك بنهاية الحرب.حتى هذه النسخة المختصرة من حكايته كانت تسبب له الإرهاق، في أثناء الكلام كان يلصق جبهته بزجاج النافذة ويراقب السيارات القديمة التي تمرّ بهم على الطريق السريع.

قال:

«إذن أنا هنا الآن».

تنهّد باريش من مقعده الأمامي في السيارة وقال:

«تلك الحربُ كانت أكثر من مأساة، إنها مهزلة؟»

تنحنح ماركوس في إيماءة تدل على الموافقة قبل أن يرفع صوت الراديو إلى بضع درجات.في إحدى القنوات كانت امرأة تثرثر بعبارات المديح على ماركة جديدة من الطلاء تجعل السطوح تلمع بشكلٍ مذهل حتى بدون استخدام قطعة قماشٍ تزيل الغبار.قال ماركوس:

«سوف تجد الجو هنا بارداً ومكفهراً، حتى في أيلول، في الشتاء يسقط المطر.ليس كما يحدث مع الرياح الموسمية في بلادك، ولكنك سوف تتعوّد على ذلك».

أثناء قيادة السيارة أشار ماركوس إلى بضعة أشياء عابرة، لكن العلامات المميزة التي بقيت راسخة في ذاكرة لايم هي حديقة كاندلستك بجدرانها الشامخة، والمياه الرخامية الهادرة في الخليج.وبينما كانت حركة المرور من طريقٍ فرعي آخر تلتقي بطريقهم وتتباطأ السيارة خفض باريش صوت الراديو ثم قال:

«هناك شيءٌ يجب أن تعرفه عنا، أنا وماركوس».

وهنا رأى لايم حافلة ركابٍ بيضاء تتسارع إلى اليمين، تعيق رؤيته للخليج.ابعد رأسه عن النافذة لتلتقي نظراته بعيني باريش.

«نعم، وما هو؟»

قال باريش:

«نحن متزوجان».

رأى لايم من طرف عينه المركبة البيضاء تحاذيهم من الأمام، مروراً بالبقعة الرطبة المتقلصة التي تركتها جبهته على النافذة.وأضاف باريش قائلاً:

«بالمعنى الرومانسي».

تصور لايم أن «بالمعنى الرومانسي» لا بد أن تكون تعبيراً مجازياً من النوع الذي قالت السيدة لندمولدر أن الأمريكيين كثيراً ما يستخدمونه، من قبيل «أنت تقتلني» و«هو يحصرني عند الجدار».في الإنكليزية الاصطلاحية زواج الذكور بالمعنى الرومانسي يمكن أن يعني مجرد صديقين مقربين جداً.عند ذلك ابتسم بأدب حتى رأى ماركوس يحدق فيه من المرآة الخلفية، تلك النظرة المريبة أرسلت رعدة عصبية عبر أحشائه.

قال لايم:

«حسناً، يا له من شيءٍ رائع!»

«آمل أن هذا لا يسبب لك صدمة».

«لا، لا..»

وبعد شيءٍ من الصمت قال:

«إنني رجلٌ ليبرالي».

ثم أضاف:

«ومتفتح الذهن أيضاً».

تصلبت الشعيرات الدقيقة على ذراعيه ومؤخرة رقبته كما كان يحصل كلما قام صبيٌ آخر، عن قصد أو مصادفة، بلمس مرفقه، أو ركبته أحياناً، بينما هما يمشيان جنبا إلى جنب أو يجلسان على مصطبة في حديقة ويمد أحدهم ذراعه فوق كتف الآخر ويلاحقان الفتيات بنظراتهما.

«إذن آمل أن تبقى معنا».

في حقيقة الأمر لم يكن لديه ملجأ آخر غير البقاء في ضيافة باريش، كما كان يحصل في نهاية معظم الأيام في سايغون فلا يجد مكاناً غير غرفة مزدحمة بالعزاب والشباب الذين بلا مأوى، يتململون على حُصرٍ من القصب ويحاولون النوم ويستنشقون الهواء الرطب المشبّع بالعرق.

قال:

«لا تقلق».

فأجاب ماركوس:

«جيد».

ثم رفع صوت الراديو من جديد، على غرار ما كان يفعله بعض الصبيان في منتصف الليل، مع راديو الترانزستور، حين يعرفون أن النوم مستحيل ولكنهم لا يقولون شيئاً.كان لايم يغمض عينيه في ذلك الوقت، لكنه لا يستطيع منع نفسه من تخيل وجوه الأشخاص الذين يعرفهم معرفة عابرة أو يراقبهم في المقهى، من رفاقه في الغرفة.كان يسمع في الظلام طنين البعوض بينما يمارس آخرون العادة السرية.وفي الصباح ينظر بعضهم إلى بعض ببلادة، وما من احدٍ يتكلم عما حصل في المساء الفائت، كأنما كان ذلك عملاً بهيمياً وقع في الغابة ومن الأفضل أن يترك وراءهم.

كان يتصور أنه نسي تلك الليالي، هرب منها الآن، ولكنه تساءل عما إذا كانت البصمات التي تدينه ما تزال عالقة في راحتي يديه.فرك أصابعه في انزعاج على بنطلون الجينز والسيارة تمضي بهم مخترقة حياً مزدحماً بالمارة على الأرصفة، يجوبه أناسٌ من ألوان شتى، في الأغلب من البيض والمكسيكيين، مع بعض السود والصينيين، لا أحد منهم ينظر مرتين إلى الماركات المعروضة في نوافذ المتاجر أو إلى رسوم الجرافيت على الجدران، عليها كلمات من لغة لم يرها من قبل، كتابات مثل: محل حلاقة، طبيب أسنان، موسيقى لاتينية، مطعم أكلات شعبية، الكنيسة للجميع، نحن أتباع المسيح، يحيا الشعب!

انعطفوا إلى شارعٍ تقف على جانبيه سياراتٌ تكاد تكون متلاصقة فأقحم ماركوس السيارة مباشرة في ممر ضيق قرب منزلٍ من طابقين، على بابه القرمزي عُلقت ــ ويا له من شيء غريب! ــ صورة مريم العذراء.قال باريش:

«لقد وصلنا».

في وقتٍ لاحق عرف لايم شيئاً غريباً يتناقض مع شخصية باريش وهو أنه كاثوليكي، وأن المنطقة التي يعيشون فيها هي مشن، وأن الطراز المعماري للمنزل فيكتوري، ولكن في ذلك اليوم كل ما لاحظه هو لون طلاء المنزل.

قال باستغراب:

«أرجواني؟»

فلم ير من قبل منزلاً مطلياً على هذا النحو.

قهقه باريش وهو يفتح باب السيارة، وقال:

«شيءٌ قريبٌ من ذلك، إنه بنفسجي».

كانت الآنسة ليندمولدر تربّت على كتف لايم في مطار سان دييغو وتحذره من أن سكان سان فرانسيسكو يميلون أحياناً إلى تصرفات مستهجنة، ولم يفهم حينئذ ذلك التلميح.في كل يوم خلال الأسابيع الأولى التي قضاها في منزل باريش، أراد أن يتصل بالسيدة ليندمولدر ليخبرها بأنها ربما ارتكبت خطأ، غير أن كرم النفس الذي يتحلى به باريش جعله يخجل من نفسه.كان يقف كل صباح أمام المرآة ويقول لا يوجد شيءٌ يستدعي القلق وإن الأمر كامنٌ في نفسه.لقد كان يقول نفس الشيء بصمت في العام الماضي، مع نهاية صيف عام 74 حين ودّع والديه على محطة الحافلات في لونغ زوين.لم يتذمر أمامهما لأنه جاء وحده إلى سايغون، التي تقع على بعد أميال شمالاً، هناك سوف يشكل امتداداً للعائلة.إنه اكبر الأبناء وعليه واجبات، وقد اعتاد أن يعمل منذ الصغر، فعل ذلك منذ أن ترك المدرسة وهو في الثانية عشرة من عمره واشتغل في تلميع أحذية الجنود الأمريكيين.

كان يعرفهم وهو في سن الثامنة، وبدأ يبحث في قمامتهم عن العلب الفارغة والورق المقوى، ومجلات شهيرة مثل بلايبوي، ومؤن غير مفتوحة.الجنود الأمريكان علموه أساسيات الإنكليزية، بما يكفي ليجد له عملاً بعد سنوات في سايغون، في كنس المقاهي والحانات على شارع تودو حيث تعرض الفتيات أجسامهن مقابل بضعة دولارات.ومع المثابرة أتقن لغة الأزقة والمبغى وحوّلها إلى نوع أكثر فائدة، بما يكفي ليفهم الشائعات التي كان يتناقلها الصحفيون الأجانب صيف عام 75، أي قبل ستة أشهر.الآلاف سيُذبحون إذا سقطت المدينة بيد الشيوعيين.

في نيسان كانت الصواريخ ومدافع الهاون تتفجر على ضواحي المدينة، وظهر أن الشائعات على وشك أن تتحقق.مع أنه لم يخطط للهرب إلى الخارج على بارجة في النهر لكنه وجد نفسه يفعل هذا ذات صباح بعد أن رأى سحابة دخانٍ سوداء فوق المطار، على الأفق، تثيرها قنابل الأعداء.وبعد شهر كان في معسكر بندلتون، سان دييغو، ينتظر الكفالة.تم إنقاذه مع لاجئين آخرين من قبل مدمرة تابعة للأسطول السابع جنوب بحر الصين، واخذوا إلى مخيمٍ مؤقت للبحرية الأمريكية في غوام، ثم نقلوا جواً إلى كاليفورنيا.وبينما كان يستلقي على الأريكة ويستمع إلى الأطفال يلعبون الغميضة في الممرات بين الخيام، حاول أن ينسى الناس الذين كانوا يتشبثون بأي شيء ويسقطون في النهر، بعضهم ارتطم بالحطام، وآخرون أطلق عليهم النار من الخلف جنودٌ

يائسون كانوا يحاولون الهرب والنجاة بأنفسهم.حاول أن ينسى ما اكتشفه أخيراً من أن حياة الآخرين ليس لها أي أهمية لدى الإنسان إذا كانت حياته هو على المحك.

لم يذكر شيئاً من ذلك في الرسالة التي أرسلها بالبريد الجوي إلى والديه بعد وقتٍ قصير من وصوله إلى منزل باريش.كانت تلك رسالته الثانية إلى الوطن.في حزيران، في مخيم بندلتون، أرسل أول رسالة عن طريق وكالة تأهيل اللاجئين.في الرسالتين، على افتراض أن أي رسالة لن تمرّ دون أن يقرأها الشيوعيون، كتب فقط عن المكان الذي يسكن فيه وكيف يمكن الاتصال به.كان خائفاً أن يعرّض عائلته للخطر بأن جعلهم مجرد أقارب شخصٍ آخر هرب من البلاد، وكان خائفاً أكثر من أن الرسائل ربما لن تصل إلى الوطن.المرة الوحيدة التي لم يكن فيها مصير عائلته في ذهنه أثناء تلك الثواني بعد أن يستيقظ، على السرير الدافئ تحت ثلاث بطانيات، كان يتذكر الأحلام التي يتكلم فيها إنكليزية مثالية.ثم يفتح عينيه ليرى وهجاً ازرق خافتاً يتسلل من نوافذ ضبابية، ذلك الوميض الكئيب المتموج الذي يذكره بالمكان الذي كان فيه، مدينة بعيدة غريبة حتى نوعية الضوء فيها تختلف عن الشمس الاستوائية التي يعرفها جيداً.

في أسفل السلم يجد باريش وماركوس يتناولان الإفطار ويتناقشان في أخبار البلد، والسياسة الدولية، أو آخر فيلم.كانا يتشاحنان عادة بروح الدعابة عما إذا كان ينبغي لهما التصويت لجيمي كارتر أم لجيرالد فورد، أو ما إذا كانت المرأة التي من سان فرانسيسكو وقيل إنها حاولت اغتيال فورد، ينبغي أن يحكم عليها بالموت أم يطلق سراحها.

كانا يتجادلان بجدية أمامه، وعرف أنه سوف يكون جزءاً من مقتنياتهما الخاصة.أحياناً كان يتصور أن تلك النزالات تحدث بلا سبب، كما حصل في صباح أحد أيام تشرين الأول بعد أن تساءل باريش عن موعد الامتحانات النهائية التي يجريها ماركوس.

«لماذا لا تؤدي هذه المهمة نيابة عني؟»

طقطق ماركوس أصابعه قبل أن يأتي متبخترا من المطبخ.انتظر باريش حتى صعد ماركوس إلى أعلى السلم راكضاً قبل أن ينحني على لايم ويهمس:

«إنها امتحانات فظيعة.أصعب شيءٍ في السنة الثانية».

هزّ لايم رأسه موافقاً رغم أنه لم يكن واثقاً في هذه المرة مما يعنيه باريش، ثم قال:

«أوه، حقاً؟ أراكما تتجادلان طوال الوقت».

كان باريش يحرّك قهوته بالملعقة فيعمل أشكالاً من رقم ثمانية بدلاً من الدوائر، وأجاب:

«رغم أنه أكبر مني لكنه ليس ناضجاً مثلك، لم ير الأشياء التي رأيتها أنا أو أنت.بطبيعة الحال حين كنت بعمره فعلت بعض الأشياء الفاسدة وكنت كسولاً بعض الشيء.لكني في وضعٍ أفضل الآن.أسلافي صنعوا ثروتهم بوسائل اخجل منها، لكن لا يوجد سبب يجعلني الآن أبدد نقودي.أليس كذلك؟»

«لا يوجد سبب؟»

قال باريش:

«لا».

أدرك لايم أنه أصبح من الأغراض الجيدة لاستثمار النقود التي كسبها باريش طوال عقدين من الزمن كمحاسب شركات، وهو عمل تخلى عنه منذ بضع سنوات ليعمل في مجال حماية البيئة.رغم أن باريش رفض أن يترك لايم يدفع بدل الإيجار لكن لايم كان حريصاً على أن يجد له عملاً في جميع الأحوال.بعد أسبوع من وصوله بدأ يتجول وسط البلد فصادف متجراً للكحول يقع في قلب تندرلوين، قرب محلات تايلور أند تورك.رأى لوحة كتب عليها «مطلوب عمال» مخربشة بالصابون على النافذة قربها عبارة أخرى «نحن نتكلم الإسبانية فقط».ولم يكن الكتيب الذي في جيبه (محادثات يومية بالانكليزية) يتضمن سيناريوهات تتطرق إلى الكلام مع مشردين يجوبون الشوارع خارج المتجر، لذلك لم يقل شيئاً وهو يمر قرب المومس التي كانت واقفة وهي ترتعش والبثور واضحة على وجهها، والتي تجاهلته من أول نظرة، ومرّ أيضاً بأحد المخنثين وكان لديه شعر كثيف على ساعديه، والذي بقي يلاحقه بنظراته.

كانت نوبة عمله تمتد من الساعة الثامنة صباحاً حتى المساء، ستة أيام في الأسبوع، ويوم عطلته الخميس.كان يكنس الأرضية ويعبئ الرفوف بالبضاعة، وينظف التواليت ويمسح النوافذ، ويهتم بعداد النقود، ويعيد نفس الروتين يومياً.أثناء فترات الراحة كان يقرأ كتابه على أمل الحصول على مؤشرات عن طريقة الكلام مع ماركوس وباريش، ولكنه لم يستفد إلا قليلاً من تقليب الصفحات التي تحمل عناوين من قبيل «خوان غونزالس يزور نيويورك ويتجول في المدينة»، أو «انكليزي وأمريكي يشاهدان مباراة كرة قدم».وفي نهاية كل يوم كان يحمل كيسين ثقيلين مليئين بالقمامة إلى مكب النفايات على أحد الأزقة، حيث يرى أشخاصاً يثيرون الريبة يتبولون ويتقيئون حين يحل الظلام، أو قبل أن يحل الظلام.بصرف النظر عن عدد المرات التي يفرك فيها يديه بعد ذلك، كان يحس أنهما قذرتان.يكاد يلمس القذارة تتغلغل في أنسجته حتى يظنها تبقى معه إلى الأبد فتترك أصابعه بصماتها في كل مكان.

في الوقت الذي عاد فيه إلى المنزل الفيكتوري كان باريش وماركوس قد انتهيا من تناول العشاء، وأكل لايم ما تبقى من الطعام في المطبخ بينما هما يشاهدان التلفزيون.وحالما انتهى من

طعامه صعد السلم، حيث دخل الحمام وغسل عنه قذارة النهار محاولاً أن لا يفكر في رشاقة ماركوس وشحوبه هو.وأضفى عليه تيارُ الماء الحار شيئاً من المرونة والهدوء.وفي حالة من الاسترخاء المماثل فتح باب الحمام ذات مساء، وكان يلفّ جسمه بالمنشفة، ليواجه ماركوس يتمشى بتثاقل في الصالة.وقف احدهما أمام الآخر بصمت قبل أن يتحركا في نفس الاتجاه.ثم تحركا معاً في الاتجاه الآخر كأنهما يرقصان، وكان ماركوس يجرجر قدميه بفظاظة وهما يسمعان الضحكات في المسرحية الهزلية التي كان يشاهدها باريش في الطابق الأسفل، وكأنما هناك من يسخر منهما.

قال لايم أخيراً:

«عذراً.هل تسمح لي بالمرور؟»

وكان ظهره يقطر عرقاً بعد الاستحمام لفترة طويلة بالماء الحار.

انتفض ماركوس وراح يهز رأسه باستهجان، وعيناه ترفان ثم تستقران على جسم لايم قبل أن يحني ظهره قليلاً بطريقة هزلية ويقول:

«نعم، بالتأكيد اسمح لك».

أسرع لايم بالمرور قرب ماركوس متجها إلى غرفته.وحالما أغلق الباب انحنى عليه، وأذنه تلتصق بالخشب، ثم سمع نوبة ضحك أخرى بصوت مكتوم من الأسفل وكان من الصعب أن يسمع خطوات ماركوس ينزل نحو الصالة.

في ذلك الجو الغائم المكفهر من صباح الخميس، منتصف تشرين الثاني، ذهب ماركوس ولايم معاً بالسيارة لتوصيل باريش إلى المطار.كان ينوي أن يمضي عطلة نهاية الأسبوع في واشنطن، لحضور مؤتمر عن تهديدات الطاقة النووية للبيئة.وبينما كانت الرياح تضرب النوافذ شرح باريش كيف أن الحكومة تقوم بدفن البلوتونيوم واليورانيوم المنضبين في الصحراء، مما يؤدي إلى تسمم الأرض وتهديد حياة الملايين من الناس.قال باريش:

«في الأغلب الفقراء هم الذين يتأثرون بهذا، ينبغي التفكير في الأمر كحقل ألغامٍ هائل في باحة منزلنا الخلفية».

خبط ماركوس يده بقوة على عجلة القيادة وهو يقود السيارة، ولكن لم يبد أن باريش لاحظ ذلك.في المطار وضع باريش حقيبته عند قدميه على الرصيف، وطبع على خد ماركوس قبلة الوداع واحتضن لايم.ثم قال قبل أن يُغلق باب المسافرين خلف لايم.

«أراك ليلة الأحد».

لوّح لايم بيديه مودعاً من خلف نافذة السيارة، وكان باريش يرد عليه بينما تحرك ماركوس مسرعاً على الشارع المزدحم دون أن يلقي نظرة عابرة.

قال ماركوس مستهجناً:

«متى يكفّ عن محاولاته لإنقاذ العالم؟ الأمر أصبح مثيراً للضجر».

شدّ لايم حزام الأمان وقال:

«باريش إنسان طيب القلب».

«يبدو أن هناك سبباً وراء استشهاد القساوسة.لا احد يتحمّلهم».

مضت بهما السيارة في هدوء خلال الربع ساعة الأخيرة، حتى اقتربا من مركز المدينة.واجهتهما عربة قرب فرن للخبز تدخل الطريق السريع من شارع الجيش فتساءل لايم:

«هل أنت جائع؟ أنا جائع جداً».

«لا تتكلم بهذه اللهجة، عليك أن تتعلم استعمال المختصرات في لغتنا إذا أردت الكلام مثل الناس الذين يعيشون هنا».

«أنا جائع الآن.هل أنت جائع؟»

كان المطعم الذي اختاره ماركوس يقع في الحي الصيني على شارع جاكسون بحجم صالة الرقص تقريباً، فيه أعمدة من خشب الكرز الداكنة وفوانيس حمراء ذات شراشب تتدلى من السقف.حتى في صباح الخميس كان المحل مزدحماً والضوضاء عالية؛ والنادلات في بدلاتهن المزركشة يدفعن عرباتهن على الممرات بينما العمال بربطات عنقٍ أنيقة يسرعون من طاولة إلى أخرى، وقوائم الحساب وأباريق الشاي في الأيادي.جلسا قرب إحدى النوافذ التي تطل على شارع جاكسون، وكان الآسيويون العابرون من هناك مصدر ارتياح في نفس لايم.وبينما كانت العربات تنتقل هنا وهناك كان ماركوس يختار ويرفض ما شاء من أصناف الطعام من المنيو، ويطلب باللغة الكانتونية ويشرح بالانكليزية بينما تكومت أنواع الأطعمة الغريبة أمامه في استعراض مهيب، طبق زلابية شوماي، فطائر باللحم المفروم مع البصل الأخضر، والقرنبيط، وشرائح لحم محمّص ذات جلد بلون بذور الشمام.وأخيراً قال ماركوس وهو يراقب لايم ينتزع الجلد المنتفخ عن سيقان الدجاج تاركاً العظام الهزيلة:

«ما كان باريش ليلمس هذه».

بعد أن رفع النادلُ الأطباق جلسا بهدوء، بينهما إبريق شايٍ معدني مزين بالأقحوان.وكان لايم يحرّك الكوب في دوائر حول بقعة دهنٍ على قماش الطاولة قبل أن يسأل ماركوس عن عائلته، وهي من الأمور التي لم يتحدث عنها ماركوس معه من قبل.كان يعرف عن ماركوس أنه عاش في هونغ كونغ حتى بلغ الثامنة عشرة، ثم اشتغل في أعمال إدارية في سان فرانسيسكو لكنه لم يذهب إلى هناك بنفسه، وعمل أيضاً في مركز للرشاقة وكان يتدرّب كل يوم.كان والده، كما قال ماركوس ساخراً، موظفاً كبيراً في شركة للمطاط وقد أرسله للدراسة في البلاد البعيدة، متوقعاً منه أن يرجع ليدير الأعمال.لكن منذ ثلاث سنوات أرسلت إحدى عشيقات ماركوس السابقات بالبريد الإلكتروني إلى والده إحدى رسائل ماركوس الغرامية، مع صور صريحة ضمن المرفقات.وهنا قال ماركوس معلقاً على ذلك وهو مشتت الذهن:

«كانت صوراً صريحة جداً».

وفي نهاية الأمر تبرأ منه والده، والآن يتولى باريش دفع جميع نفقاته.

وأخيراً قال ماركوس منهياً حكايته:

«هل تتخيل شيئاً أسوأ من ذلك؟»

لم يكن لايم واثقاً مما إذا كان ماركوس يشير إلى خيانة العشيقة أم إلى نوايا الأب، أم إلى النقود التي يدفعها باريش.أراد أن يعرف معنى «صريحة»، لكن حين كان ماركوس يرشف الشاي، ولم يتوقع أي جواب، بدأ يتكلم عن عائلته هو، عن المزارعين، والباعة المتجولين الذين يؤخذون كمجندين.لا احد منهم ذهب بعيداً عن لونغ زوين، إلا للتجنيد في الجيش.كان لايم أول مستكشف في العائلة، ولعل ذلك كان السبب في قلق والديه عليه وهما يودعانه في محطة الحافلات في لونغ زوين، كانت تلك من اللحظات القليلة في حياته التي يتذكرها بوضوح.بقعة مكشوفة من الأرض المتربة والأسمنت يتزاحم عليها المسافرون الذين ينتظرون الحافلة، يحملون صناديق الكرتون التي ربطت بحبالٍ مبرومة، يبقون قريبين منها مع خنازيرهم ودجاجاتهم التي وضعوها داخل أقفاصٍ من الأسلاك.وبينما ترتفع حرارة الشمس تتكاثف روائح العرق وفضلات الحيوانات فتصعد في موجات مع الغبار.

قال أبوه وهو يتفادى النظر إليه مباشرة بعينين رماديتين تميلان إلى الزرقة، نظراتهما مشوشة من نضوب الماء فيهما:

«لقد تعبنا في تربيتك، اعرف انك لن تضيع في المدينة».

قال لايم مودعاً:

«لن يحصل ذلك، يمكنك الوثوق بي».

سمع السائق ينادي الركاب للصعود بينما كانت أمه تحرّك يديها على ذراعيه وتربّت على صدره، كأنها تفتش عن شيءٍ قبل أن تخرج لفافة صغيرة من الأوراق النقدية وتدسّها في جيبه.قالت:

«اعتن بنفسك».

ظهرت حول فمها تجاعيدٌ عميقة كأنها عقد خيطٍ تربط شفتيها.

«لم اعد أتحمل المزيد من هذا».

لم يقل إنه يحبها، أو يحب أبيه قبل أن يرحل.كان مشوش الذهن ومحبطاً فأسرع للصعود، لأنه إن لم يجد مقعداً فارغاً سوف يضطر لأن يقف في الممر المزدحم طوال الرحلة، أو يخاطر بحياته على سقف الباص ولن ينزل إلا في سايغون.

انحنى عليه ماركوس:

«كيف لك أن تعرف ما يحدث؟ لست عرافاً.على أي حال، أصبح ذلك من الماضي.لا يمكن الاستمرار في تذكر الماضي والعيش فيه.أفضل طريقة لمساعدتهم الآن أن تساعد نفسك».

قال:

«نعم...»

رغم كل شيء حتى هذا كان في نظره طريقة تفكيرٍ أمريكية.

«السؤال هو ماذا تريد أن تكون؟»

«أن أكون؟»

«في المستقبل.ماذا تريد أن تكون؟»

لم يطرح احدٌ من قبل هذا السؤال على لايم، ونادراً ما كان يطرحه هو على نفسه.ظل مقتنعاً بالعمل في متجر الكحول، وخصوصاً حين كان يقارن مصيره بمصير أصدقائه في الوطن.أولئك العاجزون مثله أصبحوا كناسين للبارات أو صبيان منازل للأمريكان، بينما كبار السن منهم انخرطوا في الخدمة العسكرية، وتحولوا إلى لصوصٍ أو قوادين أو خدماً للأغنياء.لسوء الحظ

حالما ينجرفون في تلك المسالك لا يعودون إلى الوطن، وإذا عادوا يكونون شحاذين ينقرون بعكازاتهم على جانب الطريق.

كان ماركوس يراقبه عن كثب.فكرة أنه أراد أن يصبح طبيباً أو محامياً أو من رجال الشرطة كانت حتماً من الأشياء السخيفة، غير أن الرغبة في أن يبدو نبيلاً في نظر ماركوس، أو ربما في نظره هو، أثارت اهتمامه.

قال لايم أخيراً:

«أردت دائماً أن أكون إنساناً صالحاً».

نظر ماركوس إلى قائمة الحساب وهو يقول:

«حسناً، ألا نريد جميعاً أن نكون كذلك؟».

في اليوم التالي في متجر الكحول كان لايم يُحصي الدقائق والثواني وهو يحرك مكنسته هنا وهناك ويراقب عداد النقود، مناوبته لا يبدو أنها تريد أن تنتهي بينما كان يوم أمس فقط يريد لليوم أن يستمر إلى الأبد.بعد أن انتزع قائمة الحساب من ماركوس ودفع ثمن فطائر «ديم سوم» التقليدية راحا يتجولان في محلات بيع التحف الأثرية في الحي الصيني، ثم اتجها بالسيارة إلى جزيرة تريشر وشاهدا جسر غولدن غيت يلتف عالياً على ضوء الغسق بالقرب من مسرح ماركيت ستريت، حيث جلسا متلاصقين يشاهدان مسرحية (أحدهم طار فوق عش الوقواق).وفي وقتٍ لاحق تناولا طبق السوشي في أحد المطاعم على شارع سوتر في الحي الياباني، ولم يتطرق احدهما إلى التطورات الأخيرة في علاقتهما ـ تحدثا عوضاً عن ذلك عن جاك نيكلسون، الذي لم يشاهد لايم أي فيلم من أفلامه؛ وعن أوروبا الغربية التي لم يزرها لايم؛ وعن أنواع السوشي التي لم يذقها لايم في حياته.باختصار، كان ماركوس هو الذي يتحدث في أكثر الأحيان، وكان هذا يناسب لايم.

كان الحديث مع ماركوس يمضي بسلاسة، كل ما على لايم أن يطرح الأسئلة.لكن ماركوس نادراً ما كان يسأل عن شيء، وأثناء اللحظات التي لا يجد فيها لايم ما يسأل عنه يحل الصمت أو يسمعان ضجيج السيارات أو ثرثرة أشخاص قريبين في المطعم مثيرين للإزعاج.لم يتكلم أحدهما بشيء عن باريش، ولا حتى حين عادا إلى المنزل الفيكتوري وفتح ماركوس زجاجة نبيذ أحمر تعود لباريش، نوع نابا فالي.ولأن لايم لم يذق النبيذ من قبل فقد نهض في الصباح وهو يشعر كأن لولباً يخترق جبهته.وبالكاد استطاع النهوض من الفراش والذهاب إلى الحمام، هناك وهو ينظف أسنانه تذكر بغموض أن ماركوس كان يساعده على صعود السلم ويلقيه على السرير.لم ير أي علامة تدل على وجود ماركوس قبل أن يذهب إلى عمله، فاستنتج أنه كان نائماً.

حين عاد إلى المنزل الفيكتوري مساءً وجد ماركوس يشاهد التلفزيون في غرفة الجلوس وهو ما يزال ببرنص الحمام وشعره الأشعث.قال ماركوس وهو يطفئ التلفزيون بالريموت:

«وصلتك رسالة اليوم».

على طاولة القهوة رأى مغلف بريدٍ جوي ازرق عليه كتابة يدٍ لا تخطئها العين، الآثار التي تركها القلم تكاد تقطع المغلف الخفيف.والد لايم أرسل الرد على رسالته الأولى، والرسالة معنونة إليه في مخيم بندلتون وأحالتها وكالة توطين اللاجئين في سان دييغو.

قال ماركوس:

«ألن تفتحها؟»

تمتم:

«لا، لا أعتقد ذلك».

راح يقلب المغلف بأصابعه، عاجزاً عن تعليل سبب خوفه من هذه الرسالة بقدر ما كان يتطلع إليها.وعندما فتحها أخيراً أيقن أن حياته لا بد أن تتغير مرة أخرى، مع أنه ربما أراد لها أن تبقى على تلك الحال.ثم استجمع إرادته فوضع الرسالة على الطاولة وجلس ملتصقاً بماركوس على الأريكة، وكانا ينظران معاً إلى المغلف الأزرق كأنه يحمل رسالة من مصدرٍ مجهول وضعت تحت الباب.

قال ماركوس:

«يتصورون أننا أصابنا مرضٌ من أمراض الغرب، هكذا قال أبي».

قال لايم:

«نحن؟»

«لا تتصور أنني لا اعرف».

بقيت عينا لايم على الرسالة، كان على يقين أن والده لم يكتب أكثر مما يجب أن يقال: حاول أن تحصل على بعض النقود لترسلها إلينا، كن حذراً وانتبه إلى نفسك.كانت الرسالة مليئة بالخطوط تحت بعض الكلمات، ودفعه ذلك للتخمين بشأن أي شيءٍ بالغ الخطورة يمكن أن يكون

وراء مفردات أبيه البسيطة.لم يكن الأب يسعى للبحث عن كلمات جديدة، بينما كان لايم على العكس من ذلك.رفع رأسه لينظر إلى ماركوس وطرح السؤال نفسه الذي أراد طرحه منذ يوم أمس.

«ما معنى كلمة صريح؟»

تساءل ماركوس مستغرباً:

«صريح؟ نعم، تماماً.صريح..معناها أن يُباغت المرء على حين غرة، كما يحدث في الصور أو الأفلام، حين يلتقط لك شخصٌ ما صورة وأنت لا تنظر إليه.وتعني أيضاً أن المرء مخلص ومباشر في الكلام».

اخذ لايم نفساً عميقاً وقال:

«أريد أن أكون صريحاً مثلك».

«يجب أن تقول أحب أن أكون صريحاً».

قال لايم وهو يضع يده على ركبة ماركوس:

«اخرس!»

***

في وقتٍ لاحق أحس أن الأمور لم تعد تجري بشكل طبيعي.أولاً، الملابس لم تكن تخلع كالسابق في يسر وسلاسة كما يتوقع، كأنما أي زر من الأزرار أو أي إبزيم أصبح اصغر، أو كأن أصابعه تضخمت فصارت تتحرك على نحو اخرق.والإيقاع أصبح متقطعاً أيضاً.أحياناً في خضم تلهفه كان يتحرك بسرعة اكبر من اللازم، ولتلافي ذلك، أو بسبب الإحراج، يمضي الإيقاع ببطء شديد، فيتصرف خارج السياق مما يدعوه إلى الاعتذار مراراً على ذراعٍ هنا، أو ركبة هناك، حتى قال له ماركوس:

«توقف عن الاعتذار واستمتع بحياتك، بحق السماء».

لذلك كان يبذل ما في وسعه للبقاء مسترخياً ومكرساً نفسه للتجربة.في وقتٍ لاحق، حين ألقى ذراعه على كتف ماركوس، مواجهاً ظهره، لم يستغرب لاكتشاف أنه لم يعد يتذكر أشياء كثيرة.أصبحت عادته في النسيان راسخة، كأنه كان يمضي في حياته الجديدة يمشي متراجعاً وسط الصحراء، يمسح آثار قدميه، تاركاً مجرد ذكريات مشتتة عن شفاهٍ غليظة تضغط على شفتيه، أو راحة يدٍ ثقيلة لرجل مفتول العضلات.

قال:

«أنا احبك».

لم يتحرك ماركوس أو ينظر خلفه، لم يقل «أنا احبك أيضاً»، لم يقل أي شيء في الواقع.كانت دقات ساعة جد باريش الأثرية تزداد صخباً مع كل ثانية، ودمدمة قطرات المطر على السقف واضحة، ولايم يتلمس في بحثٍ اخرق عن ملابسه الداخلية.

قال ماركوس وهو يستدير ويلقي إحدى ساقيه على لايم:

«ألا تنتظر دقيقة؟ ألا تعتقد أنك تبالغ في ردود أفعالك؟»

قال لايم محاولاً الفكاك بلا جدوى من قبضة ماركوس التي كانت مثل حجر الطاحونة ومن صاحبها الذي يجثم فوقه بثقله في وضع القرفصاء:

«لا..أريد فقط الذهاب إلى الحمام، رجاءً».

ربّت ماركوس على يد لايم وقال:

«صعقتك المفاجأة فحسب.عاجلاً أم آجلاً سوف تكتشف أن الحب مجرد فعل انعكاسي لدينا جميعاً.ربما بعد أسبوع من الآن لن تعرف لماذا قلت ذلك».

قال وهو غير واثق مما إذا كان يريد تصديق ماركوس أم لا:

«حتماً».

«هل تعرف شيئاً آخر عن مستقبلك؟»

«لا اعرف..ولا أريدك أن تخبرني».

قال ماركوس:

«ربما بعد سنة من الآن سوف تسمع رجالاً آخرين يقولون لك إنهم يحبونك، ويقولون انك جميل جداً بحيث لا يصحّ أن تبقى وحيداً».

جذبه ماركوس إليه، وبينما كان المطر مستمراً بقي أحدهما يمسك الآخر.في الخارج بدأت سيارة تزمّر مرات ومرات، وكان لايم يعرف أن ذلك يعني أن شخصاً أوقف سيارته صفاً ثانياً

بحيث أغلق الشارع الضيق أمام المنزل.ثم أصبح كل شيء هادئاً إلا من دقات الساعة، وتصوّر أن ماركوس كان نائماً حتى تململ وقال:

«ألن تقرأ الرسالة؟»

لقد نسي كل شيء عن الرسالة، ولكن بعد أن ذكرها ماركوس أحس أنها شعلة متوهجة في ظلام الغرفة يرى على صفحتها وجه أبيه، ويحس لمسات أمه، هي الشيء الوحيد الذي له معنى وبقي يحتفظ به.

«لم اقرأها لك أبداً».

«لن اقرأها لك أبدًا.هذا هو التعبير الصحيح بصيغة المستقبل».

«لن اقرأها لك أبداً».

«انك تتحسن الآن.لا تقرأها لي إذن».

«لكني سأخبرك بما سأكتبه رداً عليها».

قال ماركوس وهو يتثاءب:

«كما تشاء إذن».

حتى هذه اللحظة لم يفكر لايم في الرد الذي سوف يبعثه إلى أبيه وأمه بعد أن وصلت رسالتهما.وراح يرتجل الكلمات، الأسلوب هنا لا بد أن يكون مهماً مثل الفحوى.قال لنفسه إن رسالته ستكون تقريراً من مدينة غريبة، ذات اسم اسباني، تشتهر بسياراتها التي تسير بالأسلاك، جزيرة الكاتراز، وجسر غولدن غيت.سوف يرفق معها بطاقات بريد لمناظر سياحية، ويتطرق إلى الفرح الذي يحسّه الإنسان لأن يعيش في مدينة يعرف غير الآسيويين فيها مهرجان الخريف.ويصف الحشود الهائلة من الناس في الحي الصيني يحتفلون بالسنة القمرية الجديدة، ويكون معهم، حيث تطلق المفرقعات النارية عند قدمي أسد راقص، ويتمنى أن تحتفل عائلته أيضاً.أصوات المفرقعات النارية المحترقة تحت قدميه تذكره بفترة الصبا في الوطن..الرسالة التي سيكتبها تذكره بالأوقات التي تتجمع فيها العائلة حول أبيه وهو يقرأ بصوت جهوري رسالة عارضة من قريبٍ له يعيش في بلد بعيد.وفي النهاية يخبرهم في الرسالة بأن لا يقلقوا عليه، لأنه يعمل جاهداً على ادخار النقود، إنني أوطد علاقات جيدة مع بعض الأصدقاء.نحن نعيش في منزلٍ أرجواني.

سمع وقع أنفاس ماركوس ترتفع وتهبط بإيقاع ثابت، خاف أن ماركوس إذا غط في النوم لن يتمكن من طرح السؤال الذي أراد أن يطرحه عليه منذ يوم أمس.قال:

«اخبرني بشيء».

فتح ماركوس عينيه:

«هل أنا إنسان صالح؟»

هبّ رذاذٌ خفيف وارتطم بالنوافذ، صوت مألوف لليلة الجمعة في يوم غزير المطر.قال ماركوس وهو يغمض عينيه:

«نعم، كنت حقاً إنساناً صالحاً».

إلى هذا الحد، على الأقل، استطاع أن يكتب عن أخباره إلى الوطن.

بعد أن نام ماركوس انسلّ لايم من السرير وذهب إلى الحمام، هناك وقف تحت تيار الماء الحار مدة طويلة حتى أوشك أن يغمى عليه من حرارة البخار.كان بملابسه التحتية يمشط شعره حين رنّ الهاتف في غرفة الجلوس.

سمع باريش يتكلم بصوتٍ مرتفع مبتهج كأنه كان ثملاً:

«أردت فقط أن اعرف كيف تسير الأمور لديكما».

قال لايم وهو ينظر إلى الرسالة التي على الطاولة:

«كل شيء على ما يرام، لا شيء جديد على وجه التحديد».

لم يحب أن يتكلم كثيراً على الهاتف، حيث تختفي المؤشرات عن لغة الجسد لتساعده في التعبير، فكان الحوار مختصراً.لم يبد باريش أي اهتمام، ثم تمنى له ليلة سعيدة بنبرة صاخبة كما فعل في بداية الاتصال.

جلس لايم على الأريكة وفتح الرسالة بحذر.وجد ورقة مطوية كأنها قشرة البصل، تكاد تكون شفافة تحت الضوء، وتعرف في الحال على خط أبيه المتعرج وكأنما كتب الرسالة شخصٌ معتوه، وكان من الصعب عليه تفكيك شيفراتها كما كان من الصعب على الأب كتابتها أول مرة.

20 أيلول 1975

ابني العزيز،

وصلتنا رسالتك يوم أمس.نحن جميعاً سعداء لأن نعرف أنك بخير وبحالة جيدة.نحن على ما يرام.في هذا الصيف أعمامك وأبناء أعمامك انضموا إلى صفوف المتطوعين في الجيش.الحزب عفا عن جرائمهم السابقة.أعمامك يشعرون بالامتنان جداً، وقد تنازلوا عن بيوتهم للثورة.حياتنا أكثر سعادة الآن بعد أن جاء أعمامك وأبناؤهم وزوجاتهم وأطفالهم ليعيشوا معنا في منزلنا.الأجداد يخبروننا أننا سوف ننسى الماضي ونعيد بناء وطننا المنتصر!

إذا وجدت وقتاً أرسل لنا أخباراً عن أمريكا.لا بد أنها بلد الخطايا أكثر من سايغون، لذلك عليك أن تتذكر ما تقوله كوادر الحزب.الرجل الثوري يجب أن يعيش حياة متحضرة! نحن جميعاً نفكر فيك.أمك تفتقدك، وتبعث إليك تحياتها.وكذلك أنا.

أبوك

بعد أن قرأ الرسالة مرة ثانية طواها وأعادها إلى المغلف، وتركها على طاولة القهوة.كان يشعر بالقلق، فنهض وتمشى إلى النافذة المطلة على الشارع والأرصفة.كانت الشوارع مقفرة في هذا الوقت المتأخر من المساء.ضوءُ الغرفة حوّل زجاج النافذة إلى مرآة تعكس وتضخم المنظر في الخارج.رفع يده فرأى انعكاس صورته على الزجاج، ولمس وجهه، ثم تتبع منحنى رقبته وخطوط فكيه، رأى صورته تفعل نفس الشيء.لماذا إذن لم يتعرّف على نفسه في الصورة؟ لماذا يرى من خلال نفسه ما يحدث على الشارع المظلم؟

قطراتُ المطر ترقط الزجاج وتشوش الوجه الآخر.انتظر قرب النافذة عدة دقائق حتى رأى علامة للحياة، كان رجلان يسرعان في خطواتهما على الشارع، كتف أحدهما تلتصق بكتف الآخر والأيدي في الجيوب.رأسان منحنيان لتفادى الرذاذ، في زاوية ضيقة يستمع أحدهما للآخر.تصور أنهما صديقان.لكنه خمّن أيضاً أنهما ربما يكونان عاشقين.

أثناء اقترابهما من مصباح الشارع قال أحدهما شيئاً جعل الآخر يضحك، ارجع رأسه بحيث أضيء وجهه الغامض في لحظة.نظر الرجلُ مباشرة إلى لايم فأدرك أنه يراه من الشارع، تساءل عن صورته، بصدره العاري وذراعيه على خاصرته، وشعره المرسل إلى الوراء.وفجأة رفع الرجلُ يده كأنه يحييه.ونظر شريكه إلى النافذة أيضاً، حرّك لايم يده، وفي لحظات بدا أن الثلاثة تربطهم علاقة عابرة.ثم مضى الرجلان في طريقهما، وسرعان ما اختفيا في الظلام بينما بقي واقفاً ويده على زجاج النافذة، يتساءل عما إذا كان هناك شخصٌ يراقبه من وراء ستائر النوافذ.

سنواتُ الحرب

قبل أن تقتحم السيدة هوا حياتنا صيف عام 1983، لم يكن أي شيءٍ تفعله أمي يثير استغرابي.روتين حياتها كان متوقعاً مثل دوران الكرة الأرضية، من الطريقة التي تنقر بها على باب غرفتي كل صباح في الساعة السادسة، والسادسة والربع، والسادسة ونصف، حتى استيقظ أخيراً.فإذا خرجتُ من غرفة النوم تكون قد لبست ثيابها التي لا تتغير، بلوزة قصيرة الأكمام وتنورة من قماش ناعم تنسجم معها.كان لديها سبعة أطقم من ثياب الخروج هذه، لكنها إذا لبست ثياباً أرجوانية ضاربة إلى الحمرة اعرف أن اليوم هو الاثنين.قبل أن نغادر المنزل تطفئ أمي الأضواء، وتتأكد من النار في المطبخ، وتغلق الشبابيك الحديدية السوداء، تفعل هذا دائماً، ثم ونحن في السيارة، تأمرني أن اقفل الباب قربي.

بينما يقود أبي سيارة الاولدزموبيل وأنا اجلس في المقعد الخلفي اقرأ قصة هزلية مصورة، تعدّل أمي ماكياجها.وعندما نصل إلى ميدان سانت باتريك بعد عشر دقائق تختلط علامات الخجل على خديها مع طبقة الأساس.والعطرُ يكون آخر اللمسات، رشة أخيرة على كل جانبٍ من الرقبة.رائحة الغاردينيا تثير الإحساس بالخدر، تبقى في ذاكرتي منذ أيام الدروس الصيفية للسيدة كورمان، حيث كنت لسبع ساعات في اليوم لا أتكلم غير الانكليزية.كم كنتُ اعشق المدرسة! حتى في شهور الصيف.ذلك يشبه أن يكون المرء في عطلة بعيداً عن المنزل، وفي الساعة الثالثة يصيبني الإحباط من المشي مسافة أربعة شوارع باتجاه محل البقالة الذي يملكه والداي، اسمه «سايغون الجديدة»، حيث نادراً ما يتكلم أحد الانكليزية، والفيتنامية هي السائدة.

نادراً ما يترك والداي موقعهما، عدّاد النقود تُسمع له طقطقة دائمة مع تدفق النقود من وإلى سايغون الجديدة.والزبائن يتزاحمون في السوق.إنه احد الأماكن القليلة في سان خوسيه الذي يمكن للفيتناميين فيه شراء السلع الاستهلاكية الأساسية من التوابل، ورز الياسمين والينسون، وصلصة السمك، والفلفل المحمّص.الناس هنا لا يتوقفون عن المساومة مع أمي بخصوص أي شيء، ابتداء من مكعبات السكر، التي كنت أظنها من الأحجار الصفراء الغريبة في أفلام الخيال العلمي، وانتهاء بأنواع اللحوم المجمدة، وشرائح السمك والروبيان التي تلمع عيونها، وأربطة الأحذية وأمعاء الخراف اللذيذة وأكباد الدجاج، والفطر الأبيض الرقيق كالزبد.

سالتُ أمي يوماً:

«ألا يمكننا أن نبيع فقط الأطعمة التي يُعلن عنها في التلفزيون؟ ماذا عن سجق المورتديلا؟»

كان من السهل علي قول ذلك بالفيتنامية لأن كلمة تلفزيون تكون مختصرة TV، ولم اعرف الكلمات الفيتنامية التي تعبّر عن أشياء أخرى أردت قولها.

قطبت أمي حاجبيها وقالت:

«ماذا؟ إذا كنتُ لا أستطيع تلفظ الكلمة لن يشتري ذلك الزبائن.الآن عليك أن تلصق الأسعار على تلك العلب».

«سوف يسألون عن أرخص الأسعار.لماذا يساومون على كل شيء؟ لماذا لا يكتفون بدفع السعر المكتوب على البضاعة؟»

كنتُ في الثالثة عشرة من العمر، وبدأت أتجرأ بما يكفي للتعبير عن شكوكي، كما يحصل الآن، في أن أمي ليست دائماً صادقة فيما تقول.

قالت أمي:

«هل أنت من الذين يدفعون السعر المحدد فوراً؟ أم من الذين يسعون لمعرفة القيمة الحقيقية للأشياء؟»

لم أكن واثقاً من الرد.كل ما اعرفه في سايغون الجديدة أنني مكلف في كل مساء بكتابة الأسعار على العلب والصناديق.كنت أجثم على ركبتي، ابحث عن البطاقات اللاصقة وأخذها من الرف خلف أمي.وكنت كثيراً ما أرى السيدة هوا تثرثر هناك.إنها مثل أمي، في أواخر العقد الرابع من عمرها، وتلبس زياً لا يكاد يتغير: سترة بيضاء، بنطلون ابيض، وحذاء ابيض، وتضع نظارات سميكة تخفي وجهها.بينما كانت أمي تضع المشتريات في الأكياس، قالت السيدة هوا:

«إنني اجمع التبرعات للمناضلين الذين يقاتلون الشيوعيين، يا عزيزتي».

كنت اعرف بعض الأشياء الأساسية عن تاريخنا، بشكل لا يختلف عن معرفتي بقصة آدم وحواء.الشيوعيون يزحفون من فيتنام الشمالية سنة 1975 لغزو فيتنام الجنوبية، يريدون طردنا من مناطقنا، وإجبارنا على سلوك الطريق عبر الباسفيكي إلى كاليفورنيا.لا أتذكر شيئاً عن الحرب، لكن السيدة هوا قالت إن الناس لم ينسوا بعد.هناك جيشٌ من مقاتلي حرب العصابات من الفيتناميين

الجنوبيين يتدربون في غابات تايلاند، يستعدون لشن هجوم مقابل على فيتنام الموحدة.والخطة تقتضي إثارة الناس المساكين ضد حكامهم من الشيوعيين، القيام بثورة، إعادة الروح إلى جمهورية الجنوب.

قالت السيدة هوا:

«رجالنا يحتاجون إلى الدعم، ونريد من المواطنين الطيبين مثلك المساهمة في التبرعات».

فركت أمي إحدى ساقيها على الأخرى، حتى سمعت طقطقة النايلون.انفتحت بعض عقد الخياطة وراء ركبتها، لكن أمي لا تريد أن تتخلى عن هذا الثوب الضيق الذي يضغط على كاحليها.قالت:

«أتمنى لو استطعت، سيدة هوا، لكن هذه أوقات صعبة، الزبائن يتناقصون كل يوم، فضلاً عن الكساد وأسعار الغاز.وابنتنا في الكلية.تعليمها يكلفنا مبالغ طائلة كأنه إيجار سنوي».

كانت السيدة هوا تفتح وتغلق الإبزيم الفضي لمحفظتها.رأيت سواراً ذهبياً نحيفاً على معصمها، وكان الطلاء الأحمر لأظافرها صقيلاً مثل دهان سيارةٍ جديدة.

«أنا أتفهم هذه الأمور.لكن الناس يتكلمون.هل سمعت عن السيدة بينه؟ يقول بعض الناس إنها متعاطفة مع الشيوعيين، لأنها بخيلة ولا تقدم شيئاً.هناك كلام عن مقاطعة متجرها».

كانت أمي تعرف السيدة بينه، فهي صاحبة صالونٍ للتجميل يقع على بعد بضع بنايات إلى الغرب من وسط البلد، لكنها حاولت أن تغير الموضوع لتتحدث عن جو حزيران المشبع بالبخار وعن أسعار الذهب.اتفقت السيدة هوا معها بشأن درجة الحرارة، وكانت تبتسم وتظهر صفاً بشعاً من الأسنان.نظرت إلي قبل أن تغادر وتقول هذه الكلمات:

«فكري في الأمر، يا عزيزتي.استعادة وطننا قضية نبيلة نفخر بالنضال من اجلها».

تمتمت أمي بعد أن ذهبت السيدة هوا:

«غبية».

عدنا إلى المنزل بالسيارة مساءً عبر الشارع العاشر، وعادت أمي إلى سرد نفس الحكاية لأبي الذي كان مشغولاً جداً بمراجعة سجلاته فلم يسمع المحاورة.وحين تكلما عن رجال حرب العصابات تخيلتهم من الرجال الذين لا يحلقون لحاهم، ويتحملون لدغات البعوض وشعرهم كثيف أشعث ويلبسون بدلات عسكرية مرقطة كجلود النمر؛ يعيشون على مياه المطر، ويأكلون الخنازير

البرية، واليرقات؛ يمارسون مهارات القتال اليدوي والاشتباك بالسلاح الأبيض.قلت من مقعدي الخلفي:

«كم تعطين السيدة هوا؟»

أجابت:

«لن أعطيها شيئاً.إنه ابتزاز».

قلتُ لها:

«لكنهم يقاتلون الشيوعيين، ألا ينبغي مساعدتهم؟»

كنت اعرف أن هؤلاء يسمّون أيضاً الصينيين والكوريين الشماليين، مع وجود غيرهم من الكوبيين والساندنستيين يهددون بالتغلغل إلى حدودنا الجنوبية، كما صرح بذلك الرئيس ريغن على برنامج «عالمنا هذه الليلة».

قالت أمي بصوتٍ مليء بالضجر والإنهاك:

«الحرب انتهت.وليس هناك أي احتمال للقتال من جديد».

كنت اشعر بالغضب، لأن كلمات السيدة هوا وملامحها أثبتت لي أن الحرب لم تنته بعد، لأنها جاءت معنا بطريقةٍ ما من سايغون القديمة إلى سايغون الجديدة.والأكثر من ذلك أنني قرأت في مجلة (نيوزويك) وجدتها في عيادة طبيب الأسنان وعرفت أننا نخوض معركة ملحمية ضد إمبراطورية الشر للاتحاد السوفيتي.لكني إن كنت منزعجاً من كلام أمي فقد أزعجني أكثر كلام أبي.قال وهو يحرّك إصبعه داخل أذنه:

«ربما تكون الحرب انتهت، لكننا إذا دفعنا مبلغاً بسيطاً من المال فذلك يجعل حياتنا أفضل إلى حد كبير».

لم ترد أمي عليه، كانت تنقر بأصابعها على مسند الكرسي.وأيقنتُ أنها سوف تجد طريقة مناسبة للتعامل مع أبي، ذلك الرجل الأصلع المراوغ الذي له عيون سلحفاة مريضة.في وقتٍ متأخر من تلك الليلة كنتُ في المطبخ لأشرب الماء، فسمعت أمي تحاول إقناعه من خلف بابهما الموصد.لم يكن ثمة مجال للتصنت.وكنا مؤخراً قرأنا في الصف قصة «سقوط منزل آوشر» لأدغار ألن بو ضمن دروس السيدة كورمان، مما أثار الخوف لدي من رؤية شخصٍ ميت يجلس في ظلام الصالة فاندفعت إلى الباب، وسمعت أمي تقول:

«لقد تعاملتُ مع أشخاص أسوأ منها».

كان الذعر في داخلي أقوى من الفضول.ثم أغلقت باب غرفتي وقفزت إلى سريري وأنا ارتعش، أزحت كتبي المنهجية التي كانت ملفوفة بورق بني اقتطعته من أكياس التسوق وكنت قد خربشت عليه «رياضيات» و«التاريخ الأمريكي».كانت أمي تتكلم عن المجاعة التي حدثت في نهاية الحرب العالمية الثانية، حين كانت في التاسعة من عمرها.وقبل أيام شاهدت أمي تقريراً تلفزيونياً عن المجاعة في أثيوبيا جعلها تتذكر الماضي بينما كنت انتزع الشعرات الرمادية من رأسها.قالت:

«هل تعرف أن عشرة أطفال في قريتي ماتوا من الجوع؟»

قلتُ لها إنني في الواقع لم اعرف ذلك.

«..وكبار السن أيضاً كانوا يموتون على قارعة الطريق.ذات يوم وجدتُ فتاة تعوّدت أن العب معها ميتة على عتبة بابهم».

لاذت أمي بالصمت وهي تنظر إلى نقطةٍ على الجدار فوق التلفزيون، لم اقل شيئا.كانت تلك من الحكايات التي تخبرني بها طوال الوقت، على كل حال، كان ذهني مشغولاً بمسائل أخرى فلم اطرح الأسئلة.إنها تدفع لي نيكلاً مقابل كل شعرة رمادية أجدها، وعزمت على المضي في مهمتي، كل شعرة تقرّبني خطوة من هدفي المنشود، الحصول على فيلم (كابتن أمريكا).

في الأيام والليالي اللاحقة لم تتطرق أمي إلى السيدة هوا، لكن المرأة كانت تضايقها دائماً.ثم عادت أمي لتتكلم عنها بينما كنا نجري حساباتنا ذات مساء، في هذا الوقت على وجه التحديد تركز أمي على تدقيق الإيصالات كل يوم.كنا نعمل على طاولة الطعام، نُحصي النقود، ونلف الأوراق النقدية في رزمٍ بحجم المفرقعات النارية، ونضع ختم «سايغون الجديدة» على ظهر الصكوك، مع ختم جمعية محاربة احتكار الأغذية، والكوبونات الصفراء الخاصة بصندوق المعونات للعائلات الفقيرة والقاصرين.كنت أجري حساباتي باستخدام حاسبة ميكانيكية تطقطق حجمها اكبر من تلفوننا ذي القرص الدوار، ولم أكن مضطراً للنظر إلى الأزرار.كنت اعرف موقع كل الأرقام عن ظهر قلب.وذلك هو الوقت الوحيد الذي كنت ابرع فيه بالرياضيات.

أثناء إجراء التخمينات عن أرباح النهار تطرقت أمي إلى شائعات عن وجود جنود فيتناميين جنوبيين سابقين لا يقومون بتنظيم جيشٍ من مقاتلي حرب العصابات في تايلاند فحسب، بل ينظمون جبهة سرية هنا في الولايات المتحدة، الغرض منها الإطاحة بالشيوعيين.كان الشيء الأكثر سوداوية من تلك الشائعات كيف استطاع مهاجمون مجهولون تفجير مكتب تحرير إحدى الصحف الفيتنامية في غاردن غروف (ومات)، بينما اغتيل محررٌ آخر بالرصاص، مع زوجته، في مدخل

منزلهما في فرجينيا (المجرمون لم يقبض عليهم).قالت أمي وهي ترطب أصابعها بقطعة من الإسفنج:

«إنهم يقولون علانية ما كان يقوله الكثير من الناس في السر آنذاك، السلام مع الشيوعيين ربما لا يكون سيئاً إلى هذا الحد».

كتبتُ بعض الأرقام في سجل الحسابات، ولم ارفع رأسي لأنظر.كنا أنا وأبي نلبس قميصاً وبنطلوناً قصيراً، لكن أمي كانت في ثياب النوم الخضراء دون حمالة الصدر.لم تكن تعي كيف أن ثدييها كانا يتمايلان مثل شقائق النعمان تحت المياه الضحلة، فكنت اشعر بالإحراج كلما رأيت الهالات المترجرجة الكئيبة المنظر بحلمتيها السميكتين كإصبع السبابة.صدر أمي لا يشبه صدور الفتيات اللائي في صفي، هكذا صوّرت لي أوهامي التي أصبحت مؤكدة في الأسبوع الماضي حين رأيت حلمتي صدر إيمي سوشيدا عبر فتحة بين زرين في قميصها، كانتا قرمزيتين ومغريتين، كأنهما الممحاة على قلم الرصاص الذي بيدي.قلت دون أن ارفع عيني عن سجل الحسابات:

«لكنك دائماً تقولين إن الشيوعيين سيئون».

قال أبي مقهقهاً:

«أوه! إذن أنت مهتم بالأمر.أحياناً لا يمكنني أن اعرف ما وراء نظاراتك السميكة».

قالت أمي وهي تمسك رزمة دولارات من فئة العشرين:

«من المؤكد أن الشيوعيين أشرار، لا شك في هذا.إنهم لا يؤمنون بالله ولا يؤمنون حتى بالمال».

لم تكمل أمي دراستها، إذ اجبرها والدها على البقاء في البيت لترعى الأطفال، ومع ذلك فهي تستطيع حساب النقود باليد وتجمع وتطرح الأرقام في رأسها بسرعة أكبر مني على الحاسبة.

قال أبي:

«لكنهم يؤمنون بأخذ النقود من الناس».

كثيراً ما كان أبي يتكلم عن مخزنه الذي يبيع فيه الأدوات الاحتياطية للسيارات، الذي حسب قول أخوته لم يعد فيه أي أدواتٍ بعد أن استولى عليه الشيوعيون.كنا نعيش في الطابق الثاني فوق المخزن، وأحياناً كنت أتساءل عما إذا كان ينام على سريري طفلٌ شيوعي، وإذا كان هذا صحيحاً فأي نوع من الكتب يقرأها هذا الطفل الأحمر؟ وأي نوعٍ من الأفلام يشاهدها؟ كان فيلم

(كابتن أمريكا) خارج الاحتمالات، لكن لا بد أنه شاهد لوك سكايووكر يخترق السيوف المتوهجة مع دارث فادر.لقد رأيت (حرب النجوم) عشرات المرات على شريط الفيديو، وإذا كان أي شخص محروماً بحيث لم يشاهده ولو مرة، عندئذ فالبلد الذي يعيش فيه حتماً يحتاج إلى ثورة.غير أن أمي لا توافق على هذا.كانت تلف شريطاً ورقياً على حزمة الدولارات من فئة العشرين وتقول:

«إنني اكره الشيوعيين بقدر ما اكره السيدة هوا، إنها تخوض حرباً لا يمكن أن تنتصر فيها.لن أبدد نقودي على قضية خاسرة».

أنهى أبي الحديث بأن وقف واخذ منها الأوراق النقدية، والعملات المعدنية، والشيكات، والأختام ووضعها داخل حقيبة مدرسية كان يحملها كل صباح إلى بنك أمريكا.يحتفظ والداي دائماً بجزءٍ من الأرباح في البنك، ويتبرعان بجزءٍ منها إلى الكنيسة، ويرسلان جزءاً آخر إلى الأقارب في فيتنام، الذين كانوا من حين إلى حين يرسلون الايميلات إلينا بحروف غامقة، رسائل تلخص أمي مضمونها بأنها تدل على عدم توفر الطعام أو النقود لديهم، لا مدارس ولا أمل في الحياة.تجارب أقاربهم وتجاربهما الشخصية علمت والداي الإيمان بأن لا بلد كان منيعاً ضد الكوارث والنازلات، لذلك كانا يحتفظان بجزءٍ من النقود سراً في المنزل، في حال وقوع أي نوع من الكوارث يمكن أن تعصف بالنظام المصرفي الأمريكي.كانت أمي تلف حزماً من دولارات فئة المائة في شريطٍ وتضعها تحت غطاء حوض التواليت، وتدفن اونصات الذهب في الرز، وتخفي أساورها وجواهرها، وقلاداتها من عيار أربعة وعشرين قيراطاً، ومحابسها الألماس في خزانة محمولة مضادة للحريق، تخفيها تحت بلاطات المنزل.ولإبعاد أنظار اللصوص، ابتكرت بعض الحيل، وضعت مزهرية زجاجية كبيرة فيها عملات معدنية على رف للكتب قرب الباب الأمامي، وزوجاً من الأساور الذهبية على منضدة الزينة في غرفتها.

وحدث ذات يوم أن تحققت مخاوفها من السرقة في تشرين الأول الماضي.ذات مساء في أحد أيام الثلاثاء، وكنا سننسى ذلك اليوم لولا ذلك، طرق أحدهم الباب.وكان أبي في المطبخ، بعد أن شغل الفرن بقليل، وهرعتُ لأفتح الباب قبل أمي ببضع خطوات، وكانت تلبس ثياب النوم.حين نظرتُ من ثقب الباب رأيت رجلاً ابيض يقول:

«لدي بريد لكم، سيدي».

لو كان يتكلم الفيتنامية أو الإسبانية لما فتحت له الباب، لكن لأنه تكلم الإنكليزية، فتحت.دفعنا الرجل بيده اليسرى بقوة ودخل المنزل، كان شاباً في العشرين من عمره تقريباً، شعره كث بلون القش اليابس، طويل القامة، وياقة سترته الجينز بالية بشكل واضح.لكنه ليس أطول من أمي، وكان مفتول العضلات بعض الشيء؛ حين تكلم بدا صوته مثل صرير نعال مطاطية تطأ أرضية ملساء.

قال بينما كانت جبهته تتفصد عرقاً، وبيده اليمنى مسدس:

«تراجعوا».

حتى بعد عقودٍ من الزمن يمكنني الآن تذكر المسدس، ماسورته سوداء عيار 22 يهزه أمامه مرتعشاً وهو يتقدم على العتبة، يركل كومة الأحذية التي نبقيها هناك، ناسياً أن يغلق الباب.استنتجت أمي لاحقاً أنه ليس لصاً محترفاً، لعله كان مدمناً في حاجة إلى النقود.صوّب المسدس إلى وجهي، ثم إلى وجهها، وقال:

«هل تفهمون الانكليزية؟ انبطحوا على الأرض!»

تراجعتُ خطوات مبتعداً قدر الإمكان عنه، بينما رفعت أمي يديها في الهواء وهي تقول:

«كونغ، كونغ، كونغ!»

ظهر أبي في منتصف الطريق بين المطبخ والباب الأمامي، وعندئذ وجه الرجلُ مسدسه إليه وقال:

«انبطح أرضاً، سيدي».

جثا أبي على ركبتيه، ورفع يديه.وقال بالإنكليزية:

«لا تطلق النار، لا تطلق النار، أرجوك».

كان صوته واهناً.لم أر أبي من قبل جاثياً على ركبتيه خارج الكنيسة، ولا رأيت أمي ترتعش من الخوف.غلبني الإشفاق عليهما؛ كنت اعرف أن هذه ليست أول مرة ولا آخر مرة يذلهما فيها شخصٌ ما هكذا.وكأنما كان الرجل واعياً إلى أفكاري، فأشار بالمسدس إلي دون أن ينطق كلمة، وجثمت فوراً على ركبتي.أمي وحدها لم تغطس إلى ركبتيها، كانت تسند ظهرها على الجدار ووجهها ملطخ بطبقة بيضاء من المكياج.رأيتُ صدرها يتموج من وراء ثوب النوم مثل سمك الأنقليس، وهي تردد كلمة (لا).بينما كان الرجل يصوب لي مسدسه قال:

«ما مشكلتها، أيها الفتى؟»

فلما صرخت أمي تجمّد كلّ شخصٍ في مكانه إلا هي.ثم هجمت على الرجل، وأزاحت المسدس بيدها وضربته بكتفها وهي تركض إلى الخارج.تعثر برف الكتب قرب الباب، وارتطم بالمزهرية الزجاجية المليئة بالعملات.وسقطت المزهرية على الأرض، وتبعثرت أجزاؤها،

وانتشرت البنسات، والنيكلات، والدايمات في كل مكان واختلطت بقطع الزجاج المتكسر.هنالك صرخ الرجل:

«يسوع المسيح!»

واستدار إلى الباب، عندئذ وثب أبي بثقله على ظهره، ودحرجه على العتبة حتى أخرجه وأغلق الباب بعنف وراءه.في الخارج انطلق من المسدس صوتٌ حاد، وارتطمت الرصاصة بالممشى الجانبي واستقرت على الجدار قرب صندوق البريد، حيث أخرجها رجال الشرطة بعد ساعات.

في صباح الأحد قبل الذهاب إلى الكنيسة أخذت أمي لطخة من دهن الشعر بريل كريم ومشطاً خشبياً اسود لتسوية شعري وتفريقه من المنتصف.كنت مذعوراً من شكلي، كأني إحدى شخصيات فيلم (الأوغاد الصغار)، ولكني لم أتذمر، ولم اقل شيئاً إلى أن جاء بها رجال الشرطة من منزل أحد الجيران.ثم صرخت أمي في وجه أبي قائلة:

«لقد أنقذتُ حياتكم، أيها الوغد!»

فابتسم أبي ببرود إلى رقيب الشرطة الذي اخذ إفاداتنا بينما كنا جالسين إلى طاولة الطعام.ثم قالت أمي وهي تجر أذني:

«ما الذي قلته لك عن عدم فتح الباب للغرباء؟ لماذا لا تسمع كلامي؟»

طلب مني رقيب الشرطة أن أترجم كلامها.فركت أذني وقلت:

«لا شيء، إنها فقط مرعوبة، أيها الضابط».

لم تلق الشرطة القبض على الرجل، وبعد فترة لم يبق أي سببٍ للتطرق إلى تلك الحادثة.ولكني بقيت أفكر في الرجل من حين إلى حين، وخاصة في صباح الأحد حين انهض من الركوع.في تلك الأوقات أتذكر كيف نهضتُ على قدمي لأرى أمي من نافذة غرفة الجلوس تهرول حافية القدمين إلى الممشى أمام الناس الذين في سياراتهم، ترفع يديها في الهواء وهي بثياب النوم على ضوء الغسق، تصيح بشيء لم أتمكن من سماعه.لقد أنقذتنا.أليس الخلاص هو الرسالة التي ينادي بها دائماً كاهننا المبجل الأب دينه؟ كما تقول أمي كان في منتصف العمر حين قاد قطيعاً من اللاجئين، ومنهم أبي وأمي، من شمال فيتنام إلى جنوبها سنة 1954، بعد أن طرد الشيوعيون أعداءهم الفرنسيين من البلاد واستولوا على النصف الشمالي من البلاد.من المذهل أن شعر رأس الأب دينه أكثف من شعر أبي، خصلات الشيب على رأسه تلمع تحت الضوء وتنعكس على النوافذ الملطخة.كان صوته يرتعش وهو يردد:

«باسم الأب، والابن، والروح القدس».

كان يغلبني النعاس وأنا جالس على المقعد الخشبي الطويل المزدحم بالناس وهو يلقي موعظته، بينما أتذكر حلمات ثدي أيمي سوشيدا وأتمنى لو ينتهي القداس.

وفي أثناء تدافع الناس للخروج لمست السيدة هوا ذراع أمي ذات يوم، بعد بضعة أسابيع من حادث الاقتحام.

قالت السيدة هوا:

«ألم تستمتعي بموعظة الأب؟»

كانت تفتح عينيها بفضول، كأنهما مرسومتان على وجهها.تصلب ظهر أمي، وبالكاد أدارت رأسها لتقول:

«بل أحببتها كثيراً».

«لم نسمع شيئاً عن تبرعاتك، يا عزيزتي.ربما في الأسبوع القادم؟ سوف آتي إليك».

كانت السيدة هوا تلبس زياً رسمياً مخملياً غامق اللون ومزركشاً بأزهار اللوتس الذهبية على الصدر.لا بد أنه كان لا يُتحمل في الصيف الحار، ومع ذلك لم تظهر علامات تعرّق على جسمها.

«في هذه الأثناء، إليك شيئاً للذكرى».

أخرجت البوم صور من جيبها، نفس جلد التمساح الزائف بالمشبك الفضي الذي رأيته في الأسبوع الماضي، وقدمته لي.كانت الكتابة التي عليه بالفيتنامية، لم أتمكن من قراءتها بوضوح، إلا أن الصور المشوشة أوضحت كل شيء، فيها رجال هزيلون يقفون على أهبة الاستعداد في رتلٍ عسكري تحت سعف النخيل، بالملابس الرثة المخططة مثل جلد النمر التي تخيلتها.

كانت نبرة صوت السيدة هوا غريبة وهي تشير لي:

«يا له من فتىً وسيم!»

لاحظت أنها تلبس نفس الحذاء الأبيض بالكعب العالي الذي رأيته سابقاً:

«قلت إن ابنتك تدرس في الكلية؟»

«على الساحل الشرقي».

«هارفارد؟ أو ييل؟»

تلك من الكليات التي تقع على الساحل الشرقي ويعرفها الفيتناميون.لم تكن أمي تستطيع نطق اسم كلية براين ماور، قالت:

«هناك كلية أخرى».

«وماذا تدرس؟ القانون؟ الطب؟»

غضت أمي الطرف خجلاً وقالت:

«الفلسفة».

كثيراً ما كانت أمي توبخ أختي لوان أثناء عطلة أعياد الميلاد، وتقول لها إنها تضيّع وقتها في هذا التعليم.أبي اتفق معها وقال:

«كلنا نحتاج إلى الطبيب أو المحامي، لكن من يحتاج للفيلسوف؟ النصائح تؤخذ مجاناً من الكاهن».

ابتسمت السيدة هوا مرة أخرى وقالت:

«ممتاز!»

بعد أن ذهبت أعطيت الصور إلى أمي، التي دستها في محفظتها.في الكراج المزدحم بالسيارات والناس، لكزت أبي وقالت:

«سوف اتبع السيدة هوا.أنت ولونغ اشرفا على المتجر في غيابي بضع ساعات».

ابتسم أبي باستهجان ووضع يده على رأسه:

«ماذا تريدين أن تفعلي؟»

«إنها تعرف مكان عملنا.واراهن على أنها تعرف أيضاً مكان بيتنا.أليس من الإنصاف أن نعرف عنها بعض الأشياء؟»

تنهد أبي وقال:

«حسناً.هيا نذهب، يا ولدي».

«أريد الذهاب مع ماماً».

تمتم أبي:

«أنت أيضاً؟»

كنت اشعر بالفضول لمعرفة شيءٍ عن السيدة هوا، بينما كانت محاولة تقديم المساعدة لأمي مجرد عذرٍ للهرب من سايغون الجديدة في ذلك الصباح.تبعتها أمي بالاولدزموبيل، واتجهت جنوباً.كانت السيدة هوا تركب سيارة داتسون صغيرة بلون صفار البيض، مرقطة ببقعٍ من الصدأ.رأيتُ صورة مريم العذراء تنعكس على الزجاجة الأمامية للسيارة لأنها لصقتها في الداخل، صورة كالحة مثل صورنا الباهتة الألوان من فيتنام.كانت صورتي المفضلة تلك التي يظهر فيها زوجان شابان يبتسمان أثناء جلوسهما على منحدرٍ معشب أمام كنيسة ريفية قرمزية، بابا بنظارته الشمسية يعانق ماما التي كانت تلبس ثوباً بلون الخوخ على بنطلون حرير كريمي، وشعرها غزير منفوش.

قالت أمي وهي تنعطف يساراً باتجاه طريق ستوري:

«نام زو».

ظننتها تريد ترجمة ذلك إلى الإنكليزية، فقلت:

«تريدين نيكلاً؟»

«خمسة سنتات هي أرباحي من علبة الصابون».

كانت تدوس الفرامل على نحو متكرر، وليس على دواسة البنزين.ورأسي يرتج على المسند كأنه كرة مربوطة بإحدى العجلات.

«عشرة سنتات مقابل رطل اللحم..خمسة وعشرون سنتاً لعشرة أرطال من الرز.تلك المرأة تريد مني خمسمائة دولار، أنت ترى كيف نحارب للحصول على كل بنس؟»

قلت، بينما كانت حبات العرق تقطر من إبطي:

«آه..!!!!».

حين استرجعتُ الأمر بعد عقود من الزمن تساءلتُ عما إذا كانت تُبالغ في كلامها أم أنا الذي أبالغ الآن، ذاكرتي تجري تخمينات عن شكل الحياة التي كنا نحياها.لكني أتذكر أنني أنزلت النافذة وأخرجت يدي لأتلمس النسيم، قالت أمي:

«ربما يمر باصٌ ويقطع ذراعك».

سحبت ذراعي فوراً وتنهدت.كنت أتخيل المرأة التي في الصورة القديمة، قبل ولادتنا أنا وأختي، عندما كانت الحرب شيئاً لا يراه احدٌ في أي مكان، حين كانت أمي وأبي يملكان المستقبل.حاولت تخيلها وهي شابة في التاسعة من عمرها، لكني عجزت.من غير تلك الصورة، أمي كفتاة صغيرة لم تعد موجودة في أي مكان، ربما غير موجودة حتى في ذهنها هي.ربما بقيت في ذهنها فقط صور أولئك الناس الذين كانوا يموتون من الجوع، فكرة أن أمي لم تعد تتذكر شكلها وهي فتاة صغيرة أثارت الحزن في نفسي.

استدارت السيدة هوا من طريق ستوري إلى شارع جانبي، دخلت حياً يتكون من منازل صغيرة ذات طابقٍ واحد نوافذها ضيقة جداً قياساً إلى جدرانها.كانت هناك شاحنات فورد متهالكة وسيارات صغيرة نوع كريسلر ذات حافات من الكروم متوقفة على كراجات ومروج.كانت الباحة الأمامية لمنزل السيدة هوا مبلطة، وسيارتها الداتسون الصفراء مركونة قرب تويوتا كورولا دعامتها متضررة وهوندا سيفيك خضراء غطاء محركها مفقود.بعد أن دخلت السيدة هوا المنزل تقدمت أمي خلسة لفحص المكان.كان المنزل مطلياً مؤخراً بدهان رخيص، وردي براق، والكراج تحول إلى واجهة متجر ذات أبواب زجاجية منزلقة وعلامة ضوئية من النيون الأحمر مكتوب عليها «نيها ماي».كانت الستائر على نوافذ محل الخياطة وغرفة الجلوس مسدلة، وتظهر بطانتها البيضاء.لا بد أن الرجل الذي اقتحم منزلنا تبعنا بنفس الطريقة، لكن أمي لم تنتبه إلى هذا.

كان صوتها يوحي بالاقتناع وهي تتكلم.قالت وهي ترفع قدمها عن المكابح:

«الآن نعرف أين تسكن».

حين جاءت السيدة هوا إلى متجر «سايغون الجديدة» يوم الأربعاء في الأسبوع اللاحق كنتُ في الطابق الأعلى الذي عمله أبي من ألواح الخشب فوق المطبخ عند مؤخرة المتجر.كنا نخزن هناك من الرز طويل الحبة ما يكفي لإطعام قرية كاملة، حيث تتكوم أكياس الخيش إلى السقف بأحجامها المختلفة.رائحة عفونة من رز الياسمين تنتشر في الهواء وأنا جالس منفرج الساقين على كومة الأكياس، اقرأ عن إعادة الإعمار.كنت قد وصلت إلى الجزء عن الانتهازيين العابثين الذين جاءوا من الشمال للمساعدة في الإعمار، أو في عمليات سلب ونهب الجنوب، حين رأيت السيدة هوا عند المدخل، وكانت تلبس نفس زيها الأبيض الذي جاءت فيه أثناء زيارتها الأخيرة.

من الطريقة التي أمسكت بها أمي عداد النقود كأنه زورق يتمايل مع الأمواج بينما السيدة هوا تتحدث إليها، عرفت أن المتاعب ستحصل.نزلت السلم، ومشيت على الممرات المكدسة بعلب الحليب المكثف والمعكرونة المغلفة بالسيلوفان، والروبيان والسمك المجفف، وفاكهة استوائية حمراء والمانجو الأخضر، وأنا اخفض رأسي لتفادي الأشرطة الصفراء اللزجة من ورق صيد الذباب التي تتدلى من السقف، حتى وصلت إلى مقدمة المخزن فسمعت أمي تقول:

«لن أعطيك أي نقود».

ظهر تشققٌ في طبقة ماكياجها، خط تجاعيد جعل خدها ملطخاً من الأنف إلى عظم الفك.

«..إنني اعمل واتعب لكسب نقودي.ما الذي تفعلينه أنت؟ لست إلا سارقة تمارسين الابتزاز، تحاولين إقناع الناس أنهم يستطيعون خوض هذه الحرب».

وقفتُ خلف صف من الزبائن، كان أحدهم يطلع على نسخة من نفس الألبوم الذي أعطته لي السيدة هوا في الكنيسة.بدا وجه السيدة هوا شاحباً كثوبها، وتلطخت أسنانها بأحمر الشفاه، واستشاطت غضباً.كانت تنظر إلى الزبائن وتصيح:

«سمعتموها، أليس كذلك؟ إنها لا تساند قضيتنا.إن لم تكن شيوعية فهي لا تختلف عن الشيوعيين في السوء.إذا كنتم تتسوقون من هنا فأنتم تساعدون الشيوعيين».

وضعت السيدة هوا كومة من الألبومات على النضد قرب عداد النقود قبل أن ترحل.بينما بقيت أمي تنظر إلى أبي من مكانها، لم تقل كلمة بينما كانت سيارة الداتسون تشتغل في الخارج.تململ الزبائن قربي بانزعاج.وفي غضون ساعة كانوا يتصلون بتلفوناتهم، يخبرون أصدقاءهم، الذين بدورهم يخبرون أصدقاء آخرين، ثم يخبر هؤلاء المزيد من الناس، حتى عرف الناس جميعاً.استدارت أمي إلى الزبائن وكانت ملامح وجهها حادة مثل الحروف التي ترسلها إلى أقاربها، ولم تظهر عليها أي علامة على الأسف، قالت:

«من دوره الآن؟»

طوال ما تبقى من اليوم لم تتطرق أمي إلى سيرة السيدة هوا حتى ظننت أنها سوف تتجاهلها تماماً، على أمل أنها لن ترجع.ولكن في اللحظة التي ركبنا فيها السيارة بدأت أمي تتكلم عنها بالسوء، وأدركت أنها كانت تكظم غيظها طوال تلك الفترة، وتتصنع الهدوء مراعاة للزبائن.ثم قررت أمي أن تذهب إلى السيدة هوا في بيتها وتطالبها بالاعتذار، فهذه التهمة يمكن أن تكلف أمي سمعتها ومستقبل تجارتها، إذا أخذنا بنظر الاعتبار انتشار حمى مناهضة الشيوعية في مجتمعنا الفيتنامي.كانت أمي تعتبر كلام السيدة هوا عاراً لحق بها وسوف يشكل ذلك صفعة لها إذا رفضت

الاعتذار.كانت تشير إلى الخذلان والوهم النفسي للقضية التي تناضل في سبيلها السيدة هوا، وتقصر دورها على الاستجداء وذرف الدموع بما يتنافى مع المنطق.وبينما كانت أمي تراجع خططها ونواياها لم يتفوه أبي بشيء، وكنت أنا صامتاً أيضاً.كنا نتحاشى معارضتها قدر الإمكان، وحين وصلنا إلى المنزل دخل أبي فوراً دون أن يقول شيئاً ليتناول الغداء، امتثالاً لأوامرها.وواصلت أمي طريقها في السيارة إلى منزل السيدة هوا، وأخذتني معها، لأنها كما قالت:

«تلك اللعينة لن تفعل لك شيئاً».

كانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف حين أوقفت أمي السيارة في مدخل منزل السيدة هوا، خلف الداتسون.ردت السيدة هوا على الباب وكانت بثوبٍ برتقالي فضفاض تحته شورت زهري أو أرجواني.كانت تربط شعرها إلى الخلف بمشبك، ووجهها يبدو مثيراً للإشفاق بتلك الرموش، واحمر الشفاه، وطبقة المكياج التي جعلته مشققاً مجعداً ـ وجه امرأة أكبر من ذلك بسنوات.صدرها الضئيل يختلف عن صدر أيمي سوشيدا، وخارطة العروق المصابة بالدوالي على فخذيها المترهلين والساقين تقودان إلى أصابع قدمين متغضنة، والأظافر مصفرة مرقطة بلطخات الطلاء المتكسر.

قالت السيدة هوا:

«ما الذي تفعلينه هنا؟»

قالت أمي:

«جئت للتحدث معك، ألن تسمحي لنا بالدخول؟»

ترددت السيدة هوا قليلاً ثم تراجعت بحنق.خلعنا أحذيتنا ومضينا في طريقنا مروراً بأنواع الأحذية والصنادل المكدسة قرب الباب.رأينا رفوفاً ذات عجلات تنحشر في المكان وحمّالات ملابس للفتيات تكاد تخفي النافذة، بينما يمتد زوجٌ من الأسرة المتنقلة على جدران غرفة الجلوس.وفي المنتصف منضدة تطوى عليها دفاتر وكتب منهجية.

قالت السيدة هوا:

«نحن نتناول العشاء».

جاءتنا أصواتٌ أخرى من غرفة الطعام.وأبخرة الدهن كانت تتصاعد في الهواء، ورائحة جوارب رطبة تأتي من الرز الذي يطهى.

«هل تناولتم الطعام؟»

إذا كانت أمي قد استغربت من أدب السيدة هوا، فهي لم تظهر ذلك.قالت:

«نعم.أريد التكلم معك وحدنا».

هزت السيدة هوا كتفيها باستهجان وقادتنا إلى خارج غرفة الطعام.عند طاولة تتكدس عليها الأواني والأطباق جلس ثمانية أو تسعة أشخاص وكانوا يديرون رؤوسهم إلى ناحيتنا، مع فتيات صغيرات، وأربعة من الأجداد، ورجل وامرأة في سن أمي تقريباً، تحت عيونهم ظلالٌ عميقة كأنما تلقوا الضربات المبرحة مرة بعد مرة.كانت غرفة نوم السيدة هوا مزدحمة كغيرها، وهي أول غرفة تواجهنا بعد اجتياز الصالة.رأينا فيها طاولة ذات إطارات فولاذية، وماكينة خياطة تهيمن على وسط الغرفة، بينما يتدلى ثوبٌ مخملي وسترة بيضاء ولباس تحتي على حمّالة قرب السرير النقال الذي يسد الطريق إلى النافذة.جلست السيدة هوا على الكرسي الوحيد، خلف ماكينة الخياطة، وقالت:

«ماذا تريدين؟»

نظرت أمي إلى الخزانة التي فتحت أبوابها لتظهر داخلها رفوفٌ من خشب الصنوبر مصنوعة يدوياً تتكدس عليها أقمشة الحرير والقطن.خلف السيدة هوا رأينا كومة من ملابس التي يلبسونها كل يوم ــ ملابس نسائية وبلوزات، سترات رجالية وقمصان ــ بينما على الحمّالة الأخرى بدلات بلون زيتوني اخضر وثياب كأنها للحفلات التنكرية مرقطة بنقاط بنية، وسوداء، وخضراء في أشكال متباينة، نفس النوع الذي كان يرتديه جنود المارينز الذين حرروا غرينادا منذ زمنٍ غير بعيد.قالت أمي:

«أنت تخيطين بدلات للجنود؟»

«قياسات الأمريكان كبيرة جداً ولا تناسب الفيتناميين.فضلاً عن أن الرجال يريدون أسماءهم تخيط عليها، مع ورتبهم ووحداتهم».

مدت السيدة هوا يدها تحت الطاولة وأخرجت صندوقاً من الورق المقوى، وحين انحنينا لننظر رأينا بعض الأكياس البلاستيكية مليئة بأشرطة وعلامات ملونة ترمز إلى الوحدات العسكرية الفيتنامية.

«..بعض هذه البدلات تذهب إلى جيش حرب العصابات في تايلاند، والأخرى تبقى لرجالنا هنا».

تساءلتُ إن كانت تقصد الجبهة السرية التي سمعنا عنها في الشائعات، أو الرجال الذين في سن أبي أو أصغر منه الذين رأيتهم في بعض المناسبات، وهم من المحاربين المخضرمين في جيش فيتنام الجنوبية المنكسر الذين استقبلوا السنة الجديدة ببدلاتهم العسكرية وكانوا ينظرون بفضولٍ إلى بطاقات الدعوة في ارض المعارض التي أقيم عليها الاحتفال.

قالت أمي:

«زوجك جندي؟»

«كان من الكوماندوز.المخابرات المركزية الأمريكية أنزلته بالمظلة في الشمال سنة 1963.ولم اسمع أي خبرٍ عنه منذ ذلك اليوم».

كانت السيدة هوا تتكلم دون أن يطرأ أي تغير على ملامح وجهها وهي تحضن الصندوق على صدرها.

«الأمريكان أرسلوا الفرقة التي ينتسب إليها ابني الأصغر إلى لاوس سنة 1972.ولم يرجع.أما ابني الأكبر، فكان في الجيش أيضاً.الشيوعيون قتلوه، ودفنته في بيان هوا سنة 1969.ابنتي كتبت لتخبرني بأن الشيوعيين مزقوا عيون الصورة التي على قبره».

بقيت أمي صامتة، تلمس بيدها سترة مخططة بجلد النمر على الرف.وأخيراً، قالت:

«أنا آسفة لسماع ذلك عن زوجك وأبنائك».

كان صوت السيدة هوا مرتعشاً وهي تقول:

«آسفة على ماذا؟ من قال إن زوجي ميت؟ لا أحد رآه يموت.لا أحد رأى ابني الأصغر يموت أيضاً.إنهما أحياء، لا تقولي عكس ذلك».

تأملت السجادة البيجي، فيها أشكال ضفدع وشجرة، مقيدة بالخيوط هناك مع روائح الثوم والسمسم، ومزيل العرق.كسرت أمي الصمت بأن فتحت محفظتها وراحت تبحث داخلها.كنت اعرف أنها ستفتح مغلفاً فيه أرباح اليوم.ثم أخرجت ورقتين من فئة مائة دولار ووضعتهما على طاولة الخياطة أمام السيدة هوا، وهي تمرر أصابعها على وجه بنجامين فرانكلين على كل ورقة، كما تمرر راحتها على شعري قبل الدخول للكنيسة.

قالت أمي:

«هذا كل شيء، كل ما يمكنني تقديمه».

في ذهني حسبت علب الصابون، وأرطال الرز، وساعات الوقوف على القدمين التي جعلت تلك الدولارات ممكنة، وكنت مستغرباً من تنازل أمي عنها.حين نظرت السيدة هوا إلى النقود تصورت أنها ربما تطالب بالخمسمائة دولار السابقة، لكنها أخذت النقود وهي صامتة، ولفتها، وأسقطتها داخل الصندوق الذي في حضنها.فكرت في السنوات الماضية التي كانت فيها أمي تقدم رشوة إلى زوجة أحد الجنرالات بمقدار أونصة من الذهب، لتشتري بها حرية أبي من التجنيد.ذكرت أمي تلك الحادثة ذات ليلة لأبي وهما يفحصان أونصة أخرى كانا قد اشترياها، ونظر أبي لي وقال:

«دعونا لا نفكر في هذا».

كانا يعتبران تلك الحادثة مع السيدة هوا من الأشياء التي يفضل عدم الخوض فيها.

قالت أمي:

«سوف نذهب الآن».

كانت السيدة هوا تنظر لي وهي تتكلم:

«أترى كيف أن الشيوعيين لم يكتفوا بقتل ابني مرة؟ بل قتلوه مرتين حين دنسوا قبره.إنهم لا يحترمون أحداً، حتى القتلى».

كان صوتها موجوعاً، وحين انحنت فجأة ظننت أنها سوف تمد يديها عبر ماكينة الخياطة وتمسك يدي.قررت أن لا أنسحب بعيداً عنها، وكان اثنان من أصابعها ملفوفين كأنها جرحت نفسها بالإبرة.أحسست أنني أريد أن أقول شيئاً، وقلت:

«أنا آسف».

كنت اقصد أنني آسف على كل ما جرى، ليس عليها فقط وإنما على أمي أيضاً، على كل تلك الأشياء المتراكمة التي لم تكن لي سلطة عليها.اعتذاري حتماً لا يشكل أي اختلاف، غير أن السيدة هوا هزّت رأسها بصرامة، كأنها تتفهم قصدي.وقالت في نبرة خانعة:

«اعرف انك آسف».

كانت هذه آخر كلماتها.لم تقل لنا وداعاً ونحن نغادر، في الواقع لم تنظر حتى إلينا، أما أمي فأغلقت باب غرفة النوم، بينما كانت السيدة هوا تنظر إلى محتويات الصندوق، ورأسها المنحني يكشف عن أخاديد من جذور الشيب على فروة رأسها، حيث يظهر لونُ شعرها الطبيعي وسط تيارٍ

من الصبغ الأسود.كان ذلك سراً تافهاً، ولكنه يبقى في ذاكرتي مثيراً للشجن والتساؤلات، بعض الناس تطاردهم أشباح الموتى، وآخرون تطاردهم أشباح الأحياء.

حين خرجت أمي إلى الطريق العام فاجأتني للمرة الثانية.دلفت إلى ساحة وقوف بعيداً عن المخرج، على بعد صفوفٍ من المباني عن منزلنا، وقالت:

«كنت فتى مؤدباً.دعنا نكافئك».

لم اعرف ماذا أقول.لم يسبق لأبي أو أمي أن منحاني علاوة.وحين طالبتُ بعلاوة في المرحلة الرابعة قطب أبي جبينه وقال:

«دعني أفكر في الأمر».

في الليلة التالية قدم لي قائمة شاملة تتضمن مصاريف ولادتي، تغذيتي، تعليمي، ملابسي، حتى وصل المبلغ الإجمالي إلى 24,376 دولاراً.

قال أبي:

«هذا لا يشمل طبعاً المعاناة العاطفية، والفوائد المتراكمة، أو أي نفقات مستقبلية أخرى، والآن متى يمكنك تسديد كل ذلك؟»

وقفت أمي تحت الأضواء البراقة قرب أحد الأسواق، وأخرجت من محفظتها ورقة من فئة خمسة دولارات وأعطتها لي وهي تقول بالانكليزية:

«اذهب لكي تشتري أي شيء».

كلما تكلمت أمي معي بالانكليزية يكون صوتها عالي النبرة، كأنما يخرج من داخلها شيءٌ يخنق حنجرتها.تركتها على الرصيف ودخلت، بينما كانت ورقة الخمسة دولارات الملساء في يدي مثل قطعة المشمع، تذكرتُ حركة شفتي أمي وهي تستعمل أصابع إحدى يديها لتحسب النقود التي في يدها الأخرى.كان المتجر فارغاً إلا من رجلين من السيخ يقفان عند عداد النقود، نظرا إلي ببرود ثم عادا إلى حديثهما.كانت رائحة المطهرات تملأ الهواء.تجاهلتُ الألعاب التي في الرواق وصفوف المجلات الهزلية المصورة، رغم أن أغلفة (سوبرمان) و(الرجل الحديدي) جذبت عيني والأزيز الالكتروني للعبة باكمان كان يناديني.وراء منتجات التنظيف وعلب الصابون كان هناك ممرٌ تتكدس عليه أكياس رقائق البطاطا، والكعك، والحلوى، ثم رأيت الورق المذهب اللامع لأنواع الشوكولاته، وتجمدتُ في مكاني.بينما كان العمال يثرثرون بلغة لم افهمها، ترددت، تمنيت لو استطعت أخذ كل شيءٍ، لكني عجزت عن الاختيار.

زرع الكبد

الكثيرُ من الأشياء غير المتوقعة التي حدثت مؤخراً لآرثر اريلانو لم تكن مثيرة للاستغراب، وعلى رأسها ذلك التغيّر الذي طرأ على الكراج في منزله المتواضع بعد أن تحوّل إلى مخزنٍ تتكدس فيه صناديق الكرتون من بضاعة مزيفة،.تلك الصناديق التي تحمل ماركات تجارية شهيرة مثل شانيل، فيرساك، غفينشي للمواد الكمالية التي تباع للمترفين ولا سبيل لأن يقتنيها أشخاصٌ مثل آرثر وزوجته نورما.وجود تلك الأشياء جعل آرثر متوجساً غير مرتاح البال، لذلك، بعد أسبوع من إحضار لويس فو لهذه الثروة غير المتوقعة إلى منزل اريلانو وجد آرثر نفسه يتسلل إلى مخزنه المستأجر في ساعاتٍ متأخرة من الليل، فيجتاز الممر الضيق الذي يركن فيه سيارته شيفي نوفا، ويفتح باب الكراج فيتلصص على تلك البضاعة التي عليه الآن أن يعيش معها بانسجام.

هنالك تحت جنح الظلام كان آرثر يحاول مقاومة الدافع لاختلاس محفظة برادا أو زوج من أزرار القمصان ماركة إيف سان لوران، مع أن لويس كان يُنهي كل مكالمة هاتفية معه بأن يقول له، «اخدم نفسك بنفسك».لكن آرثر لم يستطيع أن يفعل ذلك، كان مثقلاً بإحساسٍ بالخطيئة والخوف من القانون، وهي مخاوف لطالما سخر منها لويس أثناء تناولهما الغداء أسبوعياً في مطعم برودارد، حيث كان آرثر، تحت إشراف لويس، يشذب تذوقاً جديداً للطعام الفيتنامي.كما قال لويس، هذا المطعم أفضلُ مثالٍ على هذا النوع من الطعام في سايغون الصغيرة، اورنج كاونتي.وبينما كان آرثر يجرّب أول طبقٍ أثناء زيارتهما الأخيرة للمطعم، سلطة نباتات مع لحم ضأنٍ غض مقطع إلى شرائح صغيرة كالأوراق ومنقوع في الليمون وعشب الزنجبيل، وهو من الأطباق التي كان يعشقها، تساءل عن مذاق نفس الطبق في فيتنام، كيف يمكن أن يكون؟ كان لويس في العادة يصرّ على أن الأطباق التي يقدمها مطعم برودارد ألذ نكهة من مثيلاتها في الوطن، لكن لويس، حين كان النادل يرفع الطبق اختار موضوعاً آخر: ما الذي يجعلك ترى أن هذا العمل الذي تقوم به يؤدي إلى منفعة اكبر بالقياس إلى الضرر المحتمل؟

قال لويس:

«المسألة لا تختلف عن الجمال والقبح في نظر الناس، المرأة الجميلة لا بد أن تحتاج إلى المرأة القبيحة لتظهر مفاتنها.لن يظهر الجمال على الشكل الأمثل من غير وجود القبح.هل أنا على حق؟ قل لي إنني على حق».

نظر آرثر إلى الطبق الآخر الذي كان النادلُ يضعه على مائدتهما، ستة أفراخ حمامٍ مشوية مصفوفة بشكل جذاب على طبقة من الخس.وقال:

«أتصور أنك على حق، إنها تبدو لذيذة».

كان تقبله للمظاهر الرأسمالية متواضعاً في أحسن الأحوال.ثم أضاف وهو ينتقي طيراً لنفسه:

«المغزى الأخلاقي أنه كلما كثرت النسخ المزيفة يزداد عدد الذين يرغبون في شراء النسخ الحقيقية ولا يتمكنون من ذلك.وكلما اشترى الناس أشياء مزيفة أكثر ارتفعت قيمة الأشياء الحقيقية.والكل رابح».

قال آرثر وهو يرفع فرخ الحمام من الساق النحيفة:

«أنت تنظر إلى الأمر على هذا النحو؟ لكن ألا تتصور أنك تقول لنفسك ما تريد أن تسمع من الآخرين؟»

هز لويس رأسه في استهجان، وعيناه تتسعان خلف نظارته الأثرية نوع دولك أند غابانا وقال:

«بطبيعة الحال أنا أقول لنفسي ما أريد أن اسمع! نحن جميعاً نفعل هذا.الشيء المهم، آرثر، هل تريد أن تسمع ما أقوله لنفسي؟»

كان آرثر في الواقع يريد أن يستوعب بعض التساؤلات البلاغية التي طرحها لويس خلال الأشهر القليلة الماضية.على سبيل المثال، كان لويس يقول، إذا تعلق الأمر بنظاراته، التي صنعت في نفس المصنع الذي ينتج النوع الحقيقي من إطار د أند غ، بعد ساعات قليلة، مع وجود عمالٍ مجهولين يؤدي عملهم في الظلام إلى منتجٍ يباع بقيمة اقل بمائتي دولار.إذا تعلق الأمر بالناس ذوي الدخل المحدود، ألا يحق لهم الحصول على نوعٍ ايطالي ممتاز من البضاعة دون الحاجة إلى تكبد نفقات باهظة في شراء ماركة أصلية مثل دولك أند غابانا؟ أو، كما قال لويس، عليك التفكير في ماركة مونتبلانك.لم يسبق لآرثر أن فكر في مونتبلانك ولا يعرف حتى أنها شركة أقلام حتى اخبره لويس بذلك.هل تعاني من أزمات أكثر مما يعاني عمالها في وينغانغ، الصين، تساءل لويس، إذا لم يستطيعوا إنتاج بضاعة مطابقة للأصلية الغالية جداً؟ مع أن آرثر لم تكن لديه أدنى فكرة عن

وينغانغ، لكنه تخيل صورة مشوشة لذلك الصيني في تلك البلاد البعيدة، بشعره الأسود، وعينيه الضيقتين، وفطنته، ومثابرته التي لا نظير لها، الذي يشبه لويس إلى حد ما.

كان آرثر يراقب لويس وهو يأكل فرخ الحمام بشراهة بينما الطير مدسوس بين السبابة والإبهام، والخنصر يتحرك إلى الأعلى والأسفل.قال:

«أنا الآن اسمع ما تخبرني به، لولا ذلك ما كانت بضاعتك في كراج منزلنا».

قال لويس:

«لحسن الحظ انك بدأت تستوعب، لا أن تسمع فحسب.علينا أن نكسب النقود، آرثر.نقود كثيرة».

ومع ذلك فإن كلام لويس عن الأرباح دفع آرثر ونورما إلى رفض نسبة العشرة بالمائة من الأرباح التي عرضها عليهما.وقد جاء قرار تأجير كراج منزلهما إلى لويس كنوعٍ من التعاطف أثاره المنظر البائس لشقته، وهي من غرفة نومٍ واحدة كأنها الكهف تستخدم أيضاً كمخزن.الصفقة كانت طريقة لرد الدين إلى والد لويس، الذي سبق أن أنقذ حياة آرثر في العام الماضي، رغم أن ذلك حدث دون قصد.بينما كان لويس يقضم فرخ الحمام بأسنانه انتقل آرثر في ذكرياته إلى مين فو، وهو رجلٌ لم يلتق به سابقاً.

قال آرثر:

«لتبقى تلك الصناديق في الكراج.كما قلت لك، إنها هديتنا إليك».

قبل أن يرد لويس سمع الهاتف الخلوي لآرثر يرن.كانت رسالة نصية من نورما: « احضر الملابس من المكوى».انحنى لويس ليقرأ الرسالة وضرب آرثر على كتفه وقال:

«عليك أن تأخذ بعض الأزهار إلى نورما أيضاً».

أراد آرثر أن يسال عن نوع الأزهار التي عليه أن يأخذها إلى زوجته مع الملابس، لكن وصول طبق فطائر الموز، الحلوى المفضلة لدى آرثر، جعله يحوّل انتباهه إلى اتجاه آخر.رغم أنه كان يساوره إحساسٌ مزعج طوال تلك الأمسية أن ثمة شيئاً عليه القيام به، ولكنه لم يتذكر ذلك الشيء.كل ما علق في ذهنه صورة النادل وهو يشعل كمية بحجم الكشتبان من شراب الرم ويسكب الكحول الملتهب على الموز، ذلك المنظر لم يتوقف عن إثارة مخيلته.

***

الشيء غير المتوقع الآخر الذي حصل لآرثر اريلانو، ذلك الخبر المفزع الذي جعله يلتقي مع لويس فو، هو إصابته بفشل الكبد، وهو من الأعضاء التي لم يولها آرثر اهتماماً أكثر من اهتمامه بأنفه، أو بإصبع قدمه، أو حتى بيده اليمنى، وكل هذه من الأعضاء التي يمكن للمرء العيش بدونها، وإن يكن بعدم ارتياح.لهذا، حين بدأ كبده بالضمور قبل الأوان منذ نحو ثمانية عشر شهراً كان آرثر غير مكترثٍ بشيء سوى أن يحصل بأي طريقة على مبلغ التأمين الصحي، بفضل كياسة أخيه الأصغر ورئيسه في العمل، مارتن.كان مبلغ التأمين يغطي زياراته إلى الدكتور ب.ك.فيسواناثان، الذي قال له موضحاً إنه ضحية مرض معقد لم يفهمه آرثر إلا في أجزاء متقطعة: التهاب الكبد ذاتي المناعة.كان الدكتور يتململ على كرسيه وهو يقول:

«التهاب الكبد ذاتي المناعة معناه أن جسمك لم يعد يدرك أن كبدك جزءٌ منه.إذا حصل هذا فإن جسمك يرفض تقبل الكبد».

«هل يمكن لجسمي أن يفعل ذلك؟»

توقف الطبيب عن الاهتزاز على الكرسي وانحنى للأمام، بينما كان يضع مرفقيه على لوح الكتابة الجلدي على مكتبه:

«جسمك كيانٌ عضوي معقد، سيد اريلانو.يمكنه أن يفعل ما يشاء».

ترك آرثر عيادة الدكتور فيسواناثان وهو مقتنع بموته الوشيك.الناس في هذه الأيام يحتاجون إلى أعضاء أكثر مما يتوفر في المستشفى، ولم تتح لآرثر فرصة طوال حياته أن فاز بشيء.كان مصاباً بمرض الخسارة المزمن الذي يجعله يفشل في كل الرهانات، من صولاته وجولاته في كازينوهات سانتا انيتا وباي غو إلى الكازينو التجاري وطاولات «ادفع لتلعب»، مهنته كمقامر جعلت الخسائر تتراكم عليه في السقيفة القرمزية على ساحل هنتنغتون، على مسافة أميالٍ من الساحل، تلك التي استثمر فيها مع نورما جهود سبع عشرة سنة من دفوعات الرهان.وبعد أن أصبحت السقيفة من ممتلكات البنك في السنة التاسعة والعشرين من زواجهما تركت نورما آرثر لتعيش مع إحدى بناتها وانتقل هو إلى منزل أخيه مارتن في ايرفاين.في مستشفى الجامعة هناك، بعد مدة قصيرة من ذلك، علم بنتيجة تشخيص حالته، وكان ذلك يفسر المشكلات التي يواجهها ـ الألم في مفاصله، والإعياء، والوخزات والطفح الجلدي، الغثيان والتقيؤ، فقدان الشهية، كل الأشياء التي كان آرثر يعزوها إلى خسارته في المقامرة خلال السنوات الماضية ـ كانت في الحقيقة مجرد أعراض لتدهور اشد خطورة.غير أن العلامات التي لفتت انتباه نورما حين جاءت تزوره في منزل مارتن بعد التشخيص كانت اليرقان، الاصفرار الذي يزحف على جلده مما دفعها لأن تقول:

«لماذا لا تهتم بصحتك، آرت؟»

في تلك الساعة التي قضياها معاً في غرفة الجلوس التي تنيرها الشمس في منزل لويس، أذل نفسه مرتين، أولاً بأن امسك يد نورما، دون أن تتوقع منه ذلك، وأجهش بالبكاء، وثانياً عندما اعترف بأنه صرف بوليصة التأمين.لم تسأله كيف صرف النقود، ولم يجرؤ أن يخبرها عن بيشانغا، الكازينو الهندي في تيميكولا حيث أهدر سبعة أيامٍ كاملة من حياته، فضلاً عن كل نقوده.وبقيت نورما صامتة مدة طويلة، ولكنها حين جلست قربه أخيراً عرف أنها أقنعت نفسها بأن تنظر إليه كرجلٍ مريض.ولما وضعت إحدى يديها على ركبته واليد الأخرى على خده أدرك أن التهاب الكبد ذاتي المناعة لا بد أن يشكل طريقة الرب البارعة في إبقائهما معاً.تلك هي الفائدة الوحيدة التي يمكن رؤيتها من وراء شيء لولا ذلك يعتبر كارثة، مع الخوف الذي يجعله يبقى مُسهّداً في الليالي الطويلة يحدق في الظلام ويتساءل عما يمكن أن يحصل، إذا كان سيحصل شيء.تلك هي أول مرة يخاف فيها على حياته.

كانت فرصته الوحيدة في إجراء عملية الزرع.تخيل الأمر كما اعتاد أن يحلم في ربح جائزة اليانصيب، تخيل كيف يكون رجلاً آخر؛ شخصاً أكثر استعداداً للتعاطف، يعتمد عليه الآخرون، ويعمل بجدٍ ومثابرة؛ يجعل نورما تفتخر به.فكر في الكبد الذي سوف ينقذ حياته، ولم يتوقف عن التفكير في المتبرع.في الأشهر التي كان ينتظر فيها أي أخبار عن توفر الكبد كان يتناقش مع نورما فيما إذا كان ينبغي لهما السؤال عن هوية المتبرع إذا كان آرثر محظوظاً بما يكفي ليتلقي عضواً.أحياناً كان الدكتور فيسواناثان يقول إن المتبرعين أو العائلات تتنازل عن حقها في المجهولية.ولكن في وقتٍ لاحق، قرر آرثر ونورما ترك الطب الحديث يحافظ على جو الغموض والإعجاز.لذلك لم يحصل بمحض إرادتهما ولكن من حادثة عارضة أن اكتشفا أصل الكبد، وكان ذلك بعد سنة من إجراء العملية، حين رجع آرثر إلى العمل كمحاسب لمارتن في شركة اريلانو أند وأولاده، والتي تقدم خدمات استشارية معمارية في تجميل المدن أنشأها والد آرثر، ارتورو، المعروف من الجميع باسم أرت الكبير.لقد جاء الكشف عن طريق مغلف أرسل من المستشفى، ترك في صندوق بريد الكوخ المبني على الطراز الاسباني الذي كان آرثر ونورما يستأجرانه من مارتن مقابل خصمٍ لا بأس به.وجدا في المغلف تقريراً مفصلاً عن حياة المتبرع مطبوعاً بجانب اسم آرثر، تمت قرصنته من كومبيوتر المستشفى، كما عرفا ذلك لاحقاً مع عشرات الناس الآخرين حين وصلت الفضيحة إلى الصفحات الأولى للصحف.لدى رؤية الاسم أحس رعشة تسري في كبده.في بداية الأمر تصوّر أن ذلك وهم من الأوهام، لكنه حين أعطى التقرير إلى نورما رأت الاسم بنفسها.

سألت:

«هل يمكن أن يكون الرجل كورياً؟ مثل عائلة بارك؟ إذا لم يكن كوريا ربما هو ياباني».

هنا كانت تشير إلى المكوى الذي يتعاملون معه، السيد والسيدة بارك، وهما مهاجران من انشيون جاءا عن طريق بوينس آيرس وكانا يتكلمان لغة اسبانية أفضل من اريلانو وزوجته.

من جانبه لم تكن لدى آرثر فكرة عن الموضوع.كان يصعب عليه تمييز الأسماء الآسيوية عن غيرها.وكان مصاباً بنوع شائع جداً من عمى الألوان بحيث يرى كل الآسيويين متشابهين.لدى أول لقاء مع عائلة بارك لم يتصور أنهما كوريين، أو حتى يابانيين.بدل ذلك عاد إلى تصوراته الخاطئة حين تواجهه مشكلة التمييز بين الآسيويين.قال:

«هناك الكثير من الصينيين هنا، أراهن على أن الرجل صيني».

في حقيقة الأمر كان مين فو رجلاً من فيتنام، وهو أرمل توفي في حادث شغب، وهي قصة اكتشفتها نورما من التصنت على الهواء.وفي نهاية الأمر، بعد أن واجه شخصاً حقيقياً واسماً حقيقياً استنتج آرثر في تردد أنه لا يستطيع الاستمرار في التظاهر بأنه لا يعرف مصدر العضو الذي سوف يُزرع في جسمه.طالما كان المتبرع شخصية مجهولة لم يكن آرثر مديناً له بشيء على كل حال.لكن الآن بعد أن عرف المتبرع اعتقد أن من الصواب العثور على شخص، أي شخص، له صلة قرابة مع مين فو ليقدم له الشكر على إنقاذ حياته.كانت محاولاته للعثور على ذلك الشخص صعبة ومعقدة أكثر مما توقع، لأنه لم يجد اسم مين فو في دليل الهاتف، مما دفعه لأن يتصل بكل شخصٍ يحمل اسم فو مدرج في اورنج كاونتي، وكان هناك المئات منهم.وبعد مراجعة أسماء الأشخاص الذين لا يتكلمون الانكليزية، وردوا على مكالماته، وتلفظوا بعبارات نابية بلغة أجنبية وجد آرثر أخيراً لويس فو، الذي استمع إليه دون أن يقاطعه وقال باختصار:

«أنا من تبحث عنه، سيد اريلانو».

نطق لويس اسمه الأول «لوي»، كما يلفظ «باللهجة الفرنسية»، ولغرض تحديد موعد للقائهما أعطى عنواناً قريباً لا يستغرق أكثر من عشر دقائق، في فاونتن فالي، وهي بلدة جميلة تقع في الضواحي ذات بيوت جاهزة، وشقق خاصة، ومجمعات سكنية متفرقة كان آرثر معجباً بشعارها المتواضع الذي يجسّد كل الأشياء التي كان يتمناها لنفسه، ولنورما، ولذريتهما.تلك الكلمات المطبوعة على لوحٍ حجري عند تخوم حدود المدينة، ترحّب بآرثر، وبنورما، وبكل الذين يدخلون فاونتن فالي: «مكانٌ مثالي للعيش».

حين كان في غرفة الجلوس في منزله ذلك المساء بعد ظهيرة طويلة من العمل على ترتيب الحسابات في شركة اريلانو وأولاده تذكر آرثر الشيء الذي غاب عن ذهنه، عندما فتحت نورما الباب الأمامي.أغلق جهاز التلفزيون بعد أن كان يشاهد أخبار عالم البوكر، وقال معتذراً إنه أهمل الذهاب إلى المكوى على شارع بارك افنيو، ولاحظ مدى تذمرها من همهمتها دون أن تلتقي عيناها بعينيه، والاهتزاز في أعماق حنجرتها.قالت حين سألها عما تطبخ للعشاء:

«هممممم».

ثم نطقت نفس الكلمة مرة أخرى حين سألها ماذا تطبخ للعشاء في اليوم التالي بينما كانت تغسل الصحون.ثم ضرب على ظهرها وهما في السرير، بينما كانت الأضواء مطفأة، حتى قالت أخيراً:

«دعني أوضح لك شيئاً، آرثر.لا تلمسني، لا تقترب مني».

كانت الوسادة تحت وجهها تحجب صوتها.

«لكن...»

«هل كنت ستموت لو فكرت بي لحظة واحدة في حياتك؟ هل تموت إذا فعلت شيئاً لأجلي، فقط لترى كيف يبدو الأمر؟»

قال وقد وجد عذراً يفيده من السنة الماضية:

«إنه الكبد، ما زلت غير متعود عليه».

«لا، أنت تعودت عليه.شفيت تماماً وأنت في وضعٍ جيد كإنسان جديد.تلك هي المشكلة.آرت، أنت في الخمسين من عمرك وتتصرف كأنك في الخامسة عشرة.الآن نم واتركني وحدي».

كانت تدير ظهرها إليه، وأنفاسها منهكة، كما كانت تحسّ حين تصعد مرحلتين من السلالم.

وضع آرثر حنكه على كتفها وقال هامساً:

«ألم تقولي إن على أحدنا أن يتكلم مع الآخر؟»

ابتعدت نورما عنه، قالت:

«آرثر اريلانو، إما أن تنام في غرفة الجلوس، أو أنام أنا هناك».

كان يبدو أن جسم آرثر وهو في منتصف العمر لم يعد يصلح للنوم على الأرائك، وبعد ليلة تعيسة انتابته لحظة ضعف في صباح اليوم التالي، اتصل بأخيه ليطلب منه ملجأ.ردت على الهاتف اليفيرا كاتالينا فرانكو، مدبرة المنزل الغواتيمالية التي رحبت به بالطريقة التي تعلمتها من زوجة مارتن، كلارا:

«مسكن اريلانو.هل يمكنني مساعدتك؟»

لكن حين رحب به أخوه اكتشف آرثر أنه لم يعد قادراً على أن يذل نفسه أكثر، لأنه رأى نظرة مارتن المراوغة، وعينيه، وخديه، وشفتيه تتغضنان حول انفه، والابتسامة الكاذبة تنتزع بشدة من أوتار العضلات على وجه مارتن.

قال آرثر وهو يتفادى نظرة نورما التي دخلت المطبخ:

«اتصلت لأقول لك فقط صباح الخير.صباح الخير».

تنهد مارتن وقال:

«أنت لم تعد في المدرسة الثانوية، آرتي، أنت كبرت على المكالمات السخيفة هذه».

حتى بعد أن أغلق مارتن السماعة تظاهر آرثر بأنه مستمر في المكالمة، لأن نورما كانت تتصرف كأنما لا أحد في مطبخها وهي تتذوق شريحتين من خبز الحنطة، وتصب لنفسها كوباً من اليوبان، وتقرأ عناوين مجلة (ريجستر)، وتقهقه على نكات مجلة (كيداي).بقي آرثر يتمشى هنا وهناك، فأحس أنه كحصان سباقٍ ميت، تعرفه نورما وحدها وهي تحتك به في طريقها إلى خارج الباب، قالت وهي تخاطبه من وراء كتفها:

«لا تنس دواءك».

وجد زجاجة الدواء البرتقالية شبه الشفافة وكأس الماء الصافي في مكانهما الاعتيادي، هناك على طاولة غرفة النوم.في البداية بلع حبات من مدرر البول واخذ رشفات من الماء ثم تنهد.كم كان يكره الوصفات الطبية! رغم أن الحبة الثانية لانخفاض ضغط الدم كانت ضرورية، وكذلك الحبة الثانية لتقوية المناعة التي تضمن لجسمه المنهك الاستمرار في العيش مع كبد رجل شاب.كان الدكتور فيسواناثان يقول إن هناك دائماً خطورة في أن يرفض جسمه العضو المزروع، مما يؤدي إلى إحساس بالانزعاج يثقل كاهل آرثر، ويذكره ذلك الإحساس يومياً بوجود جسمٍ غريب في داخله وينتج عن مضاعفات هذه الحبوب، وكذلك الحبة الرابعة والأخيرة التي كان يحس متعة منها، المضادة للكآبة.رغم أنها مفيدة لتهدئة عنفوان أحاسيسه العاطفية فهي ليست ذات مفعول قوي مثل حبات مخفف الآلام التي كان يتناولها خلال الأشهر الأولى بعد عملية الزرع مباشرة، والتي لها مفعول السحر بحيث جعلت جلده يبدو ناعماً مثل القطن تحت أصابعه.الدواء المضاد للكآبة خلق في نفسه إحساساً أن كل شيء على ما يرام، لماذا إذن، تساءل آرثر، يحتاج إلى حبة مثل تلك؟

كان سلوك مارتن في ذلك الصباح في المكتب يؤكد لآرثر أنه كان محقاً في عدم طلب المساعدة.كان مكتب مارتن في ركنٍ مخصص للضيوف في المنزل، وهو يشبه الكوخ المبني من الألواح يفصله عن المنزل حوض سباحة ينظف بوسيلة آلية ومعقمات تجعل الماء مزرقاً

كالياقوت.كان آرثر بالكاد يتحول إلى الكومبيوتر ويبدأ التأمل في لعبته الصباحية (بلاك جاك) حتى دخل عليه مارتن وجلس على حافة مكتبه المزدحم بالملفات والإيصالات وقوائم الثمن غير المسجلة، وبدأ يسرد عليه تفاصيل عطلتهم العائلية على بحيرة اروهيد في نهاية الأسبوع.قال مارتن:

«تزلج على الماء، فطور في وقتٍ متأخر مع الشمبانيا، شرائح لحم الضأن المشوية، المنظر الخلاب لغروب الشمس المخملية».

هذا آخرُ ما سمعه آرثر، كانت ديكورات المكتب تؤثر حتى على قدراته السمعية، بكل ما فيه من مستلزمات الكتابة وكابسات ورق نحاسية إلى مصابيح الجدار واللوحات الفنية التي تذكره بما يملكه أخوه من ثروة حُرم منها، شركة اريلانو وأولاده، التي وهبها أرت الكبير إلى مارتن حين أصبحت العادات السيئة لآرثر واضحة للأب.

قال مارتن:

«كيف كانت عطلتك الأسبوعية؟ كيف تسير الأمور مع نورما؟»

كان آرثر ينظر إلى شاشة الكومبيوتر، حيث تعرض عليه فرصة لمضاعفة الرهان.قال:

«إننا على ما يرام.الأمور بيننا جيدة».

«فكرت فقط في السؤال».

حين كان مارتن يدير ساعته البلاتين على رسغه رأى آرثر خطوطاً قذرة تحت أظافر أخيه.شك آرثر في أن مارتن تركها عن قصد كدليل على الجهود التي يبذلها مع طاقم العمال في تجميل المدن وتصليح الأسيجة مرة كل أسبوع، وهي علامة أخرى على مظاهر القداسة الزائفة التي قادت مارتن لاستئمان، أو ربما لمعاقبة، آرثر فيما يتعلق بالحسابات.ثم أضاف مارتن:

«تعرف أن نورما تتحدث مع خبيرة تجميل الأظافر، وهذه تتحدث مع أيلين، وهذه تتحدث مع أمها، وهذه تتحدث معي.وأنا لا اهتم بكل هذا الآن، آرتي.لكني اسمع ما يقال».

وزع آرثر ورق اللعبة وسحب ملكاً، ملك الحظ الذي لم يحالفه قط وهو يلعب بلاك جاك في الكازينوهات.

«اقدّر اهتمامك.ولكن ربما قالت خبيرة تجميل الأظافر شيئاً آخر لأيلين، وهذه قالت شيئاً آخر لكلارا، وهذه قالت شيئاً آخر لك، حتى سمعت شيئاً مختلفاً جداً عن حقيقة الأمور».

تنهد مارتن، وسعل، ونظر إلى ساعته، ثم قال وهو ينهض من المكتب الذي صدر عنه صريرٌ كأنما ارتاح للتخلص منه:

«إننا أخوة، آرتي».

وقف مارتن عند الباب، كأنما أراد أن يقول شيئاً آخر ولكنه لم يفعل، ثم غادر، وكان غياب ظله الثقيل مستساغاً، ترك مجالاً واسعاً لآرثر ليسرح بخياله.كما قال الدكتور فيسواناثان فالمتبرع لا بد أن يكون رجلاً بنفس حجم ووزن آرثر تقريباً، ومن هنا، قبل أن يعلم شيئاً عن مين فو ويلتقي مع لويس، خمن آرثر أن المتبرع ربما لا يختلف عنه بطريقة أو بأخرى: في منتصف العمر، أشيب الشعر، ومن أصول مكسيكية لا يكاد يتذكرها احدٌ حتى الأجداد بوجوههم الكالحة كأنهم تماثيل جزيرة ايستر، بعد أن أغوتهم البوفيهات الصينية التي تبيع كل ما يستطيع الجائع أن يأكله مقابل سبعة دولارات، من الكعك المرشوش بالسكر والمحشو بتوت العليق، ذلك المنظر الذي يروق كثيراً لمارتن.هل كان مارتن سيعطي جزءاً احتياطياً من جسمه لآرثر؟ كلية، مثلاً، أو نخاع العظام؟ وهل كان آرثر سيفعل نفس الشيء لمارتن؟ بقيت هذه التساؤلات تزعج آرثر طوال اليوم، وفي وقتٍ لاحق من المساء، في شقة لويس، أعطى أكثر الأجوبة صراحة التي يمكن أن يقولها لصديقه.

قال آرثر:

«نعم، اعتقد أنني كنت سأفعل ذلك».

كانت بقايا العظام والمقبلات الذابلة من عشائهما الأخير تتكوم على طاولة القهوة في حاويات ستايروفوم، تلك الأطباق التي كان يأتي بها في عربةٍ إلى باب منزل لويس كل مساء الابن المراهق للأرملة التي كانت تطبخ الطعام لعشرات العزاب.كانت تستخدم الطباخ ذي أربع عيون في مطبخها الخاص لتبتكر أطباقاً، كما قال لويس، بمثابة تحف ثانوية، تعبق بالروائح الزكية مثل طبق سمك السلّور المقرمش في قدر الفخار، ودجاج طري منقوع بالليمون والزيت والفلفل، وأومليت بالفطر والبصل الأخضر، وطبق الرز الصيني الفاخر الذي يخلط بالثوم ويؤكل صباحاً، كل شيء ينقع في صلصة لاذعة المذاق تعتبر شريان حياة المطبخ الفيتنامي، وخلاصة زيت السمك المصفى بلون الغسق مع الفلفل الأحمر.بعد أن اتخم لويس تنهد في استحسان وقال:

«أحس كأنما أصبت بالرصاص.لا يعرف المرءُ حقاً ماذا يمكن أن يفعل حتى يُصاب».

قال آرثر:

«حقا، سأفعل ذلك، رغم أنني لا أطيقه لكنه يبقى أخي».

«من السهل قول ذلك حين لا تكون مضطراً لفعل أي شيء».

في الواقع آرثر لم يكن ليفعل ذلك.بعد أن قال بشجاعة للدكتور فيسواناثان إنه يريد أيضاً التبرع بأعضائه شرح له الدكتور كيف أن الأدوية التي تناولها لمنع جسمه من رفض الكبد لم تعد تسمح له بالتبرع بأي شيء.أحس آرثر بينه وبين نفسه بالارتياح، وأن قراره للتبرع قبل أن يُطلب منه، مع أنه غير قادر، أعطاه موطئ قدم ضمن الاعتبارات الأخلاقية، أو كما قال لويس أصبح يملك بعض الموجودات التي لا تقدّر بثمن.كان لويس يعرف قيمة الموجودات، وخاصة المادية منها، لأنه يملك منزلين وشقة في بيريس، وهي ضاحية معتدلة الأسعار تقع على الامتدادات الشرقية النائية لجزيرة امباير التي يحب أن يسميها باريس الأخرى.كان لويس يؤدي بعض الواجبات المنزلية، يشاهد برنامجاً على التلفزيون عن ارتفاع أثمان العقارات السكنية مع أفكار مبتكرة حول إمكانية إجراء ترميمات بسيطة غير مكلفة تتضمن بناء متجر للأشياء التي تباع بأسعار رخيصة، وتجميع القمامة للاستفادة منها، والبحث عن التحف الأثرية النادرة.

قال لويس:

«أحب منظر قطع البلاط الجاهز تلك التي يستخدمونها في أرضيات المطابخ.لا يمكن للمرء أن يعرف أنها ليست من المرمر الحقيقي».

قال آرثر:

«لماذا لا تعيش في أحد تلك المنازل التي اشتريتها؟ ينبغي أن تعيش حياتك.هذا شيءٌ تعلمته خلال هذه السنة».

كانت شقة لويس كئيبة أكثر من السابق.بعد اختفاء المخزن أصبح الأثاث الذي يفتقر للذوق مكشوفاً تماماً، والحال نفسها تنطبق على الجدران، التي كانت ذات يوم بيضاء وهي الآن رمادية كالتراب.

كان لويس يتمدد على الأريكة التي يمكن أن تتحول في وقتٍ لاحق إلى سرير مضاعف الحجم ينام عليه آرثر.

«لكني أعيش حياتي.إنني أترقب مجيء المستأجرين الذين يأتون لي بالنقود، وأفكر في طرقٍ للربح من استثمار تلك المنازل في غضون بضع سنوات.وانوي احتكار هذه السوق فهي أفضل من البيع بالتجزئة، إنها تمتد إلى رقعة اكبر من سوق البضاعة التي لا يستطيع اغلب الناس شراءها».

هذا، كما أدرك آرثر، يشكل محور الاختلاف بينهما.آرثر يفكر في ما فعله، وما يفعله، وما ينبغي أن يفعله، بينما لويس يفكر فقط في ما سوف يفعل.على سبيل المثال، بدل توطيد نفسه على

قول «مزيف»، «غير أصلي»، لويس يفضل قول «أفضل من الأصلي».كان دائماً يؤكد على أن نوعية بضاعته أفضل، بمعنى أنها أرخص كثيراً.لماذا يشتري المرءُ بضاعة أصلية، كما يحب أن يقول، إذا كان يستطيع أن يشتري بنفس السعر عشر مواد، أو عشرين، أو حتى عشرات، أفضل من الأصلية؟

قال آرثر:

«ليس كل شيء يباع بالنقود.ماذا عن الزوجة؟ والعائلة؟»

أشار لويس بيديه إلى الحلقة المعدنية على إصبع آرثر وقال:

«تقصد الحب والزواج؟ هل جعلك هذا سعيداً، آرثر؟»

«ليس ذنب الحب إذا فشلت العلاقة بيني وبين نورما».

وكأنما كان لويس يعتبر الحب نوعاً من الجبن الفرنسي الرقيق الذي فيه بعض العفونة، قال:

«جرّبت الحب بنفسي، شيء جيد، ولكن مشكلة الحب تكمن في الطرف الآخر ضمن هذه العملية.المرأة لها عقلٌ خاص بها.لا يمكن الاتفاق معها على مسألة واحدة».

كان آرثر يراقب لويس، أراد أن يتأكد مما إذا كان ما يقوله تهكماً، غير أن علامات التجهم التي ظهرت على وجه لويس أشارت إلى أنه كان جاداً.قال:

«أخبرني عنها، أم هي أكثر من واحدة؟»

أشار لويس بيديه يطلب منه التغاضي عن الموضوع:

«ذلك من الماضي، آرثر.وأنا لا أفكر في الماضي أبداً.كل صباح استيقظ فأكون رجلاً جديداً».

حاول آرثر مراراً في السابق أن يجعل لويس يتكلم عن نفسه، ولم ينجح، لذلك تغاضى عن الموضوع.قال:

«أشكرك لأنك تركتني أنام، أنا ممتنٌ لك».

رد لويس:

«أنت صديقي».

تصور آرثر أنه يقصد بذلك أنه صديقه الوحيد، لأن لويس لم يذكر له من قبل أي شيء عن أصدقاء له.قال آرثر وهو يضفي أكبر قدرٍ ممكن من التعاطف على كلماته:

«وأنت أيضاً صديقي».

بقي أحدهما ينظر للآخر لحظة ويبتسمان.وقبل أن يتعقد الموقف الوجداني بينهما استأذن آرثر في أن يذهب إلى الحمام.

كان أول تلميحٍ على سوء الطالع يواجهه آرثر في صباح اليوم التالي أن تعطل كومبيوتر المكتب وضاعت معه جهود الأسبوع الفائت كلها من أعمال الحسابات.رغم محاولاته المضنية للتصليح بقي الكومبيوتر هامداً حتى نهاية اليوم، واستبد به الإحباط فاتجه إلى سيارته شيفي نوفا وشغلها، لكنه لم يحصل إلا على صرير ميكانيكي، مما جعله يطلب «دفشة» لتشغيلها من روبن الذي يعمل في شركة اريلانو وأولاده التي يقع مكتبها في منزل مارتن، وكان هذا قد اعترف لآرثر مرة أنه مهاجر غير شرعي وكان آرثر يعرف أن الأمر ينطبق على كثير من بستانيي مارتن.وعندما توقف آرثر قرب المنزل ليأخذ ملابس تحتية نظيفة وأدوات حلاقة قبل الذهاب إلى منزل لويس، تساءل عما يمكن أن يحصل أكثر من هذا.كانت نورما في المطبخ، تشوي شيئاً بالفرن لوجبة العشاء بعد أن شاهدت الطبخة على التلفزيون وحين رأته يدخل أشارت إشارة عابرة إلى لوحٍ خشبي قرب الهاتف كتبت عليه «اتصل بك شخصٌ ما».

استشعر آرثر بعض الراحة لأنه وجد ما يشغله غير التسكع.كان اسم المتصل مينه فو، وبينما كان آرثر يتصل بالرقم تساءل إن كان هذا الشخص واحداً من الكثيرين الذين اتصل بهم منذ شهور.بينما لم يتعرف آرثر في السابق على اللهجات التي سمعها من هؤلاء الأشخاص لأنها لم تكن لهجات فيتنامية، فلم يستطع إلا أن يميز تلك اللهجة بوضوح حين ردّ مينه فو على الهاتف، رغم أن انكليزيته كانت مفهومة وهو يقول:

«اعتقد أنك تعرف أبي».

«اعرفه؟»

«اسمه مين فو».

قال آرثر:

«أوه، لا بد أنك اخو لويس! لم يخبرني أن لديه أخاً يدعي مينه».

أثناء فترة صمتٍ قصيرة على الهاتف كان آرثر يسمع امرأة تهدهد طفلاً يبكي.ثم قال مينه فو:

«من هو لويس؟»

استغرق ما تبقى من المحادثة ست دقائق.وبعد أن أغلق آرثر الهاتف بيدٍ مرتعشة ابلغ نورما أن مين فو لديه ثمانية أبناء، وليس أربعة، لا أحد منهم يُدعى لويس.لا احد منهم ــ مينه ــ تلقى الاعتذار من المستشفى بعد أن كشفت دون قصد عن هوية أبيهم إلى المرضى الذين تلقوا بعض أعضائه.سبعة من الغرباء كانوا قد حصلوا بعد وفاته ليس على كبده فقط، بل على جلده وأنسجته، قرنية عينيه، الرباط الحرقفي الفخذي، والبنكرياس، والرئتين، والقلب، وهؤلاء الغرباء السبعة يعرفون الآن اسم أبيهم.خلال الأشهر القليلة الماضية منذ أن وصل اعتذار المستشفى، بقي أفراد عائلة فو يتجادلون فيما بينهم، هل يتصلون بهؤلاء الغرباء السبعة، والآن اتفقوا على ذلك.في بداية الأمر لم يعرف آرثر هل عليه أن يصدّق لويس أم مينه فو، الذي بدا حانقاً حين قال له آرثر:

«كيف اعرف أنك صادق في كلامك؟»

ثم بدأ آرثر يقتنع، بلا تردد، حين أعطاه مينه فو رقم هاتفه، والعنوان، ودعاه للمجيء إلى منزل أبيه في ستانتون، حيث كما قال سوف يجد صوراً فوتوغرافية، وتقارير المستشفى، والأشعة، وقارورة الرماد.حاول آرثر أن يبقى هادئاً حتى يأتي الوقت المناسب ليخبر نورما بالقصة، واكتشف فجأة أنه يحتاج إلى شراب.عثر على آخر زجاجة من نبيذ وايلد توركي كان قد اشتراها وأخفاها تحت حوض المطبخ، وجد نصفها فارغاً ولم يلمسها احدٌ منذ تشخيص حالته.

بعد أن تناول رشفة ترقرقت الدموع في عينيه وقال:

«أوه، يا الهي.لا يمكنني تصديق هذا».

قالت نورما، وقد نسيت العشاء في الفرن:

«علينا الذهاب إلى هناك، آرت، على لويس أن يخبرنا بالحقيقة».

«لا، هذا شيء بيني وبينه.نحن الاثنان فقط».

كان مذاق الويسكي يحرق ما تبقى من الهلع في نفسه، فازدرد المزيد من النبيذ من عنق الزجاجة.

«أنت معتوه.ماذا يحصل لو تصرّف بعنف؟ لا نعرف ماذا سيفعل ـ كان يكذب علينا طوال الوقت.لا نعرف ماذا كان يريد منا.لا نعرف حتى من هو».

كانت نورما تنطق كل كلمةٍ بتمعنٍ وتوكيد شديدين كما تعوّدت أن تفعل طوال سنة من الانتظار.

لكن آرثر لم يسمعها، الجرعة الثالثة من الويسكي أرسلت شحنة كهربائية امتدت من حنجرته إلى أصابع قدميه، جعلته ينهض فجأة ويتجه إلى الباب ثم إلى سيارته شيفي نوفا رغم توسلات نورما.كان على وشك أن يشغل المحرك حين انتفض الكبد في صدره، كأنه جنين في الثلث الأول من عمره، ذلك الجنين الذي كان متوقعاً أن يولد قريباً لكنه لن يولد أبداً، يطلب الانتباه إليه، الاعتراف بوجوده، مبادلته الحنان كما كان يفعل خلال أسابيع بعد العملية، يجعله يلتقط أنفاسه بصعوبة بكل تلك الطلبات بحيث اضطر للانحناء على النافذة.كان القمرُ مشرقاً فوق رأسه يلوح كأنه دمعة في ستارة الغيوم، كرة كاملة الاستدارة من الضوء الأبيض تذكره بأول شيء رآه لدى استيقاظه بعد العملية، جرم سماوي وضاء يطوف في الظلام ظن في تصوراته الغامضة أنه منارة في السماء ترشده إلى أنه أصبح في جوار ربه.كان الجرم السماوي يتضخم بثبات، الحافات ضبابية حتى تحولت كلها إلى صفحةٍ بيضاء تعمي البصر والبصيرة، ستارة خلفها شيءٌ معدني يخشخش أو يدمدم بكلمات مبهمة.شخص يناديه باسمه، شخص، وليس كما تصور أول مرة، الله، لأن آرثر كان حياً، وهي حقيقة عرفها سواءً من وخزة الألم الحادة التي يحسها في جنبه، تجعله مسمراً على السرير، أو من الصوت الذي عرفه، صوت نورما، يعيده إلى المكان الذي ينتمي إليه.

***

حين سمع لويس بخبر المحادثة مع مينه فو من آرثر الذي يكاد يختنق وهو يلتقط أنفاسه، لم يتطرق إلى أي ادعاءات سابقة بخصوص انتحاله شخصية ابن الرجل الذي أنقذ حياة آرثر.عوضاً عن ذلك تنهد وهز كتفيه استهجاناً.كان يجثو على ركبتيه، يرتب شحنة بضاعة جديدة، والصناديق مكدسة بين جدران غرفة الجلوس عليها علامات دونا كاران، كالفن كلاين، فيرا وانغ.وبينما كان آرثر يغطس في الأريكة نهض لويس ورفع يديه في إيماءة استسلام.قال:

«كنت واثقاً من أن الأمر سوف يُكتشف لاحقاً، أليس كذلك؟ أنا آسف، آرثر، لم اقصد أن الحق بك الأذى».

أغمض آرثر عينيه وراح يدلك صدره.إضافة إلى لولب الألم الذي كان يمزق أحشائه، كان الصداع يحفر أخدوداً في جمجمته.اتضح الآن لماذا كان لويس دائماً يتهرب من زيارة قبر مين فو.كان لويس يعزو هذا إلى العلاقة السيئة مع أبيه، ولكن السبب الحقيقي عدم وجود أي علاقة بين الرجلين.

قال آرثر:

«إذا لم تكن لويس فو، فمن أنت؟»

«من قال إنني لست لويس فو؟»

«أنت أثبتت لي قبل قليل حين اتصلت بك.لويس فويتون هو اسمك المزيف.وفو اسم فيتنامي شائعٌ جداً».

«اسمي لويس فو، وأنا رجلٌ صيني».

تنهد آرثر:

«أوه! كنت اعرف! كنت اعرف أنك صيني!»

جلس لويس بجانب آرثر على الأريكة وقال له:

«لكني ولدت في فيتنام، ولم يسبق أن زرت الصين.لا أعرف من الصينية إلا القليل.ماذا يجعلني ذلك؟ صينياً أم فيتنامياً؟ كلاهما؟ لا هذا ولا ذاك؟»

تجهمت ملامح آرثر واخذ يحك انفه:

«لا أدري، ولا أبالي.لكن لماذا؟ لماذا فعلت ذلك؟»

ارتد لويس إلى الوراء ووضع إحدى ساقيه على أخرى، فظهرت جوارب من إحدى الماركات الأصلية المميزة لكنها مقلدة.ثم قال:

«ضع نفسك مكاني، آرثر.تلقيتُ مكالمة يسألني صاحبها إن كانت لي علاقة برجلٍ آخر يشاركني في اسمي الأخير.اغلب الناس في مكاني سوف يقولون لا.لكني لا أتلقى ذلك النوع من المكالمات كل يوم، وإذا تلقيتها علي أن أرى إلى أين تأخذني.لذلك مارست هذه اللعبة.وهكذا مضيتُ في المسألة».

الأزيز في رأس آرثر والألم في أحشائه كان يعذبه:

«أريدك أن تخرج أشياءك من كراجي.هذه الليلة».

هز لويس رأسه في حزن:

«أخشى أنني لا استطيع ذلك، آرثر».

«ماذا تعني؟»

«لا تسيء فهمي، آرثر.هذه أعمال تجارية، وليست مسائل شخصية، حسناً؟ غير ذلك فأنا احبك كثيراً.لقد أمضينا معاً بعض الأوقات الجميلةً، أليس كذلك؟ نحن أصدقاء؟»

قال آرثر، وكان صوته يرتعش لأنه تصور في يومٍ من الأيام أنه يعتبر لويس صديقاً له:

«نحن لسنا أصدقاء».

بدا لويس متأثراً حقاً من الرد، وشفته السفلى ترتعش:

«لسنا أصدقاء؟ بسبب شيءٍ بسيط كهذا؟ هيا، آرثر!»

«اخرج أشياءك تلك من كراجي الليلة».

توقفت شفة لويس عن الارتعاش، وانسحبت أثار الكآبة ببطء على وجهه إلى زوايا شفتيه وجفنيه.

«ولكن أين أضعها؟ لا، أخشى أن هذه الأشياء سوف تبقى في مكانها.أرجوك لا تفكر في استدعاء الشرطة.ربما يكون من الصعب عليك تفسير سبب وجود كل تلك البضاعة المزيفة في الكراج، تلك التي تحمل علامات ميو ميو وبري بري».

وهنا صرخ آرثر:

«لكني سوف ارمي بضاعتك خارج الكراج بنفسي الليلة، سوف أخرجها وآخذها إلى الصحراء وارميها هناك».

«لو كنت مكانك، آرثر، سوف أفكر كثيراً قبل أن المس تلك الأشياء».

«ماذا ستفعل؟»

نظر لويس إلى أطراف أصابعه وقال:

«أنت لديك شيء ضدي، وأنا لدي شيء ضد أخيك، اتفقنا؟»

«ما هو؟»

صاح لويس بصوت مفزع:

«هيا، آرثر! أفق من سُباتك! إلى من يدفع أخوك الرشاوى لتسهيل أعماله في تجميل المروج والساحات وتشذيب هذا السياج أو ذاك؟»

صرخة لويس أذهلت آرثر، فلم يسمع من قبل لويس يرفع صوته أو رآه ينحني كما يفعل الآن ويقرّب أصابعه من وجهه فلا تبعد أكثر من بوصة.

إحساس آرثر بمدى سذاجته جعله يغطس أكثر في الأريكة وهو يتذكر روبن، غوستافو، فيسنت، البرتو، وكل الموظفين الآخرين التابعين إلى شركة اريلانو وأولاده والذين لا يطرح أخوه أي تساؤلات بشأنهم، ما داموا يملكون بطاقات الضمان الاجتماعي وإجازات سياقة، سواءً كانت حقيقة أو مزورة بشكل بارع بحيث يظنها المرء حقيقية.كان من السهولة جداً الحصول على هويات مزيفة، مثلما اظهر لويس لآرثر ذات يوم، وهو يرمي على طاولة القهوة خمس إجازات سياقة، كل واحدة منها تحمل صورة لويس ولكن باسم مختلف.غطى آرثر وجهه بيديه وهو يتخيل غارة تشنها الشرطة على شركة اريلانو وأولاده، تؤدي إلى اعتقالات ومصادرة أموال، وإلحاق العار بمارتن وتشويه سمعة آرت الكبير.

قال لويس وهو يرتد إلى الوراء على الأريكة.وكان صوته متعباً، ووجهه شاحب اللون:

«اعتقد أن عليك الذهاب إلى منزلك، آرثر، اذهب الآن؟»

كانت غرفة النوم مضاءة حين وصل آرثر بالسيارة، رغم أن بقية أجزاء المنزل كانت مظلمة.استشعر خوفاً مما يمكن أن تقوله نورما، لذلك أرجأ المسألة قليلاً وفتح باب الكراج، وكان يأمل أن تتحقق المعجزة التي صلّى من اجلها أثناء الطريق.لكن المعجزة لم تتحقق.ما زالت الصناديق في مكانها، ينعكس عليها ضوء القمر، تتكدس على الجدران، تكاد تغلق المدخل.لقد احتل لويس كلّ قدمٍ مربع من المخزن ووضع فيه بضاعته من أقلام الحبر ومخازنها البلاستيكية، والنظارات الشمسية التي تحمي من الأشعة فوق البنفسجية ، والساعات التي تشير إلى الوقت بدقة ولا تعمل لأكثر من يوم واحد، وسترات وبطانات من الفرو، وبناطيل ذات حواشٍ تفك بسهولة، وأقراص أفلام مقرصنة كانت تعرض على المقاهي والمسارح خلسة، ونسخ برمجيات مايكروسوفت كاملة مع فايروساتها، وأدوية غير أصلية المنشأ ربما تفيد أو لا تفيد، تضر أو لا تضر ـ الكراج كله يعج بأشياء يرغب في شرائها زبائنٌ لا يعرفهم ولكنه يشعر نحوهم برابطة من نوعٍ ما، إذا تخيل الأماكن التي ربما يعيشون فيها.

على امتداد البصر كان يرى على الصناديق علامات كأنها ترحب به، عليها أسماء شتى: غوشي، جيمي شو، هايدي سليمين، ألقاب جميلة كتبت بخطٍ ازرق.لطالما كان آرثر ونورما يتمنيان

اقتناء تلك الأشياء لدى رؤيتها في محلات بلومنغديل وأثناء التجول في الشوارع والنظر إلى نوافذ البوتيكات في ميدان روديو درايف، وحين يتجاهلهما العمال يعلمان أن وجودهما غير مرغوب فيه.

«آرثر اريلانو!»

التفت آرثر.رأى نورما تقف عند الباب الخلفي في ثوب حمامٍ قديم، حافية القدمين.قال لها:

«يمكنني تفسير الأمر».

كان يمدّ إليها ذراعيه راجياً الصفح.ولكنها وضعت ذراعيها على صدرها ورفعت حاجبها، رأى نفسه مثلما كانت تراه، لا يقدم غير يدين فارغتين.

أتمنى لو تحبني

أول مرة ينادي فيها البروفيسور زوجته السيدة خان باسمٍ غير اسمها كانت في إحدى حفلات الزفاف، وهي من المناسبات التي يزدحم فيها الناس وغالباً ما كانا يحضران معاً، بدافع الالتزام بالتقاليد.مع اقتراب العروسين من طاولتهما لاحظت السيدة خان أن البروفيسور كان يقرأ شيئاً على كفه، حيث كان قد خربش اسم الشخص الذي يشرب نخبه وأسماء العرسان الجدد الذين لم يلتق بهم سابقاً.اقتربت ليسمع صوتها وسط الضوضاء التي يثيرها أربعمائة من الضيوف مع دندنة الموسيقى والغناء، فأزعجتها رائحة كتب الجيب البالية والسجاد الرث.كانت تلك من المناسبات التي كان لا بد لهما من حضورها مع أنها ربما تريح الأعصاب، مناسبة كانت تشبهها بزيارة مخازن كتبٍ مستعملة.

قالت:

«لا تقلق.لقد فعلت هذا ألف مرة من قبل».

فرك البروفيسور يديه على بنطلونه:

«حقاً؟ يبدو أنني لا أتذكر».

كانت بشرته شاحبة اللون رقيقة مثل الورق تقطعها أوردة زرقاء.من الخط الدقيق الذي يفصل شعره الفضي إلى جزأين ومن لمعان حذائه، كان البروفيسور يبدو نفس الرجل الذي سبق أن علم أجيالاً لا تحصى من الطلاب.خلال دقيقتين وهو يراقب العروسين يأتيان إلى طاولتهما لم ينس اسم احدٍ من المدعوين، كان يدعو كل زوج وزوجة بأسمائهم ويتمنى لهم الأماني السعيدة التي تتوقع من أكبر رجلٍ بين الضيوف.وبينما كان العريس يسحب ياقة سترته التي تشبه سترة نهرو والعروس تجرجر أذيال ثوبها الفضفاض لم تكن السيدة خان تفكر إلا في تلك الليلة التي شُخّصت فيها حالة البروفيسور، الذي أثار الخوف في نفسها عندما وجدته يبكي للمرة الأولى خلال حياتهما الزوجية التي امتدت إلى أربعة عقود.بعد أن غادر العريسان الشابان استرخت قسماتها أخيراً، وتنهدت من الأعماق في ثوبها المخملي الضيق.

غرفت بعض سرطان البحر ووضعته في طبق البروفيسور وقالت:

«تقول أم العروس إنهما سوف يقضيان أسبوعاً من شهر العسل في باريس، والأسبوع الثاني في الريفيرا الفرنسية».

«صحيح؟ ماذا كان الفرنسيون يسمّون مدينة فونغ تاو الساحلية؟»

كان طبق سرطان البحر المغموس بصلصة تمر الهند هو المفضل لدى البروفيسور خان، ولكنه الليلة كان ينظر بتوجس إلى المخالب التي تشير باتجاهه ويتمتم:

«كاب سانت جاكوز».

«لقد أمضينا أوقات جميلة هناك، أليس كذلك؟»

«أتذكر اللحظة التي بدأت فيها تتكلم معي أخيراً».

قال البروفيسور:

«ومن لا يخجل في حضرتك؟»

منذ أربعين سنة، حين كانت في التاسعة عشرة من عمرها، امضيا شهر العسل في فندق على ساحل البحر هناك.على شرفتهما في الفندق، تحت ضوء القمر، كانا يستمعان إلى النزلاء الفرنسيين يغنون ويصيحون على جانبٍ من الساحل، حينها تكلم البروفيسور فجأة.«تخيلي!» قال، وكان صوته مفعماً بالاستغراب وهو يتكلم عن مدى اتساع رقعة المحيط الهادي التي تعادل حجم القمر.وحين انتهى من ذلك بدأ يتكلم عن السمكة الغريبة التي تعيش في الأعماق السحيقة من وديان المحيط ثم تكلم عن الموجات الحمراء التي لا تفسير لها.إذا كانت في بعض الأحيان تجد نفسها تائهة ضمن مسارات كلامه، فالأمر لم يكن مهماً آنذاك، لأن نبرات صوته كانت تستحوذ عليها، فهي مليئة بالثقة والاندفاع في إيقاعاتها المحسوبة، حين كانت تسمعها لأول مرة، وتنصت إلى كلامه من المطبخ في منزل عائلتها وهو يفسر لها أطروحة والده عن تيار كوروشيو وتأثيراته الديناميكية الحرارية.

الآن بدأت ذكريات البروفيسور تتلاشى تدريجياً وتختفي من ذهنه، وتتلاشى معها الجمل الطويلة التي كان يحبذها ذات يوم.كانت إيقاعات الفرقة الموسيقية تتحول رويداً إلى أغنية «أتمنى لو تحبني»، فأرخى البروفيسور رباط عنه الذي يحمل علامة وندسور وقال:

«هل تذكرين هذه الأغنية؟»

«ماذا عنها؟»

«كنا نسمعها طوال الوقت.قبل أن يولد الأطفال».

لم تكن الأغنية قد أطلقت بعد أثناء فترة حملها الأول، لكن السيدة خان قالت:

«ذلك صحيح».

«دعينا نرقص إذن».

اقترب منها البروفيسور، ووضع إحدى ذراعيه على ظهر كرسيها.وتلطخت إحدى عدسات نظاراته ببصمات الأصابع.

«كنت دائماً تلحّين عندما تسمعين هذه الأغنية لأن نرقص، ين».

شربت السيدة خان قليلاً من الماء، حاولت أن تخفي دهشتها من أن يناديها زوجها باسم امرأة أخرى.

«أوه؟ هل رقصت معي في يوم من الأيام؟»

لم يرد البروفيسور بشيء، لأن الفرقة الموسيقية بأصواتها الهادرة جعلته ينهض على قدميه.اقترب من الراقصين الذين كانوا يؤدون رقصة البيغاء، بينما أمسكت السيدة خان طرف سترته الرمادية الطويلة.

قالت وهي تسحبه بقوة:

«توقف عن هذا! اجلس!»

رمقها بنظرة منكسرة وامتثل لها.

كانت السيدة خان تدرك أن بعض الضيوف ينظرون إليهما.فتصرفت برزانة ووقار، لم تعرف من تكون تلك المرأة التي تدعى ين.ربما كانت من معارفهم القدماء الذين لا يرى البروفيسور أنهم يستحقون الذكر في أكثر الأحيان، أو لعلها جدة لم تلتق بها السيدة خان ولا تتذكر اسمها، أو هي إحدى المعلمات في المدرسة العليا كان مفتوناً بها في الماضي.كانت السيدة خان تتوقع أي شيء، ولكنها لم تكن على استعداد للتفكير في أشخاصٍ لا تعرفهم ولم تسمع بهم يخطرون بين الحين والحين على ذهن البروفيسور المنهك.

قال البروفيسور:

«الأغنية توشك أن تنتهي».

«سوف نرقص معاً إذا عدنا إلى المنزل، أعدك بهذا».

رغم حالته الذهنية، أو ربما بسببها، أصر البروفيسور على أن يقود السيارة بنفسه في طريق العودة.كانت السيدة خان متوترة وهي تراقبه كيف يتحكم بالسيارة، لكنه كان يمضي بسرعته الاعتيادية وطريقته الحذرة.كان يبدو هادئاً إلى أن انعطف يساراً نحو شارع غولدن ويست وليس إلى اليمين، وقادتهما استدارته الخاطئة إلى مكانٍ قريب من إحدى الكليات التي كان يدرّس فيها خلال الربيع الماضي.بعد المجيء إلى أمريكا عجز عن إيجاد عملٍ في اختصاص علم البحار، واستقر به المقام كمدرّس للغة الفيتنامية.طوال السنوات العشرين الأخيرة، كان يلقي محاضراته تحت أضواء النيون على طلاب يشعرون بالملل.وحين تساءلت السيدة خان عما إذا كانت إحدى طالباته تدعى ين، أحست وخزة ألم تصورتها في البداية نوبة قلبية.ولدى التفكير ملياً أدركت أنها الغيرة.

أوقف البروفيسور السيارة فجأة.ووضعت السيدة خان يديها على لوح أجهزة القياس في السيارة وانتظرت أن يناديها بذلك الاسم، لكنه لم يقل شيئاً عن ين.استدار من جديد متجهاً إلى المنزل، ثم سألها كأنه يتوسّل:

«لماذا لم تخبريني بأننا كنا نسير في الاتجاه الخاطئ؟»

كانت السيدة خان تراقب علامات المرور على الشارع أمامهما وهي تتحول إلى خضراء كأنما باتفاق بينها، وقالت بينها وبين نفسها إنها لا تملك جواباً عن سؤاله.

في صباح اليوم التالي كانت السيدة خان تقف عند الفرن تحضّر الإفطار لابنها الأكبر الذي جاء ليزورهم حين دخل البروفيسور المطبخ، بعد أن خرج من الحمام وحلق ذقنه.جلس على الكرسي قرب النضد، وفتح الجريدة، وبدأ يقرأ لها العناوين الرئيسية.بعد أن انتهى من ذلك أخبرته عما جرى ليلة البارحة.وطلب إليها أن تخبره بالتفصيل عن اللحظات التي بدأ يتصرف فيها على النقيض من شخصيته الحقيقية، وراحت تسرد التفاصيل إلى أن وصلت إلى إلحاحه على الرقص لولا أن ضربته على كتفه وأوقفته.

قالت باستغراب:

«لا بأس عليك، إنها ليست غلطتك».

طوى البروفيسور الجريدة وألقاها بعصبية على النضد وهو يقول:

«هل تتخيلين منظري وأنا على حلبة الرقص؟ رجل في مكانتي؟»

اخرج من جيب قميصه دفتر ملاحظاتٍ ازرق، وذهب إلى حديقة المنزل، وبدأ يسجل الأخطاء التي ارتكبها مؤخراً حين جاء إليه فينه.كان ابنهما قد وصل بعد انتهاء نوبة عمله في مستشفى البلدة، وكان يلبس معطف التمريض الأخضر الذي أضفى غرابة على شكله في عيني البروفيسور.لو كان يزور والديه كما يزور مركز الرشاقة! هكذا كانت السيدة خان تتمنى.ولكنه كبر الآن، لم يعد ذلك الفتى الذي تضربه على خده أو على صدره، ولم تعد هي قوية أمام هذا الرجل المفتول العضلات.كان يحمل تحت إحدى ذراعيه رزمة ملفوفة بورق بني، وضعها على عريش خلف أبيه.

أعاد البروفيسور دفتر الملاحظات إلى جيبه وأشار بقلمه إلى الرزمة متسائلاً:

«ما هذه المفاجأة؟»

وبينما كانت السيدة خان تفكر في أومليت البيض الذي على النار، نزع فينه الغلاف الورقي ليكشف عن لوحة ذات إطار مزخرف ضخم كأنها من لوحات القرن التاسع عشر في أوروبا.

قال:

«كلفتني مائة دولار، اشتريتها من سوقٍ في شارع دونغ كوي».

كان فينه قد سافر إلى سايغون في إجازة الشهر الماضي.

«معارض اللوحات هناك يصادفها الإنسان في كل مكان، لكني اشتريت إطارها من هنا».

انحنى البروفيسور لينظر جيداً إلى اللوحة.ثم قال بشيءٍ من الحزن:

«في وقتٍ ما كان الشارع يسمى تودو، وقبل ذلك كان يسمى رو كاتينا».

قال فينه:

«جيد أنك تتذكر».

كان يجلس بجوار أمه إلى طاولة المطبخ.ولاحظت السيدة خان أن موضوع اللوحة امرأة عينها اليسرى خضراء واليمنى حمراء، وملامح وجهها غريبة، فضلاً عن أن الرسام جعل ذراعيها

ممدودتين بشكلٍ مبالغ فيه وكذلك جذعها، بحيث لا تشبه أي امرأة حقيقية بل تبدو مثل دميةٍ من الورق، قُطعت ولصقت على مسندٍ ثلاثي الأبعاد.قال فينه:

«هناك دراسة جديدة تظهر كيف يمكن للوحات بيكاسو أن تثير اهتمام أشخاص مثل بابا».

«هل هذا صحيح؟»

فرك البروفيسور عدسات نظاراته بالمنديل.خلفه كان المشهد الذي تعودت عليه الآن السيدة خان، ساتر ترابي عند مدخل باحتهم الخلفية يمتد إلى الطريق السريع الذي يسلكه فينه إلى لوس أنجلس، على بعد ساعةٍ تقريباً شمال حيّهم في ويستمنستر.لقد تعوّد أولادهم أن يمضوا ما بعد الظهيرة وهم يتعرّفون على موديلات السيارات العابرة، كأنهم من علماء الطيور يميزون بين أنواع العصافير.كان ذلك منذ زمن بعيد، وفينه جاء الآن مبعوثاً من بقية الأبناء الستة.قال، وهو يمسك الشوكة والسكين:

«ماما، عليك أن تتقاعدي عن العمل في المكتبة، يمكننا أن نرسل إليكما ما يكفي من النقود شهرياً لتغطية كل الفواتير.ويمكنك الحصول على مدبرة منزل لمساعدتك.وبستاني أيضاً».

لم تكن السيدة خان تحتاج إلى من يساعدها في الحديقة، التي كانت من تصميمها وحدها.هناك مرجٌ اخضر بشكل حدوة الحصان يفصل أشجار الكاكي عن وسط الحديقة، حيث تنمو شجيرات الكزبرة بأوراقها الخضراء الشاحبة، وشجرة ريحان سهمية الأوراق، وشجيرات الفلفل التايلندي تتكاثر بغزارة في أحواض بلاستيكية خصصتها لها.كانت تعتمد عليها في إضفاء النكهات إلى طبق الاومليت بثلاث رشاتٍ من الفلفل، وحين تأكدت أنها تستطيع أن تتكلم دون أن تخذلها فطنتها قالت:

«إنني اعشق حديقتي».

«الفلاحون المكسيكيون يعملون بأجور زهيدة، ماما.والى جانب ذلك، سوف تحتاجين كل الوقت المتوفر لديك.عليك أن تستعدي للأسوأ».

قال البروفيسور على عجل:

«عشنا زمناً أسوأ من زمنكم، نحن على استعداد لأي شيء».

أضافت السيدة خان:

«لستُ عجوزاً إلى هذا الحد حتى أتقاعد».

«كوني عقلانية، ماما».

لم يعد ابنهما فينه ذلك الفتى الذي يعرفانه، منذ أن بلغ سن المراهقة أصبح شخصاً آخر، كان يتسلل إلى الخارج ليلاً ليلتقي بإحدى صديقاته، وهي فتاة أمريكية تطلي أظافرها بالأسود وشعرها ارجواني.حاول البروفيسور تدارك الموقف بأن أغلق جميع النوافذ، ولكن فينه سرعان ما وجد حلاً للمشكلة بأن ترك المنزل بعد تخرجه من مدرسة بولسا غراند.«أنا أحبها»، كان يصرخ بوجه أمه على التلفون من لاس فيغاس.«أنتم لا تعرفون شيئاً، أليس كذلك؟»

أحياناً كانت السيدة خان تشعر بالندم لأنها أخبرته ذات يوم بأن أبيها هو الذي رتّب مسألة زواجها.

قال فينه:

«لا تحتاجين للنقود التي تحصلين عليها من هذا العمل، بابا يحتاج إليك في المنزل».

أبعدت السيدة خان يديها عن طبق البيض الذي لم تمسّه.لن تقبل أن ينصحها شخصٌ لم يدم زواجه أكثر من ثلاث سنوات.قالت:

«الأمر لا علاقة له بالنقود، كيفن».

تنهد فينه لأن أمه كانت دائماً تناديه باسمه الأمريكي حين تنزعج منه.ثم قال وهو يشير إلى قميص أبيه الملطخ بالصلصة:

«ربما عليك مساعدة أبي».

قال البروفيسور وهو يزيل اللطخة بأصابعه:

«انظري، هذا لأنك تزعجيني».

تنهد فينه مرة أخرى، لكن السيدة خان لم تنظر إليه وهي تغمس المنديل في كأس الماء.تساءلت عما إذا كان يتذكر كيف هربوا من فونغ تاو على قارب صيدٍ مهلهل يحمل أبناءها الخمسة مع ستين من الغرباء، بعد ثلاث سنوات من نهاية الحرب.وامضوا أربعة أيام في البحر وكان هو وباقي الأطفال، بعد أن لفحتهم الشمس، يبكون من اجل الماء، ولم يكن من سبيلٍ للحصول على الماء إلا من البحر.ومع ذلك كانت تغسل وجوههم وتمشط شعرهم في كل صباح، وتستخدم الماء المالح والبصاق.كانت تعلمهم أن الاتيكيت ضروري في أي وقت، وأن خوف أمهم لا يمنعها من الاعتناء بهم لأنها تحبهم.

قالت:

«لا تقلق، سوف تزول هذه البقعة حالاً».

كانت السيدة خان، وهي تنحني لتفرك قميص البروفيسور ترى اللوحة بوضوح.لم تعجبها هي وإطارها المزخرف.كان الإطار مبهرجاً أكثر مما ينبغي بالقياس إلى ذوقها، ويبدو قديم الطراز بالقياس إلى مضمون اللوحة.نقطة الاتصال بين الإطار واللوحة تؤدي إلى بروز السمة الأكثر إزعاجاً فيها، عينا المرأة وهما تنظران من جانبٍ واحد لوجهها.العينان جعلتا السيدة خان تنزعج بحيث قامت في وقتٍ لاحق من نفس اليوم، بعد ذهاب فينه، بنقل اللوحة إلى مكتبة البروفيسور، وتركتها هناك بمواجهة الحائط.

بعد مجيء ابنهما بوقتٍ طويل توقف البروفيسور عن حضور قداس الأحد.وكانت السيدة خان تبقى في المنزل أيضاً، وبدءا شيئاً فشيئاً ينقطعان عن رؤية الأصدقاء.كانت الأوقات الوحيدة التي تترك فيها المنزل لغرض التسوق أو إلى مكتبة غارن غروف، حيث لا يعرف زملاؤها من العاملين في المكتبة أي شيءٍ عن حالة البروفيسور.وكانت تستمتع حقاً بعملها لجزءٍ من الوقت، تصنف وترتب مجموعات الكتب والأفلام الفيتنامية التي تشترى لخدمة الساكنين في بلدة سايغون الصغيرة القريبة، والذين إذا جاءوا إلى المكتبة وسألوا عن شيء يرشدهم الناسُ مباشرة إليها في مكانها خلف طاولة الاستعارة.وكانت تجيب على الأسئلة، ودائماً تشعر بالامتنان لعملها الذي يستحق أن تعيش من أجله، تلك المتعة في أن يحتاج إليها الناس، ولو لبعض الوقت.

وحين تنهي نوبتها عصراً تلملم أشياءها وترجع إلى المنزل، كانت تقوم بذلك العمل بحرصٍ مفرط يجعلها تشعر بالخجل.وتداري خجلها بكلمات الوداع تخاطب بها زميلاتها في المكتبة بمرح مبالغ فيه، ثم تهيئ المنزل لحالات الطوارئ بنشاط عجيب، كأنها تستطيع تلافي الأشياء المحتومة بالعمل الجاد.كانت ترسم مساراً من السرير إلى الحمام بشريطٍ لامع اصفر، حتى لا يضيع البروفيسور طريقه أثناء الليل، وكذلك ترسمه على الجدار من المرحاض، وتلصق علامة على مستوى النظر ترسل وميضاً.وتكتب سلسلة من القوائم، تضعها في أماكن استراتيجية من المنزل، تذكّر البروفيسور بالنظام الذي عليه أن يتبعه في ترتيب ملابسه، وماذا يضع في جيوبه قبل أن يغادر، والأوقات التي ينبغي أن يأكل فيها.لكن البروفيسور استأجر بنفسه احد العمال لتركيب قضبان حديدية على النوافذ.قال البروفيسور باستسلام وهو يحني جبهته على القضبان:

«لا تعلمين متى يمكن أن أتسلل إلى الخارج ليلاً».

«وأنا لا أريدك أن تفعل ذلك».

كانت المشكلة الأكثر إلحاحاً على ذهن السيدة خان أن يرجع البروفيسور إلى المنزل بشخصية رجلٍ غريب.وبينما لم يكن زوجها يتصرف برومانسية في أكثر الأحيان، فقد عاد من إحدى جولاته المسائية وأصر على أن يأتي لها بوردة حمراء في كيسٍ بلاستيكي.لم يحدث أبداً أن اشترى لها الزهور من أي نوع، كان يفضل أن يفاجئها بهدايا تدوم، مثل الكتب التي كان يجلبها لها من حين إلى حين، وتتناول موضوعات مثل «كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس»، أو «الاستعداد لضريبة الدخل».وذات يوم فاجئها بأن أعطاها قصة، أو مجموعة قصص قصيرة لمؤلفٍ لم تسمع به من قبل.حتى هذا النوع من الهدايا كان بعيداً عن اهتماماتها، لأنها كانت تفضل الروايات.ولم تقرأ سوى صفحات قليلة من هذه الكتب، بل كانت تقتنع برؤية اسمها مكتوباً بخط يده الأنيق في الإهداء تحت أسماء المؤلفين.ولكن إذا كان البروفيسور يمضي حياته في ممارسة فن إهداء الكتب، فهو لم يفكر يوماً بتقديم الزهور كهدية، وحين انحنى لها وهو يقدم الوردة ظهر كأنه يعاني من مغصٍ في المعدة.

سألته:

«لمن هذه الوردة؟»

هزّ البروفيسور الوردة استهجاناً، فسقطت من حافاتها إحدى أوراقها التويجية ذات اللون البني:

«وهل يوجد هنا احدٌ غيرك؟ إنها لك».

أخذت الوردة بتردد وهي تقول:

«كم هي جميله! من أين أتيت بها؟»

«من الدكتور ستيبان.حاول أن يبيعني أيضاً بعض البرتقال، لكني قلت له إننا نزرع البرتقال بأنفسنا».

قالت:

«ومن أنا؟ ما اسمي؟»

نظر إليها وهو يغمز، وقال:

«أنت ين، بطبيعة الحال».

«بطبيعة الحال».

عضت شفتيها وهي تقاوم الحافز لأن تقتلع الوردة.ولكنها وضعتها أخيراً في مزهرية على طاولة الطعام من اجل البروفيسور، وجاءت بالعشاء بعد ساعة، فوجدته قد نسي أنه اشتراها.كان يقضم الروبيان المسود، المحمّص على أسياخ، وجبن الصويا اللماع مع صلصة البازلاء السوداء، ويتكلم بحيوية عن بطاقة البريد التي وصلتهم عصر ذلك اليوم من ابنتهم الكبرى، التي تعمل في شركة أمريكان للبريد السريع في ميونخ.نظرت السيدة خان إلى صورة ميدان مارينبلاتز قبل أن تقلب البطاقة لتقرأ بصوت مسموع الكلمات التي كتبت عليها، وكان فيها تعليق عن غياب الحمام هناك على نحو مثير للاستغراب.

قال البروفيسور:

«بعض الأشياء الصغيرة تبقى معك كذكرى إذا سافرت».

وكان يمتص أثناء تناول الطعام عصارة الليمون المر، الذي لم يكن أولادهم يحبونه، مع أنه كان يذكر البروفيسور والسيدة خان بأيام الطفولة.قالت:

«مثل ماذا؟»

«أسعار السجائر، حين رجعتُ إلى سايغون بعد انتهاء دراستي، لم استطع دفع ثمن السجائر اليومية نوع غلواز.كان سعر السجائر المستوردة مرتفعاً جداً».

وضعت بطاقة البريد على المزهرية، كتذكارٍ عن خططهما المستقبلية للسفر إلى مدن العالم الكبيرة بعد التقاعد.الطريقة الوحيدة للسفر التي كانت السيدة خان تراها مقبولة هي عبر البحار والمحيطات.مع أن الامتدادات الشاسعة للمياه كانت تثير في نفسها الخوف من الغرق، رهاب جعلها تتوقف عن الاستحمام، وحتى حين تستحم يبقى ظهرها على رشاش الماء.

سألها البروفيسور:

«لماذا اشتريت هذه؟»

«بطاقة البريد؟»

«لا، الوردة».

«لم اشترها، أنت الذي اشتريتها».

اختارت السيدة خان كلماتها بحذر، لم تشأ أن تعكر مزاج البروفيسور، ومع ذلك أرادت له أن يعرف ما فعله.

«أنا؟ هل أنت واثقة؟»

بدا البروفيسور مستغرباً.واستغربت هي من نبرة الحنان في صوته.

«أنا واثقة تماماً».

لم ينتبه البروفيسور إلى كلامها كأنه لم يسمع.ثم تنهد واخرج دفتر الملاحظات الأزرق من جيب قميصه.وتمتم:

«دعينا نأمل أن لا يحصل ذلك مرة أخرى».

«لا أتصور أنه سيحصل».

بدأت السيدة خان تجمع الأطباق.لم تكن تريد أن يظهر الغضب على وجهها، واقتنعت بأن البروفيسور ينوي تقديم الأزهار لامرأة أخرى.ثم حملت أربعة أطباق، ووعاء الشوربة، والأقداح إلى طاولة المطبخ، وكان الحمل ثقيلاً يتأرجح بين يديها.ثم سُمع صوت الأواني الفضية تقعقع على الأرضية والخزف المتكسر جعل البروفيسور يصيح من غرفة الطعام:

«ما هذا؟»

نظرت السيدة خان إلى بقايا وعاء الشوربة عند قدميها.ثلاث قطع خضراء غير مأكولة من الليمون المر، محشوة باللحم، ترقط الأرضية وسط قطعٍ متكسرة.قالت:

«لا شيء، سوف اهتم بكل شيء».

بعد أن غط البروفيسور في النوم في وقتٍ لاحق من المساء ذهبت إلى مكتبته، حيث وجدت اللوحة التي وضعتها قرب مكتبه مقلوبة الآن.عندئذٍ تنهدت.إذا بقي يقلب اللوحة بهذا الشكل فعليها على الأقل تبديل إطارها بشيءٍ أكثر ذوقاً وحداثة.جلست إلى مكتبه، تحيط بها من الجانبين مئات المجلدات باللغة الفيتنامية والفرنسية والانكليزية.كان يطمح لامتلاك كتبٍ أكثر مما يستطيع قراءته، وهي رغبة سببها أنه ترك كتبه كلها حين هربا من فيتنام.عشرات الكتب والأوراق على مكتبه، عليها أن تزيحها للعثور على دفاتر الملاحظات التي كان يتتبع بها أخطاءه خلال الأشهر الماضية.كان البروفيسور في الأيام الأخيرة يصبّ الملح على القهوة التي يشربها ويرش السكر على الحساء؛ وحين اتصل به وكيل المبيعات اتفق معه على اشتراك لمدة خمس سنوات في مجلة (الأسلحة والذخيرة) و(كوزموبليتان)؛ وذات يومٍ وضع محفظته في الثلاجة، وأعطى معنى جديداً لعبارة «نقود باردة»، أو هكذا كانت تمزح معه حين اكتشفت الأمر.ولكنه لم يذكر اسم ين، وبعد أن ترددت لحظات كتبت السيدة خان تحت آخر عنوانٍ في دفتر الملاحظات ما يلي: «اليوم ناديت

زوجتي باسم ين»، هكذا كتبت.وكانت تقلد طريقة البروفيسور في الكتابة بحذر، وتظاهرت بأن ما تفعله لمصلحة البروفيسور.قالت لنفسها، «هذه غلطة يجب أن لا تكرر».

وفي صباح اليوم التالي، بينما كان يُمسك كوب القهوة، قال:

«أرجوك أعطني السكر، ين».

وفي اليوم التالي، بينما كانت تقص شعره في الحمام سألها:

«ماذا يُعرض على شاشة التلفزيون الليلة، ين؟»

ومع تكرار مناداتها باسم تلك المرأة خلال الأسابيع اللاحقة، كان السؤال عمن تكون ين يقضّ مضجعها.ربما تكون من نزوات المراهقة، أو زميلة له من أيام المدرسة الثانوية في مرسيليا، أو زوجة ثانية في سايغون، أو أي امرأة قابلها في طريقه إلى المنزل من الجامعة، أو أثناء الأمسيات الطويلة حين يجلس في مكتبه في الحرم الجامعي يصحح أوراق امتحانات الطلبة.وبدأت السيدة خان تسجل كل حادثة انتحال هوية في دفتره، وفي الصباح يقرأها لها دون أن يبدي استغراباً، ثم يعود فيناديها باسم ين، حتى تظن أنها ستبكي لو سمعت ذلك الاسم مرة أخرى.

ربما كانت تلك المرأة شخصية وهمية ابتكرها البروفيسور في ذهنه المكدود، هكذا قالت لنفسها بعد أن ضبطته عارياً من الخصر إلى الأسفل، ينحني على حنفية الحمام ويدعك ملابسه الداخلية تحت الماء الحار.كان ينظر إليها بتركيز من فوق كتفه، ثم صرخ:

«اخرجي!»

فخرجت مسرعة، وصفقت باب الحمام بتهور.لم يحصل سابقاً أن كان البروفيسور يمارس هذه السيطرة على النفس، أو يصرخ بها، حتى في الأيام الأولى بعد مجيئهما إلى جنوب كاليفورنيا، حين كانوا يأكلون معتمدين على كوبونات الطعام، ويحصلون على معونة السكن، ويلبسون ثياباً مستعملة تتبرع بها أبرشية سانت البانز.تلك أيام الحب الحقيقي، هكذا فكرت، ليس بتقديم الورود وإنما بالذهاب إلى العمل كل يوم وعدم الشكوى من تدريس الفيتنامية إلى من يسمون أنفسهم المدافعين عن التراث، من طلابٍ مهاجرين ولاجئين يعرفون تلك اللغة ولكنهم يريدون الحصول على شهادة بطريقة سهلة.

حتى في أكثر الأوقات شقاءً في حياتها، حين كانوا ضائعين وسط الامتدادات الشاسعة للبحر اللازوردي، تتمايل بهم السفينة على الأفق، لم يكن البروفيسور يرفع صوته.في مساء اليوم الخامس كانت الأصوات الوحيدة إلى جانب الأمواج التي تصفع بدن السفينة تأتي من الأطفال والكبار وهم يتلون صلواتهم لله، أو لبوذا، أو لأسلافهم.البروفيسور وحده لم يكن يصلي.بدل ذلك كان

يقف عند مقدمة السفينة كأنه في قاعة المحاضرات، بينما يتجمع الأطفال عند ركبتيه طلباً للحماية من الرياح، وكان يخبرهم بالأكاذيب.«انتم لا تستطيعون رؤية ذلك في وضح النهار»، قال، «ولكن التيار الذي يدفع السفينة يمضي مباشرة إلى الفلبين، كما كان يحصل منذ فجر التاريخ».كان يعيد سرد حكاياته كثيراً مع أن السيدة خان ربما كانت تصدق كلامه أحياناً، حتى ظهيرة اليوم السابع، حين شاهدوا من مسافة بعيدة شريطاً صخرياً لساحل بلدٍ أجنبي.كانت تنتشر على الساحل أكواخ القرويين والصيادين، تبدو مبنية من الأغصان والأعشاب، تحيط بها شجيرات المنغروف.لدى رؤية الأرض ألقت نفسها بين ذراعي البروفيسور، فأسقطت نظاراته، وراحت تبكي دون قيود لأول مرة أمام أطفالها المذهولين.كانت تشعر بالنشوة لأن تعرف أنهم سوف ينجون بحيث صاحت به «أنا احبك».لم تفعل شيئاً مثل ذلك في حياتها أمام الملأ وبالكاد في الخلوة بينهما، فأحس البروفيسور إحراجاً من قهقهات الأطفال، وابتسم فقط وأعاد نظاراته إلى عينيه.وازداد إحراجه حين وصلوا إلى البر، حيث أخبرهم المحليون بأنه الساحل الشمالي لشرق ماليزيا.

لسببٍ ما لم يتكلم البروفيسور عن الأمور التي حصلت في البحر، مع أنه كان يتذكر الكثير من الأشياء التي فعلوها في الماضي، ومنها أحداث لم تعد تتذكرها.كلما كانت تصغي إليه تخشى أن تضعف ذاكرتها.ربما تناولا الآيس كريم بنكهة الفراولة على شرفة إحدى مزارع الشاي في الهضاب الوسطى وهما يتمددان على كراسي الخيزران.هل كانا يُطعمان الظباء الأليفة في حديقة حيوانات سايغون؟ أو امسكا وضربا نشّالاً تسلل إليهما لكي يسرقهما في سوق بين ثانه، وكان من اللاجئين المعدمين الذين نزحوا من الأرياف التي تعرضت للقصف؟

مع مجيء أيام الصيف الطويلة بعد الربيع أصبحت تُجيب على الهاتف بوتيرة اقل، وفي وقتٍ لاحق كانت تغلق الجهاز حتى لا يرد البروفيسور على المكالمات.كانت تخشى أن يسأل احدٌ عنها فيرد عليه، «من؟» أو يحصل شيءٌ مقلق أكثر إذا تكلم مع أصدقائهما أو مع الأطفال.واتصلت ابنتها من ميونخ فقالت لها، «أبوك ليس على ما يرام»، ولكنها تركت الخوض في التفاصيل.وكانت حذرة وخائفة من فينه، فهي تعرف أن أي شيء تخبره به سوف يرسله حالاً بالبريد الإلكتروني إلى غيره من الأبناء.كلما اتصل بها يمكنها أن تسمع هسيس الدهن في المقلاة، أو صوت نشرة الأخبار على التلفزيون، أو أبواق السيارات.كانت اتصالاته واجباً روتينياً ثقيلاً يؤديه في حياته بلا اهتمام أو إخلاص.واعترفت لنفسها بأنها بقدر ما كانت تحب ابنها، فهي تخشاه، وجعلها ذلك تعيسة واضطرت يوماً للاتصال به فسألها:

«هل اتخذت قراراً؟ هل تتركين العمل؟»

لفت سلك الهاتف بعصبية حول أصبعها وقالت:

«لا تقل لي هذا مرة أخرى.لن اترك عملي».

بعد أن أغلقت السماعة عادت إلى تنظيف أغطية السرير التي بللها البروفيسور في المساء الماضي.وكان رأسها يؤلمها من قلة النوم، وظهرها أيضاً من تلك الأعمال الرتيبة، ورقبتها مشدودة من التوتر والقلق.كانت تعجز عن النوم، تبقى تسمع حديث البروفيسور عن رياح الشمال الباردة وهي تدفعه من جانب إلى آخر على الأزقة الضيقة في لوبانير، حيث كان يعيش في شقةٍ تحت الأرض أثناء سنواته في مرسيليا، أو يتحدث عن الصرير المخدّر لمئات الأقلام على الورق أثناء أداء الطلاب لامتحاناتهم.في أثناء حديثه كانت تحدق في ضوء الحمام، يأتي من مصابيح الشوارع في الخارج، وتتذكر القمر فوق بحر الصين الجنوبي مشرقاً إلى درجة أنها حتى في منتصف الليل ترى الخوف على وجوه أطفالها.وكانت تحصي السيارات العابرة، وتسمع هدير محركاتها وتتمنى النوم، حين أحست يد البروفيسور تلمسها في الظلام ويقول لها بصوت رقيق:

«إذا أغمضت عينيك ربما سمعت أمواج المحيط».

وأطبقت السيدة خان عينيها.

كان أيلول يأتي ويذهب.وتشرين الأول يمرّ ورياح سانتا آنا تندفع عبر الجبال باتجاه الشرق بقوة كأنها السيارات على الطريق السريع، تحطم أكشاك البردي المصري التي زرعتها في أحواض السيراميك قرب العريش.ولم تعد تترك البروفيسور يمشي بمفرده في المساء، بل تتبعه سراً على مسافة عشرة إلى عشرين قدماً، وتمسك قبعتها لئلا تحملها الرياح.فإذا خفت رياح سانتا آنا يجلسان يقرءان جنباً إلى جنبٍ على الباحة.في غضون الأشهر القليلة الماضية كان البروفيسور يقرأ بصوت مرتفعٍ وبطيء.وفي كل يوم يقرأ بصوت أكثر ارتفاعاً، ويكون صوته أبطأ، وفي ظهيرة احد أيام كانونَ الأول توقف طويلاً في منتصف عند إحدى الجمل بحيث استغربت السيدة خان من الصمت وتركت آخر قصة رومانسية كتبها كوينه داو.

سألته وهي تغلق الكتاب:

«ما الأمر؟»

قال البروفيسور وهو يتأمل الصفحة.ورفع رأسه فرأت الدموع تترقرق في عينيه:

«كنت أحاول قراءة هذه الجملة منذ خمس دقائق، هل بدأت افقد عقلي، ها؟»

منذ ذلك الوقت صارت تقرأ له كلما وجدت فراغاً، كتباً في موضوعات أكاديمية لا تثير اهتمامها.وتتوقف كلما بدأ يتذكر شيئاً ـ القلق الذي كان يشعر به في أول لقاء مع أبيها، بينما هي تنتظر في المطبخ لتقابله؛ ويوم زفافها، حين كاد يغمى عليه من الحرارة وضيق ربطة العنق؛ ويوم عادا إلى سايغون قبل ثلاث سنوات وزارا منزلهما القديم على شارع فان ثان غيان، ولم يتمكنا من

العثور عليه في البداية لأن اسم الشارع تغيّر إلى ديان بيان فو.لقد تغيرت الأسماء في سايغون كما تغيرت الوجوه، لكنهما لم يتقبلا تسميتها بمدينة هوشي مينه.ولم يستطع سائق التاكسي الذي اقلهما من الفندق الذي يقيمان فيه إلى المنزل أن يجد المكان، لأنه كان شاباً يافعاً فلا يتذكر الزمن الذي كانت فيه المدينة تسمى رسمياً سايغون.

توقفت السيارة على مقربة من منزلهما القديم، وبقيا في التاكسي لتجنب مسيرة للكوادر الثورية التي كانت تزحف من الشمال وتستعرض قوتها بعد استيلاء الشيوعيين على السلطة.كانت هي والبروفيسور مغمورين بالحزن والحنق، متضايقين يتساءلان عمن يكون هؤلاء الغرباء الذين استولوا على منزلهما البائس.كان المصباح الوحيد في الزقاق يضيء بقع الصدأ التي تغطي الجدران، تنحدر من الشبكة الحديدية في الشرفة مع الرياح والمطر.وبينما كانت ماسحة المطر في التاكسي تصدر صريراً على الزجاجة الأمامية، مرّ بائعٌ متجول على دراجته، يروّج لبضاعته ويهزّ زجاجة مليئة بالفقاعات.

قال البروفيسور:

«قلت لي إنه الصوت الأكثر وحشة في العالم».

قبل أن يتكلم قرأت له صفحات من سيرة ديغول، وإصبعها لم يزل على الكلمة الأخيرة التي وصلت إليها.لم تحب التفكير في منزلهما الضائع، ولم تتذكر أنها قالت له شيئاً من ذلك.سألته:

«هل كان ذلك صوت ماسحات الزجاج أم قنينة زجاجية؟»

«صوت القنينة».

قالت وهي تعرف أنها تكذب:

«هكذا كان يبدو في ذلك الوقت، لم اسمع الصوت منذ سنين».

نزع البروفيسور نظاراته واخذ يمسحها بمنديله.لقد ذهب ذات يوم إلى منتجع في جبال دالات لحضور مؤتمر وبقيت هي في سايغون لأنها كانت في شهور الحمل الأولى.وأكمل البروفيسور كلامه:

«كثيراً ما كنا نسمعه في بلدة دالات.كنت دائماً تحبين تناول الآيس كريم في الخارج مساءً، من الصعب تناول الآيس كريم في القطب الشمالي، ين.المرء لا يتذوق طعمه ما لم يكن في الداخل تحت مكيف الهواء».

«منتجات الألبان تسبب لك عسر الهضم».

«إذا تناول المرء الآيس كريم في وعاء سرعان ما يتحول إلى صابون.وإذا تناوله في مخروط يذوب سريعاً على يديه».

حين استدار إليها مبتسماً رأت عصارات بيضاء على زوايا عينيه.

«كنت تحبين تلك المخاريط البنية السكرية، ين.وتصرين على أن امسكها لك حتى لا تتلطخ يدك بما يتساقط منها».

سمعا النسيم يداعب شجيرات البوغانفيليا، ربما كانت تلك أولى هبّات رياح سانتا أنا تعود.الصوت أذهلها كما أذهل البروفيسور الذي كان ينظر إليها ويفتح فمه حين قالت:

«ذلك ليس اسمي.لست تلك المرأة، إذا كانت حقاً موجودة».

أطبق البروفيسور فمه ووضع نظاراته على عينيه:

«أوه؟ اسمك ليس ين؟»

«لا».

«إذن ما اسمك؟»

لم تتوقع هذا السؤال بعد معاناتها وخوفها وقلقلها على زوجها الذي يناديها باسم امرأة أخرى.نادراً ما كانا يستخدمان أسماء العلم حين ينادي أحدهما الآخر، كانا يفضلان الأسماء العادية مثل «آنه»، للبروفيسور و«ايم» لها، أما إذا تكلما أمام الأولاد فيستعملان بابا وماما.في العادة كانت تسمع اسمها الأول ينطقه الأصدقاء أو الأقارب أو البيروقراطيين، أو حين كانت تقدم نفسها إلى شخصٍ تتعرف عليه لأول مرة، كما كانت تفعل الآن.

قالت:

«اسمي سا، وأنا زوجتك».

لعق البروفيسور شفتيه واخرج دفتر الملاحظات من جيبه:

«صحيح؟»

في المساء، بعد أن ذهبا إلى السرير وسمعته يتنفس بانتظام، أضاءت المصباح وامتدت فوقه تبحث عن الدفتر الذي وضعه قرب المنبّه.لقد تغير خط يده مؤخراً وتحول إلى خربشة معقدة حتى اضطرت لقراءة ما كتبه مرتين، وكانت تتبع الخطوط المتكسرة ومنحنيات الحروف على صفحةٍ تكاد تتمزق إلى أن وصلت إلى أسفل الصفحة، وقرأت الكلمات الآتية: «الأمور بدأت تصبح أسوأ..اليوم أصرّت على أن أناديها باسم امرأة أخرى.يجب أن ابقي عيني جيداً عليها ـ لعقت إصبعها وهي تقلب الصفحة..«ربما لن تعرف من تكون الآن.أغلقت الدفتر فجأة، وخبطت يدها على الصفحات، لكن البروفيسور الذي كان نائماً على جنبه لم يتحرك، ورائحة العرق والبول كأنها الكبريت تأتي من تحت الأغطية.لولا تنفسه الهادئ الرتيب وحرارة جسمه ربما ظنت أنه ميت، وفي لحظة عابرة تمنت لو كان ميتاً.

في النهاية لم تعد لديها فرصة للاختيار.في آخر يوم عملٍ قدمت لها زميلاتها في المكتبة مفاجأة في حفلة الوداع، فأحضرن الكيك وهدية كانت عبارة عن إرشادات سياحية للسفر خلال العطلات، إذ يعرفن رغبتها دائماً في السفر.أمسكت الأدلة السياحية لحظات وهي لا تدري ماذا تفعل بها، وقلبت صفحاتها، وكادت أن تنتحب، وظنت زميلاتها أنها مفرطة الحساسية.ثم رجعت بالسيارة إلى المنزل وقد وضعت الأدلة على المقعد الخلفي، قرب رزمة من حفاظات للبالغين اشترتها من محل سافون في الصباح، وكانت تحاول جاهدة السيطرة على إحساسٍ يلحّ على ذهنها بأن حياتها انتهت.

فتحت باب المنزل ونادته فلم تسمع غير رقرقة الماء في حوض السمك.ولم تعثر عليه في غرف النوم أو في الحمامات فتركت الحفاظات والكتب في مكتبه.رأت نسخة مفتوحة من كتاب (أنواع الرياضة المصورة) على طاولة في غرفة الجلوس، وعلبة تكاد تكون فارغة من مربى التفاح على منضد المطبخ، وفي الباحة الخلفية كان المئزر الذي يلبسه على خصره في الجو البارد ملقى على الأرض.ووجدت في كوب الشاي على طاولة الحديقة برعماً من شجرة البوغانفيليا يتمايل.

كاد الهلع يدفعها لأن تستدعي الشرطة.لكنهم لن يفعلوا شيئاً خلال وقتٍ قصير؛ سوف يخبرونها بأن تعود فتتصل بهم إذا بقي مفقوداً ليومٍ أو يومين.أما عن فينه، فاستبعدته ولم تشأ أن تسمعه يقول لها، «ألم اقل لك؟» واستولى عليها الندم في ذلك الوقت، والإحساس بالذنب لأنها كانت تتصرف بأنانية.غريزتها كمكتبية في حل المعضلات والبحث المنظم جعلتها تقف مشدوهة أمام ذلك الإحساس.عادت إلى سيارتها وهي مصممة على إيجاد البروفيسور.تحركت بالسيارة حول البنايات القريبة قبل أن توسع نطاق البحث إلى دوائر أوسع، وكانت نوافذ السيارة مفتوحة على الجانبين.حديقة الحي التي غالباً ما كانت هي والبروفيسور يتنزهان فيها كانت مهجورة إلا من بعض السناجب التي يطارد بعضها بعضاً على فروع شجرة البلوط.والممرات خالية من المتنزهين أو المهرولين، إلا من رجلٍ ذاوي الجسم عليه قميص مخطط بنقوش مربعة يقف في أحد الأركان، يبيع الورد بسلال بلاستيكية والبرتقال في صناديق، عيناه تختفيان تحت قبعة بيسبول قذرة.نادته باسم

السيد ستيبان فاتسعت عيناه؛ وسألته عما إذا كان قد رأى البروفيسور فابتسم كأنه يعتذر وقال، «لا أتكلم الانكليزية، أنا آسف!»

عادت أدراجها، وكانت تمشط الشوارع وتفتش الأزقة للمرة الثانية.تخرج رأسها من نافذة السيارة، وتنادي باسمه بصوت منخفض، تخجل أن ينتبه إليها الناس، ثم تصيح بصوت مرتفع، وتنادي:

«آنه خان! آنه خان!»

ولمحت بعض ستائر النوافذ تفتح قليلاً، ويمر زوج وزوجته بسيارتهما ببطء، وسائقهما ينظر إليها بفضول.لم تعثر على اثر له خلف أي سياج، أو باب منزلٍ غريب.

وبعد أن هبط الظلام عادت إلى المنزل.في اللحظة التي مشت فيها إلى الباب الأمامي شمّت رائحة الغاز.كان الإبريق على الفرن، ولكن النار غير مشتعلة.تسارعت خطواتها ونبضات قلبها من المشي ثم الركض.وبعد أن أغلقت الغاز رأت الباحة من زجاج الأبواب المفتوحة التي أغلقتها قبل خروجها.لمحت ضوءاً يأتي من المطبخ، وكانت تمسك إبريق الألمنيوم في يدها وتقترب ببطء من الأبواب الزجاجية.وحين أضاءت مصباح الحديقة لم تر غير أشجار الكاكي والفلفل الأحمر.

كانت في الصالة حين انتبهت إلى الضوء في مكتب البروفيسور.ونظرت من وراء إطار الباب فرأت ظهره.كان صندوق الكتب التي أحضرتها مؤخراً عند قدميه، وهو يقف في مواجهة رف الكتب.هنا تحتفظ بمجلاتها والكتب التي أهداها لها في السنوات الماضية.كان البروفيسور جاثياً على ركبتيه، يأخذ كتاباً من الصندوق، وينهض ليضعه على الرف.وكان يعيد نفس الحركة، يحمل كتاباً في كل مرة.كتب مثل (تاهيتي وأرخبيل الجزر الفرنسية)، وكتاب فرومر (هاواي)، وكتاب (رحلات ناشنال جيوغرافيك: الكاريبي).وفي كل مرة يتمتم بشيء لا تسمعه، كأنه يحاول قراءة العناوين: (جزر إغريقية كبرى)، (أورشليم الأرض المباركة)، (ثقافات العالم: اليابان)، (دليل رومانسي إلى ايطاليا).كان يلمس غلاف كل كتاب بعناية، وكانت تعرف، ليس للمرة الأولى، أنها ليست المرأة التي يعتبرها حب حياته.

وضع البروفيسور آخر كتابٍ على الرف واستدار.لمحت على وجهه نفس الملامح التي رأتها قبل أربعين عندما جاء لخطبتها، حين دخلت غرفة الجلوس في منزل أبيها ورأته شاحباً من الارتباك والقلق، وعيناه ترقّان في توجس.صاح بها وهو يرفع يده كأنه يريد اتقاء ضربة:

«من أنت؟»

كان قلبها يخفق بسرعة وإيقاع أنفاسها يضطرب.وحين ازدردت ريقها كان فمها جافاً، لكنها أحست شيئاً رطباً على راحتيها.استغربت لأن تجد نفس الأحاسيس التي راودتها أول مرة، وهي تراه في سترة بيضاء تجعدت من الرطوبة، وقبعة قشٍ تتدلى من يده على الفخذ.

قالت:

«أنا، أنا، ين».

قال البروفيسور وهو ينزل يده:

«أوه».

ثم ألقى جسمه الثقيل على الكرسي، ورأت حذاءه ملطخاً بالتراب.وبينما كانت تعبر السجادة إلى رف الكتب تبعها بنظراته المريبة، نظرات يبدو فيها الإجهاد واضحاً.كانت على وشك أن تأخذ كتاب (الأزقة الضيقة في باريس) من الرف لتقرأه في المساء، لكنها رأته يغمض عينيه وينحني إلى الوراء على كرسيه فعرفت أنه لن يسافر إلى أي مكان.وهي أيضاً لن تتمكن من السفر.بعد أن استبعدت الكتيبات السياحية قررت أيضاً استبعاد كتب أخرى من قبيل «كيف تساعد نفسك» و«كيف تصنع الأشياء بنفسك».ثم رأت غلاف كتاب سميك لم يمسّ من قبل ويتضمن قصصاً قصيرة.

أي قصة قصيرة، قالت لنفسها، لا بد أن تكون طويلة.

جلست بجانبه على السجادة، ووجدت نفسها قريبة من اللوحة.أدارت ظهرها إلى المرأة ذات العينين المزورّتين على جانب وجهها، وقطعت عهداً على نفسها أنها من الغد سوف تبدل إطار اللوحة.وحين فتحت الكتاب كانت تشعر بالمرأة تنظر من فوق كتفها إلى اسمها، مكتوباً بخط يده المميز تحت اسم المؤلف.تساءلت السيدة خان عما تعرفه عن الحب، إذا كانت تعرف شيئاً.ربما هي لا تعرف الشيء الكثير، لكنها تعرف ما يكفي عن الحب بحيث تعرف ما الذي ستفعله الآن، وستفعل ذلك غداً، وبعد غد، وبعده.سوف تقرأ له بصوت عال، من البداية.سوف تقرأ بأنفاس محسوبة، حتى النهاية.سوف تقرأ وكأنما كل حرف له قيمة لا تقدّر بثمن، وكل صفحة، وكل كلمة.

الأمريكان

لولا ابنته وزوجته لما كان جيمس كارفر يغامر ويذهب إلى فيتنام، ذلك البلد الذي لا يكاد يعرف عنه شيئاً سوى منظره من ارتفاع أربعين ألف قدم.لكن ميشيكو كانت تصرّ على الذهاب بعد أن دعتهم كلير، وكانت رسالتها التي جاءت بالبريد الإلكتروني معنونة إلى ماما وبابا، تعني الكثير لوالدتها.ميشيكو هي التي أرادت أن ترى فيتنام، بعد أن سمعت عنها من الأقارب الذين ذهبوا إلى هناك، لأنها تذكرهم بماضي اليابان الريفي، قبل أن يستخدم الجنرال ماك آرثر معطيات ما بعد الحرب في إعادة الأعمار ليلطخ وجوه اليابانيين بالماكياج الغربي، ومع ذلك لم يكن كارفر يولي اهتماماً للأوهام عن جمال الأرياف، بعد أن أمضى سنوات طفولته في إحدى قرى ألاباما التي تحرم الإنسان من الأمل قبل ولادته بزمن طويل.لقد رفض الذهاب إلى أن أقنعته ميشيكو، التي اقترحت زيارة معابد انغكور وات في كمبوديا كنقطة بداية، وسواحل تايلاند ومعابدها كتذييل لرحلة قصيرة إلى فيتنام.

وهكذا وجد كارفر نفسه يصل إلى هيو في أيلول، ويتمشى ببطء على أرض المقبرة الإمبراطورية برفقة ميشيكو، وكلير، وصديقها كوي ليغاسبي.كان تفاؤل ليغاسبي وأريحيته يثيران أعصاب كارفر، مثل الرابطة المتناقضة بين مظهره الآسيوي ولقبه الذي منحه إياه والداه بالتبني.لعل الشاب كان يحسّ هذا، إذ كان يراعي شعوره طوال الرحلة، غير أن كارفر وجد اهتمام ليغاسبي به أمراً ثقيلاً ومحاولاته للمساعدة لا جدوى منها.

قبل زيارتهم للقبور الإمبراطورية في هذا الصباح على سبيل المثال، حاول ليغاسبي أن يبدي نوعاً من التعاطف مع كارفر بأن ذكر له كيف أن أباه كان مضطراً للمشي بمساعدة العصا.قال ليغاسبي:

«كانت حالته أسوأ من حالتك».

وقد أثار ذلك عصبية كارفر، فهو يتضمن تلميحاً إلى حادثٍ تعرض فيه إلى كسر في الورك قبل ثلاث سنوات، حيث سقط من السلم في منزله.والآن هو في الثامنة والستين من العمر وما

زال يعرج في المشي، ولكنه عقد العزم الآن على أن لا يدع ليغاسبي يتفوق عليه وهو يقودهم على ارض المقبرة التي كأنها القصر الصيفي، وسرادقها يطل على خندقٍ مليء بأزهار اللوتس.

قال ليغاسبي ردا على سؤال ميشيكو:

«ربما ارجع وانهي الدكتوراه.وربما لا.أتصور أن البحث المجرد بعد هذه المدة ليس كافياً.أريد تطبيق البحث عملياً».

كان يبدو رشيقاً في بنطلون الخاكي وقميص برتقالي براق يلبسه عادة لاعبو الكرة والصولجان، ويشبه إلى حدٍ ما طلبة كليات بودوين الذي كثيراً ما يراهم كارفر يتسكعون على الأرصفة كلما ذهب بالسيارة إلى البلدة.

«كم أحب رؤية الروبوت الذي تتكلم عنه يعمل بالتعاون مع النمس».

مررت ميشيكو يدها على حافة جدار تنمو عليه طحالبٌ عمرها ألف سنة، كأنه مطلي بالسواد بعد قرون من الزمن.مع ذلك لم يكن الماضي الإمبراطوري المهيب هنا يبدو بأي حال مشابهاً لقصر باكنغهام أو فرساي، التي رآها كارفر في رحلاته إلى أوروبا على متن طائرات شركة بان أميركان، ومع ذلك فالقبور لها سحرها الذي يشعرك بالكآبة.

قال ليغاسبي:

«ما رأيك في أن يكون الموعد بعد الغد؟ يمكنني أن أرتب استعراضاً».

«ما رأيك، بابا؟ ستكون جولة تعليمية»

رأى كارفر شيئاً كأنه قدم الغراب حول عيني كلير، وهي علامة ظهرت عليها منذ مغادرتها إلى فيتنام قبل سنتين، كانت في السادسة والعشرين من عمرها.

كان كارفر يكره مثل تلك الجولات التعليمية في العطلات، قال:

«كانت الرحلة إلى معابد انغكور وات تعليمية بامتياز.زرنا ذلك المتحف المرعب عن الحرب في سايغون.لا اشعر بأي رغبة لرؤية المزيد من مشاهد الرعب».

قالت كلير:

«سترى مستقبل عمليات إزالة الألغام.ليس الأشخاص الذين يزحفون على ركبهم ويحفرون لإزالة الألغام بأيديهم».

«هذا الروبوت سوف يحرم الناس من العمل، أليس كذلك؟»

قال ليغاسبي:

«ذلك ليس من الأعمال التي ينبغي للناس العاديين القيام بها، الروبوتات اخترعت لحماية الناس من الخطر والعبودية».

هنا تحفز كارفر أكثر فأجاب:

«قلت لنا إن وزارة الدفاع هي التي تموّل بحوثك الاستشارية في معهد ماساشوسيتش للتكنولوجيا.لماذا تعتقد أن وزارة الدفاع الأمريكية تهتم بهذه الروبوتات؟

قالت كلير:

«بابا».

هز ليغاسبي كتفيه استهجاناً وهو يقول:

«علينا الحصول على النقود من أي مكانٍ نجدها فيه، سيد كارفر.العالم ليس مكاناً نظيفاً».

«يا لها من مقولة شهيرة!»

قالت ميشيكو:

«جيمي».

«لا أريد التقليل من أهمية مجمع التصنيع العسكري».

قالت كلير:

«أتصور انك تعرف السبب».

«ما رأيكم بالتقاط صورة؟»

اقترح ليغاسبي ذلك.وتذمر كارفر وكان يتمتم بشيءٍ ما.كان يكره التقاط الصور، لكن ميشيكو تعشق توثيق كل مناسبة، مهمة كانت أم تافهة.وامتثل لرغبتها بأن وقف بينها وبين ابنته، وكان يحيط بهما تمثالان حجريان رماديان يحملان السيوف على الأكتاف.كان التمثالان أقصر من ميشيكو وكلير، وتصور كارفر أنهما بالحجم الطبيعي ويعودان إلى زمن هذا الإمبراطور الذي نسي

اسمه فجأة حين كان ليغاسبي يصوّب الكاميرا.هذا هو القبر الثالث الذي يزورونه على «نهر الريحان»، ومع ذلك انزعج كارفر بحيث لم يتذكر اسم الإمبراطور، الذي كان ليغاسبي قد ذكره أمامه مرات عديدة.

ربما يكون من نتائج التقدم في السن أن يصبح الإنسان أكثر غباءً، وتلك مسألة لم يستعد لها.مع تقدم السن من المفترض أن يتحلى المرء بالحكمة، لكنه لا يعرف شكل تلك الحكمة، بينما في حالة الذكاء الذي يعرف أنه من النشاطات الدائمة للوصلات العصبية، يتحول الدماغ إلى مدفع رشاش نوع غاتلنغ بست سبطانات.الآن كان عقله يطلق الأفكار عبر سبطانة واحدة أو سبطانتين.لم يكن ضعيف التفكير هكذا منذ ولادة كلير ووليم، إذا كانت احتياجاتهما الليلية تناديه وتوقظه من النوم.الآن ابنه في الثامنة والعشرين من عمره، وكارفر يعرف أن بداية حالة الانحدار الذهني التي يواجهها تعود إلى فترة تخرج وليم من أكاديمية القوة الجوية قبل ست سنوات، وهي من اللحظات المميزة النادرة التي شعر فيها بالفخر طوال حياته.أصبح وليم طياراً، لكنه لم يكن يشعر بالسعادة للتحليق بطائرة ك س 135، بينما كانت القاذفات والمقاتلات التي تزود بالوقود من الجو تجوب سماء العراق وأفغانستان.قال وليم ذات يوم على الهاتف أثناء آخر اتصال:

«هذا شيء يبعث على الملل، بابا، إنني مجرد سائق شاحنة».

فأجابه كارفر:

«ولماذا تهزأ من سائق الشاحنة؟ هذا عمل يستحق الفخر».

الشيء الأهم أن الطيران بناقلة وقود يعتبر آمناً، على العكس من عمل كارفر نفسه خلال سنوات خدمته حين كان يطير بقاذفة ب 52، التي تشبه حوتاً ازرق قبيح المنظر مع أنه كان يحبها وما زال يشتاق إليها كأنما يشعر بالجوع الدائم.أثناء رحلات مختلفة في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات كان ينطلق من غوام، اوكيناوا، وتايلاند، ويجد نفسه حراً رغم وجوده في مقصورةٍ ضيقة، يضع ثقته كلها في ماكينة عملاقة تحمل في رحمها ثلاثين طناً من القنابل والحديد، ومع ذلك فهي كيانٌ ضعيف معرض للخطر مثل نصف إله إغريقي.لقد اصطدمت قاذفتان تابعتان لجناح الطيران الذي ينتمي إليه إحداهما بالأخرى فوق بحر الصين الجنوبي، وفقدت أجساد الطواقم إلى الأبد، بينما تحولت طائرة ب 52 أخرى في قاعدته إلى شعلة من اللهب تشبه الصليب وهي تسقط ليلاً، بعد أن ضرب ذيلها صاروخ ارض جو، وأمضى الناجيان الوحيدان إجازة لمدة أربع سنوات في فندق هلتون هانوي.من الأفضل أن يشعر المرءُ بالأمان، أراد كارفر أن يقول هذا لوليم، لكنه لم يفعل.وليم سوف يسمع مجرد كذبة.باعتباره طياراً، يعرف أنه إذا كان لأبيه أن يبدأ حياته مرة أخرى فلن يتردد في الزحف عبر الممر الضيق لبدن طائرة ب 52، الذي يجعل المرء يرتعش من التوجس.

في صباح اليوم التالي استأجرت كلير عربة لتصطحب والديها في رحلة لمدة ساعتين إلى كوانغ تري، حيث من المفترض أن تُجرى تجارب ليغاسبي في إزالة الألغام.وحين دخلوا شقتها التي تستخدمها كأستوديو، استغرب كارفر من رؤية سرير مزدوج تحت شبكة الحماية من البعوض.كانت النافذة وشقوق أفقية ضيقة في أعلى الجدران توفر التهوية ويندفع الهواء من مروحة سقفية تدور ببطء كأنها دجاجة في يوم ممطر.وفي المطبخ فرنٌ غازي بشعلتين مسود من الحرارة على منضد، بينما الحمام يخلو من فسحة منفصلة للاستحمام، وأنبوب تصريف المياه على الأرضية قرب المرحاض.وفي أماكن أخرى رأوا ملصقات لفرق الروك ـ حمى الضنك، تاكسي الموت ـ تزين الجدران وألواح الخشب التي تعلق عليها كلير ملابسها.

كانت ميشيكو تحرك قبعتها لتجفيف العرق عن وجهها:

«ألم تجدي مكاناً أفضل يا عزيزي؟ ليس لديك حتى مكيف هواء».

«هذا المكان أفضل مما يتوفر لمعظم الناس.حتى إذا استطاعوا تحمّل النفقات ستعيش هنا عائلة كاملة».

قالت كلير:

«أنت لست منهم، أنت أمريكية».

«هذه مشكلة أحاول تجاوزها».

تذكر درساً من دروس معالجة المشكلات بين الأزواج أقنعته ميشيكو بتطبيقه، فراح يحسب الأرقام بأصابعه من عشرة نزولاً.وكانت كلير تراقبه وتضع ذراعيها على صدرها، ووجهها مسترخٍ كما كانت تفعل حين يصفعها في أيام الطفولة، أو يصرخ بها في سنوات المراهقة حين تتجاوز الحدود التي يضعها.

قالت ميشيكو:

«كفى، أنتما معاً، الناس دائماً يتصرفون بغرابة إذا لم يشربوا القهوة، أليس كذلك؟»

كانت شقة كلير فوق أحد المقاهي.وتعوّد كارفر أن يحتسي القهوة السوداء بالثلج على طاولة الرصيف، يجلس على كرسي بلاستيكي ويراقب ميشيكو تصرف خمسة دولارات لتشتري بطاقات بريدية وقداحات من أربعة أطفال حفاة، بشرتهم سوداء كأنها الليل، جاءوا إليهما مسرعين في اللحظة التي جلسا فيها.بعد أن باعوا بضاعتهم تراجع أربعة منهم بضعة أقدام ووقفوا جانباً يديرون ظهورهم إلى صفٍ من الدراجات البخارية المركونة، يتضاحكون ويحدقون.

قال كارفر:

«لم يشاهدوا سائحين من قبل؟»

فتحت كلير علبة سجائر وأشعلت إحداها:

«ليسوا مثلنا.نحن جماعة مختلطة الأعراق».

قالت ميشيكو:

«لا يعرفون من نكون؟»

«أنا معتادة على هذا، لكن ليس انتم».

«تخيلي زوجة يابانية في قاعدة مشيغان الجوية سنة 1973».

قالت كلير:

«رائع!»

قال كارفر:

«أو تخيلي رجلاً اسود في اليابان، أو في تايلاند».

قالت كلير:

«يمكنك دائماً الرجوع إلى الوطن، هناك مكانٌ لك.لكن لا مكان لي».

قالت ذلك بديهياً، من غير تلك الميلودراما التي رافقتها خلال مراهقتها، حين كانت تأتي إلى المنزل من المدرسة تبكي من إهانة تلقتها من زميلٍ أو غريب، اتهامات لا تتغير على طول خط «من تكونين؟» وكانت دموعها تؤلم كارفر، تجعله يشعر بالذنب لأنه أتى بها إلى عالم يريد أن يضع كل شخص في مكانه المناسب.كان يريد العثور على المذنب الذي الحق الأذى بابنته ورسخ ذلك الإحساس في رأس الطفلة، لكنه كبح نفسه، كما يفعل كلما واجه نظرة في عيون الناس تقول «ما الذي تفعله هنا؟» في المكتبة التي من غرفةٍ واحدة في البلدة الصغيرة على بعد خمسة أميال من القرية التي يسكنها؛ في بلدة بين ستيت التي ذهب إليها في بعثة دراسية للضباط الاحتياط؛ وفي مدرسة الطيران في قاعدة راندولف الجوية؛ في بدلة الطيارين النظامية؛ في طائرته ب 52؛ ولاحقاً طائرة بوينغ التابعة للخطوط الجوية، لم يحس أنه في المكان الذي ينتمي إليه.وقد نجح في حياته

بالتركيز على هدفه، ارتقى درجات السلم شيئاً فشيئاً، رفض نظرات الاحتقار والريبة في عيون من يحيطون به.

لكنه الآن تقاعد، ويخرج زاحفاً ببطء من العقد السادس من عمره، لم يعد يعرف هدفه.كان يحسد كلير على إحساسها بالمهمة التي تقوم بها، تدريس الانكليزية إلى أبناء الفقراء من الفلاحين الملوثين بالوحل، جلودهم سمراء متشققة مثل التربة التي يحرثونها، الأرض الجافة في أشهر الصيف القمعية.كانت تبدي ثقة عجيبة بالنفس تجعله يشعر بالغبطة وهو يراقبها تستأجر تاكسي، أو تعطي توجيهات بالفيتنامية إلى معلمة اللغة الإنكليزية، وترحب بالطلاب في الباحة تحت ظلال أشجار تلفحها أشعة الشمس.حين أشارت كلير إلى كارفر وميشيكو وهي تقول شيئاً باللغة المحلية رحب الطلاب بهما بكلمات انكليزية فصيحة:

«مرحباً!..كيف حالكما!..صباح الخير، سيد وسيدة كارفر!»

ابتسم كارفر لهم وحرك يده رداً على تحيتهم.ربما لا يفيدك الابتسام لأقاربك، لكن الابتسام للغرباء أحياناً يكون مفيداً.

على بعد بضعة أبواب عن الباحة يقع الصف الذي تدرّسه كلير، طاولتها الخشبية تواجه صفوفاً من طاولات قصيرة ومنصات.كانت لطخات بيضاء وسوداء مثل حب الشباب تلطخ الجدران، والطلاء الأصفر تقشّر واختفى في أماكن كثيرة.على السبورة السوداء خلف المكتب كتب احدهم ـ لا بد أنها كلارا ـ عبارة «المبني للمجهول» بحروف كبيرة غامقة.وفي الأسفل كتبت «دراجتي سُرقت» و «الأخطاء تُرتكب».

قالت ميشيكو:

«كم عدد طلابك، عزيزتي؟»

«أربعة صفوف في كل صفٍ ثلاثون طالباً».

قال كارفر:

«إنه عدد كبير جداً، لا يدفعون لك ما يكفي مقابل ذلك».

«إنهم يريدون أن يتعلموا.وأنا أريد أن أعلمهم».

لمس كارفر بأصابع قدميه طرف بلاطة تتحرك على الأرضية:

«لذلك تبقين هنا منذ سنتين، إلى متى تنوين البقاء في التدريس؟»

«إلى اجلٍ غير مسمى».

«ماذا تقصدين، إلى اجلٍ غير مسمى؟»

«أحب العمل هنا، بابا».

قال كارفر:

«تحبين العمل هنا، انظري إلى هذا المكان».

نظرت كلير عن قصد إلى غرفة الصف وقالت:

«إنني انظر».

قالت أمها:

«ما يعنيه أبوك أننا نريدك أن ترجعي إلى الوطن لأننا نحبك».

قال كارفر:

«هذا ما أعنيه».

«أنا في الوطن، ماما.ربما يبدو هذا غريباً، لا اعرف كيف اشرح الأمر، اشعر كأن هذا هو المكان الذي ينبغي لي أن أكون فيه.لدي روح فيتنامية».

صرخ كارفر:

«هذا أغبى شيء سمعته في حياتي».

قالت كلير بصوت منخفض:

«ليس شيئاً غبياً، لا تقل ذلك.أنت دائماً تقول ذلك لي».

«أعطني ثلاث مرات قلت فيها ذلك».

مدت كلير ثلاثة أصابع من يدها اليمنى وبدأت ببطء تثني كل إصبع في راحتها وهي تحصي عدد المرات، وانتهى بها الأمر إلى قبضةٍ مكورة.قالت:

«حين تركتُ بلدة مين لالتحاق في الكلية، وحين تفوقت في دراساتي عن المرأة.وحين أخبرتك بأنني سأذهب إلى فيتنام للعمل في التدريس.تلك الحالات هي الأقرب إلى ذهني».

«لكن تلك أشياء غبية فعلاً».

ضربت كلير قبضتها على جبهتها وهي تقول:

«أوه، يا الهي، يا الهي، يا الهي.لماذا أتصور أحياناً انك يمكن أن تغير أفكارك؟»

تمتم كارفر:

«بحق المسيح».

صوتها الهامس جذب انتباهه إلى الباب، حيث تجمع بعض الطلاب.مسحت كلير الدموع عن عينيها وقالت:

«انظر! الآن جعلتني في موقف محرج أمامهم».

قال كارفر:

«موقف محرج؟ تتصورين حقاً انك واحدة منهم».

أعطت ميشيكو منديلاً لابنتها:

«اخرس، جيمس.اعتقد أننا أمضينا ما يكفي من الوقت في الحديث عن الأمور العائلية، أليس كذلك؟»

بينما رافقت كلير ابنتها في جولة لشراء الأقمشة المحلية، اضطر كارفر لأن يسلي نفسه بشيء آخر، وهي مشكلة حقاً فلا يوجد شيء مميز تقدمه كوانغ تراي للزائر الأجنبي غير قربها من الإقليم القديم المنزوع السلاح.إنها مجرد بلدة صغيرة على الحدود نالت نصيبها من الدمار أثناء الحرب، وكما تذكر جميع التقارير، لا توجد أشياء كثيرة يمكن أن يراها المرء هنا حتى قبل دمارها.أمضى كارفر الوقت جالساً في حانة على الرصيف يراقب بعض الأولاد الذين يلعبون كرة القدم على رقعة معشوشبة.خلال الوقت الذي هبت فيه رياح السموم ظهراً كان قد شرب ما يكفي من البيرة ليتذكر أن شيئاً لم يتغير منذ أن شرب نفس البيرة في تايلاند قبل ثلاثين سنة.إذا كنت تنوي قصف بلدٍ ما، كما قال له زميله في الغرفة في قاعدة يوتاباو الجوية، عليك أن تشرب بيرتها على الأقل.كانت البيرة آنذاك عديمة المذاق مثلما هي الآن.وبينما كانت رشقات المطر ترتطم بالرصيف طلب زجاجة شراب هيو بدل البيرة.وكان يراقب الماء يتدفق كالشلال عبر البالوعات فأحس اشتياقاً

إلى كوخه الخشبي على ساحل بيسن كوف، وتخيل الخريف يهز صولجانه الممسوخ على رؤوس الأشجار في الغابة الخضراء.ذلك العالم القرمزي والذهبي كان يتراجع أكثر فأكثر وينحسر في ذهنه.وانتبه إلى بائعةٍ في السوق قرب الحانة ترفع صوت الراديو.رغم دمدمة المطر التي لا تهدأ، سمع صوت غناء عالي النبرة يرافقه على ما يبدو عزفٌ على آلة الزيلوفون الخشبية، تلك الموسيقى محملة بالأسى، ربما كان وحده الذي يسمع النحيب، بينما ليس هناك نحيب.

كان موقع إزالة الألغام الذي أرادوا الذهاب إليه عصر اليوم التالي يبعد نصف ساعة عن فندقهم في كوانغ تراي، خارج ضواحي المدينة.لقد وعدهم ليغاسبي أن يأتيهم بسيارة بوفالو بيضاء، وحين سأله كارفر عما إذا كان يقصد أن يأتي بجاموس ابيض غمز ليغاسبي وقال، «سوف ترى».ثم تبين أن الجاموس الأبيض هو مجرد تويوتا لاند كروز بيضاء مرقطة بالصدأ، وعداد المسافات فيها يقرأ 300 ألف كيلومتر.

قال ليغاسبي من مقعد السائق:

«المحليون هنا يسمون هذه السيارة بالجاموس الأبيض لأنها مفيدة مثل الجاموس الأبيض، وكذلك الأجانب والمنظمات غير الحكومية والأمم المتحدة يحبون هذا النوع من السيارات».

قال كارفر:

«يبدو أنهم يتبرعون بالأموال جيداً، كل أنواع الفطائر والكعك وسيارات ذات الدفع الرباعي التي يمكن شراؤها».

«يتبرعون بسخاء، سيد كارفر».

كانت ميشيكو وكلير تجلسان على المقعد الخلفي، وكارفر في المقدمة، يتابع الطريق على أطراف كوانغ تراي حيث تنتشر المنازل من طابق وطابقين مبنية من ألواح خشبية باهتة أو علب الصفيح، وأكواخ صغيرة طليت مؤخراً تتدرج في الارتفاع وتشكل قرى بدائية، في صفوف طويلة ضيقة.وبين فترة وفترة تلوح مقبرة أو معبد، بتصاميم معمارية مثيرة تكثر فيها حيوانات خرافية مثل التنين، مع كنيستين، جدرانهما مطلية بالبياض.

كانت الحقول المنبسطة وراء المنازل في الغالب تخلو من الأشجار الوارفة الظلال، وبعض الأماكن مزروعة بالرز وأخرى مخصصة لمحاصيل لا يعرفها كارفر، يغلب عليها اخضرار كالح من كثرة الطحالب، وأي مظاهر للأرياف غير واضحة في أي مكان مثل الأعشاب المخضرة في تايلاند التي كان كارفر يراها من مقصورته على طائرة ب 52 وهي تصعد فوق مسطحات ياه ثيل ساب سونغكلا، متجهاً إلى المدن المعادية في الشمال أو إلى هضاب جارس.هناك

دائماً سبب يجعله يحب الطيران.كل شيء تقريباً يبدو أكثر جمالاً من الأعلى، والأرض تكون أكثر استدارة حين يرتفع ويقترب من رؤية العالم من منظورٍ صوفي، الأكواخ والقصور التي شيدها الإنسان يختلط بعضها مع بعض وتختفي، وقمم الجبال والوديان تتحول إلى ضربات فرشاة على الفضاء.لكنك إذا نظرت عن قرب، من ذلك الارتفاع، تبدو الأرياف الفقيرة أكثر فقراً، فلا ترى منظراً خلاباً أو رعوياً: مجرد أكواخ سقوفها من القصدير أرضيتها قذرة، ترى رجلاً ينزل سرواله ليتبول على جدار، وعمالاً حفاة يدفعون عربات يدوية مليئة بالحجارة.حين انزل كارفر زجاج السيارة اكتشف رائحة الأرياف التي لا تطاق، فالهواء ثقيلٌ مشبع بالدخان الأسود للشاحنات العابرة، وعفونة فضلات الجواميس، والطعام الفاسد في المطابخ، وجد كل شيء مثيراً للغثيان.كل تلك المناظر، والأصوات، والروائح، جعلته يشعر بالاكتئاب، إلى جانب صمت كلير وميشيكو، ذلك الصمت الذي لم يتبدد منذ يوم أمس.

كان ليغاسبي وحده منتبهاً، يسمع أغنية (خطوات عملاقة) على الراديو، لا شك أن كلير هي التي أبلغته عن شغف والدها بأغاني البوب، وكيف تنتقل الموسيقى مباشرة من قناته السمعية إلى تيار دمه.من بين كل الأراضي التي زارها كارفر كان يحب فرنسا واليابان بسبب إعجاب الناس الجنوني بالجاز، ذلك الإعجاب الذي انتقل إليه كالعدوى لاحقاً.كان يرى أن من الأقدار العجيبة أن يتعرف على ميشيكو في إحدى حانات روبونغي، وكانت آنذاك شابة تعمل نادلة وهو أكبر منها بعقدٍ من الزمن، فحضر معها حفل فرقة روك أند رول من اوكيناوا، وانبهر بمنظر الموسيقيين اليابانيين بقبعاتهم وبدلاتهم ذات الألوان المبهرجة.

«كيف قضيت ليلتك، سيد كارفر؟»

بدا مستغرباً لأن يسأله احدٌ عن أحواله:

«كانت سيئة.بقيت أتقلب على الفراش».

«هل رأيت الكوابيس في منامك؟»

تردد كارفر قليلاً، ثم قال:

«كنت قلقاً ومشوش الذهن بعض الشيء، هذا كل ما في الأمر».

لم يسأله احدٌ من قبل عما يراه في المنام، فلم يقل شيئاً.ثم وصلت بهم السيارة إلى الموقع بعد عشر دقائق، على بعد نصف كيلومتر عن الطريق الرئيسي الذي يبدو مسوداً في أعاليه، وساروا على طريق ترابي متجهين إلى منزلٍ صغير وثلاثة أكواخ على حافة ارض جرداء تحيط بها الأسلاك الشائكة.ومع تسلق السيارة شاهدوا صبيين يتأرجحان بين شجرتين.وقد نسي كارفر اسميهما

بعد تقديمهما إليه مباشرة.كانا يلبسان قمصاناً فضفاضة غريبة، احدهما عليه شعار فريق هوكي الجليد «ادمونتون اويلرز»، والآخر يحمل صورة المغني الكندي براين آدمز لسنة 1987.كانت الذراع البديلة للصبي الطويل مربوطة بالجزء البشري عند المرفق، بينما الساق البديلة للآخر تمتد إلى منتصف الفخذ.كارفر لقب الصبي الطويل توم والقصير جيري، نفس الأسماء التي أعطاها إلى صبيين يعملان في الخدمة، هو ورفيقه في السكن أثناء عمله في مطار يوتاباو الدولي، وهو طيار سويدي الأصل من منيسوتا، إلى صبيان المنزل.

قال ليغاسبي مفسراً:

«لقد فقدا أطرافهما أثناء اللعب بالقنابل العنقودية حين كانا صغيرين».

ابتسم توم وجيري بخجل، وكانت أطرافهما الاصطناعية تبدو كأنها مأخوذة من الدمى البلاستيكية التي تُعرض عليها الأزياء، لونها يشبه القهوة بالحليب ولا تكاد تمتّ بصلة إلى بشرتهم الداكنة كالشوكولاته.لم يستغرب كارفر من لون هذه الأطراف القابلة للانفصال فقط، ولكنه استغرب أيضاً من خلوها من الشعر.

«إنهما يحرسان الموقع ويعتنيان بالنمس».

قالت ميشيكو:

«ولماذا النمس؟»

«النمس حتماً، سيدة كارفر».

النمس الذي جاء به توم من أحد الأكواخ كان يسمى ريكي، بحجم السنوريات ومغطى بالفرو الكثيف ورأسه كالإسفين بحيث يشبه جرذاً كبيراً.

قال ليغاسبي:

«نستعين هنا بالنمس لأنه حيوان خفيف الوزن فلا يتعثر بالألغام، وإحساسه بالرائحة قوي بما يكفي لاكتشاف المتفجرات».

كان جيري يحمل زوجاً من الروبوتات التي احضرها من كوخٍ آخر.لم تكن تلك الروبوتات تشبه بأي حالٍ المكائن التي تصنع من الفولاذ الأملس الذي لا يصدأ، كما توقع كارفر، بل تبدو مثل ماكينات خلط الحليب من القصدير مربوط بعضها إلى بعض بالأنابيب، كل خلاطٍ فيه سيقانٌ ذات شكل أنبوب مطاطي.كان زوج الروبوتات مربوطين جنباً إلى جنب مثل خيول العربات، تحيط بهما

من الأمام والخلف قضبانٌ وأسلاك معدنية.وقد ربط السلك الأمامي بقرصٍ ازرق بحجم كرة مطاطية صغيرة، بينما ربط روكي بقرص آخر على صدرية من المطاط، وكانت منظومة «الروبوت والنمس» كلها لا تزيد عن مترٍ ونصف في العرض.

كان ليغاسبي يمسك صندوقاً اسود بحجم راحة اليد من النوع الذي يستخدمه وليم في التحكم بنماذج الطائرات الصغيرة.قال:

«إنني أوجهها بجهاز التحكم هذا.ريكي يبحث عن الألغام بحاسة الشم.والقرص الأزرق حساسٌ جداً، وحين يكتشف الروبوت شيئاً على الطريق، يوجه ريكي إلى مكان بعيد عن العائق.وإذا شم ريكي لغماً، وهذا ما يستطيع القيام به من مسافة ثلاثة أمتار، يقف في مكانه».

قالت ميشيكو باستغراب:

«يا له من انجازٍ عبقري!»

«الشركة قامت بتطويره لإزالة الألغام في سريلانكا.لكننا نجري التجارب هنا على الروبوت والنمس».

قال كارفر:

«وما الذي تختبرونه الآن؟»

«السيقان.من الصعوبة تقليد حركات البشر أو حركة سيقان الحيوانات، وبخاصة على تضاريس خشنة.إذا كان لديك روبوت يكنس غرفة الجلوس أو يصعد درجات السلم فالأمر مختلف إذا تعامل مع الرمل، أو العشب، أو الصخور، أو أي شيء غير متوقع يعرفُ الطفل الذي في السنة الخامسة كيف يتعامل معه».

كان الحقلُ مزروعاً بألغام أرضية معطلة.على حافات الحقل كان ليغاسبي يوجه الروبوت وفريق النمس من تحت خيمة، حيث تقف كلير، وميشيكو، وكارفر أيضاً.كان توم وجيري يتبعان النمس وهو يمشي متعثراً على التضاريس، توم يحمل جهاز تعقب معدني مربوط بشريط إلى ظهره، وجيري يشير بأعلام حمراء.كلما وقف ريكي على قائمتيه الخلفيتين، تقدم توم بجهاز التعقب لتأكيد وجود اللغم الأرضي، وجيري يؤشر الموقع بعلمٍ احمر.

كان قميص ليغاسبي ملوثاً بالعرق، فالهواء مشبّع بالرطوبة رغم أن السماء ملبدة بالغيوم.قال:

«الفريق البشري يحتاج إلى شهور لتنظيف هذه المنطقة.كنا نستطيع أن نجرف المنطقة بالآليات، لكن ذلك سوف يمزق سطح التربة ويدمرها فلا تصلح للزراعة.يمكننا هنا إكمال إزالة الألغام خلال أسبوعين مقابل نسبة ضئيلة من التكاليف».

كان كارفر يراقب ليغاسبي وكلير بينما يدور بينهما نقاشٌ حول دراسات الكلفة، وتحسين خصوبة التربة، والالتزامات الأخلاقية، والاستعانة بالخبرات المحلية، وما إلى ذلك.الانبهار في عيني كلير وهي تراقب ليغاسبي كان نفسه في عيني ميشيكو حين اخبرها كارفر لدى أول موعدٍ لهما بأن ينطلقا بالسيارة من ستيت كوليدج إلى نيويورك للحاق بحفلة مغني الجاز ثيلونيوس مونك في صالة فايف سبوت في سانت مارك بلاس، حيث وقف قريباً من المنصة بما يكفي ليرى مونك تنعكس عليه أقمارٌ صفراء وهو ينزلقُ متمايلاً على منصة العاج الأبيض.لقد صُقلت كفاءته بما يكفي ليثير إعجاب ميشيكو.ونفس الشيء يحصل مع ليغاسبي، الذي كان يستعير أفكار شخصٍ آخر، بما يكفي لإثارة إعجاب كلير.

كانت نظرات ليغاسبي مترددة، وجلة، ضعيفة، تنمّ عن عدم استعداده لمواجهة حقيقة واضحة، أن تلك القبضة الحديدية ذات قدرة لا يمكن التصدي لها.كان كارفر مستغرباً من سذاجة ليغاسبي.

«هل تعرف مع من تتعامل الآن؟ هل فكرت يوماً بما يمكن أن تفعله وزارة الدفاع الأمريكية بهذه الروبوتات؟ أي شخصٍ ذكي في الجامعة يعمل ضمن عقد دفاعي سوف يبتكر طريقة ليضع لغماً أرضياً على ظهر هذا الروبوت.ثم يرسله البنتاغون إلى نفقٍ يختفي فيه الإرهابيون».

«هذا ما تفعله أنت بابا.لا تتصور أن الجميع مثلك».

قال ليغاسبي:

«لا بأس، لا بأس، سمعتُ هذه الاتهامات من قبل».

قالت كلير:

«لا تقل لا بأس، إنه غاضبٌ أو يشعر بالمرارة لأنه بكلامه على كل شخص يلتقي به».

«لستُ غاضباً ولا اشعر بالمرارة.لماذا اغضب منه؟ ما الذي يشعرني بالمرارة؟ أن يلقي علي محاضرة شابٌ يعتقد أنه سوف ينقذ العالم بمجرد روبوت مصنوع من الصفيح؟ أو أن ابنتي تشعر بأنها فيتنامية؟»

«قلتُ إن روحي فيتنامية.ذلك تعبير في الكلام.مجرد تعبير.يعني اعتقادي أنني عثرت على المكان الذي يمكنني فيه تقديم عملٍ خيري للتعويض عما فعلته أنت».

«فعلته أنا؟ وماذا فعلت؟»

«قصفت هذه الأماكن.هل فكرت يوماً بعدد الناس الذين قتلتهم؟ الآلاف منهم؟ بل عشرات الآلاف؟»

«لست مضطراً لأن اسمع كل هذا؟»

«أنت لم تسمع هذا الكلام من أي شخص من قبل».

«أنت لا تفهمين شيئاً.أردنا حمايتك من الأخطار التي كانت تواجهنا.أليس هذا صحيحاً؟»

استدار كارفر إلى ميشيكو لتسانده، لكنها كانت تلقي نظرة على أجمة محترقة من أشجار النخيل على الطرف البعيد من حقل الألغام التجريبي.وعاد ليغاسبي إلى توجيه ريكي، بينما كانت كلير تثني ذراعيها على صدرها وتشجعه على المضي إلى الأمام، كما كان يشجعها أبوها وهي طفلة في السادسة، وكانت تبكي وتصرخ مطالبة بدمية باربي شقراء في المتجر.«يمكنك الجلوس هنا والبكاء حتى تجف دموعك، أيتها الفتاة».وكانت تجلس في الممر وهي محملة بكل الحزن الذي يحسّه إنسانٌ يوشك أن يموت.وكان يخرج من المتجر ويتركها، كما يفعل الآن وهو محبط فلا اختيار لديه سوى أن يمشي.

ثم عصفت رياح السموم بالمكان بعد خمس عشرة دقيقة، حين أصبح كارفر على بعد بضعة مئات من الأمتار عن الموقع، وكان ذلك أفضل ما استطاع القيام به على درب مليء بالحفر.الغضب والإشفاق على الذات كانا يحفزان كل خطوة يخطوها.لم يوضّح لابنته مدى صعوبة عمليات القصف ودقتها في تلك الأيام، فهي تصيب الهدف من مسافة أربعين ألف قدم ومنها أهداف صغيرة جداً مثل ملاعب كرة القدم، أو كرات الغولف أو كوب قهوة تحت سقف المنزل.أطنان من القنابل أسقطتها طائرته ب 52 بعد انفتاح مخازنها الخلفية، لذلك لم ير الانفجارات التي كانت تتركها بل لم يرها وهي تسقط، مع أنه كان يرى طائرات أخرى في سربه تنثر البذور السوداء التي تتمايل مع الريح، مما جعله يتخيل ما الذي يمكن رؤيته لاحقاً في الأفلام، القنابل التي تتفجر، والبصمات التي تتركها أقدام عملاقٍ غير مرئي تنبش الأرض.

لم يكن ذهن كلير يستوعب الحاجة إلى مداهمة العدو من علوٍ شاهق لإنقاذ حياة ملايين المواطنين الأمريكان الذين في الأسفل، ناهيك عن استيعاب إيمانه القوي بأن العناية الإلهية كانت معه كمساعد طيار، فهي على النقيض منه تماماً، تدعم جهود منظمة العفو الدولية وتخرج في

مظاهرات المدارس الثانوية التي تعارض هجمات عاصفة الصحراء، كأنما احتجاجاتهم تشكل أي فارق يذكر.إذا فهمت ابنته شيئاً فأي مساعدة تقدمها سوف تكون من نصيب الأعداء.رغم أنها تتعاطف مع شرائح واسعةٍ من الناس الذين لم تلتق بهم، غرباء يعتبرونها غريبة وربما قتلوها بلا تردد إذا سنحت لهم الفرصة، لكنها لا تتعاطف معه.

الإحساس بالظلم كان يشغل ذهن كارفر إلى درجة أنه لم يلاحظ الزحف السريع للغيوم الرعدية التي كانت تتجمع في السماء.خلال بضع ثوان تساقطت قطراتٌ من المطر الخفيف وارتطمت بجبهته.وسرعان ما جاء الطوفان.ولطّخ المطر ثيابه وجعلها تلتصق بجسمه، وانزلق الماءُ على ياقته وانغمس في جزمته.ثم توقف عن المشي، غير واثق إن كان عليه الاستمرار على الدرب الموحل أم يرجع إلى موقع إزالة الألغام.كان الممر الترابي الآن خليطاً من زبدة الجوز، وغطست قدماه في الوحل شيئاً فشيئاً مع استمرار العاصفة المطرية.لهذا السبب تحديداً كان يرفض المجيء إلى هذا البلد، إنها ارضٌ كل شيءٍ فيها ينذر بالشؤم حتى إنه لم يحب شيئاً غير الطيران في سمائها.لكن كلير هي التي أرجعته رغم أنفه إلى هذه الأرض الموحلة الحمراء، ولم يشأ أن يهرول أو يطلب المساعدة، لو استطاع ذلك.تقدم متعثراً، لا يرى أي كائن بشري أو حيوان، الحقول الخضراء الكئيبة تحيط به من كل جانب.في منتصف الظهيرة كان ضوء كالغسق يختلط بالغيوم والعاصفة.

من مسافة بعيدة خلفه، سمع صوت سيارة.أحنى رأسه وبقي يمشي، كان المطر كثيفاً إلى درجة أنه خاف أن يغرق إذا رفع رأسه ونظر إلى السماء.ثم سمع محرك السيارة القديمة يقترب، كأنه قطة تختنق وقد بلعت كرة من الشعر.مع الأشعة العالية التي تتشتت على قطرات المطر، قرر أنه بدل أن يتجاهلهم، عليه أن يرفع رأسه متحدياً.توقف واستدار، لكنه على نحو ما أساء تقدير هذه الخطوة البسيطة، علقت قدمه اليمنى بالوحل الملتصق بكاحله.كانت الأشعة تصيبه بالعمى، تقدم خطوة أخرى، هذه المرة بقدمه اليسرى، فنزلت أطراف أصابعه عميقاً في الوحل، وانحشرت الساق إلى الركبة وجسمه ينحني للأمام نحو ممر السيارة.كان الوحل لزجاً بارداً على بطنه ووجهه، رائحته ومذاقه يثيران ذكريات طفولته البعيدة، إذ كان غالباً ما يستلقي على الأرض ويلعب دور الجندي.

ساعده ليغاسبي على النهوض وقاده إلى السيارة بينما كانت كلير تضع المظلة فوق رأسيهما.

وضعوه في المقعد الخلفي، وكان يرتعش، وميشيكو تمسح بالوشاح الحريري الذي أحضرته معها يوم أمس التراب عن عينيه ووجهه.قالت:

«تصورنا انك ذهبت لتجلس في السيارة، جيمي.ما الذي حصل لك؟»

وتحركت السيارة إلى أعلى الطريق..هنا عطس كارفر وهو يقول:

«إنني في الثامنة والستين من عمري، اللعنة.إنني مجرد عجوز لكني لست ميتاً».

«أنت في التاسعة والستين».

كان على وشك أن يجادلها وهي تزيل الوحل الذي حول أذنيه، لكنه أدرك أن ميشيكو على حق.سنوات حياته تتملص منه، والزمن وحشٌ لا يرحم يعبث بذكرياته ويبعثرها بعد أن كانت متماسكة.على المرآة الخلفية رأى ليغاسبي ينظر إليه، وحين تكلم معه جاء صوته خشناً:

«إلى أين تتصور أنك تذهب، سيد كارفر؟ لا تعرف حتى أين أنت».

فتح ليغاسبي الراديو فسمعوا أغنية (خطوات عملاقة) مرة أخرى.

في المساء أصيب كارفر بالحمى.الحلم الذي لم يذكر تفاصيله إلى ليغاسبي عاد فرآه في المستشفى، حيث كان يستلقي على ظهره في شبه غيبوبة، ويفتح عينيه من حين إلى حين ليتلقط المشهد من حوله فيرى المرضى على أسرةٍ أخرى، شعرهم بني، كبار السن، يرعاهم بعض الأقارب الذين يثرثرون بأصوات مزعجة، يحملون معهم الصحون وأشياء أخرى ملفوفة بالمناشف.شمّ روائح عصيدة الرز، والأدوية المرة، ورائحة عجائز كأنهن القطط المبللة.حين غطست قدماه في الوحل كانت الصور ترفرف أمام عينيه كالطيور أو كأنها إعلانات ضوئية تعصف بها أمواج المحيط.الصور الوحيدة التي تذكرها لاحقاً كانت تتجلى في الأحلام، حيث وجد نفسه يسافر على متن طائرة تجارية كل شيء فيها مظلم، والمسافرون نائمون ونوافذها الدائرية مغلقة.لسببٍ ما عرف أن لا احد يقود الطائرة، نهض واخذ يمشي للأمام، هنا يتطلب الأمر كل مهاراته.عشرات الركاب الآسيويين يغمضون عيونهم، بينهم أطفال شوارع وطلاب كلير وتوم وجيري.كان المشرف على الرحلة، وهو دليلهم السياحي من انغكور وات، مربوطاً إلى كرسي القذف في المقصورة، وكان يشير إلى ممر محاط من الجانبين بتماثيل آلهة مقطوعة الرؤوس.قال بنبرة اتهامٍ مبطن: «الأجانب اخذوا الرؤوس».استولى الذعر على كارفر، ولكنه حين فتح باب المقصورة رأى كل النوافذ تطل على سماءٍ مظلمة بلا نجوم، ومقعد الطيار الفارغ ينتظره.

«بابا».

كانت كلير تنحني على سريره في الغرفة المظلمة..

«بابا، هل قلت شيئا؟»

«عطشان».

فتحت زجاجة وسكبت قليلاً من الماء في كوب، وقربته من شفتيه بإحدى يديها بينما كانت تدير رأسه باليد الأخرى.شرب بتلهف وتساقطت قطرات الماء من شفتيه على ثيابه.أنزلت كلير رأسه على الوسادة ثم مسحت ذقنه بمنديل..

«ميشيكو؟»

قالت كلير بصوت رخيم:

«إنها في الفندق، كانت تأتي كل يوم، لكنها لا تستطيع البقاء هنا في الليل.الأرضية صلبة جداً ولا يمكنها أن تنام عليها».

«منذ متى؟»

تنهدت كلير:

«ثلاثة أيام.أصابتك حمى شديدة.أنت تعاني من التهاب رئوي.عليك أن ترتاح، هل يرضيك هذا؟ كم أنت عنيد.لماذا كنت تمشي وحدك؟»

تقلّب من وضعٍ إلى آخر على الفراش، حيث كانت كتلة من الرغوة تضغط على ظهره.

«هل صرتُ عجوزاً مخرفاً؟»

«هذا صحيح».

«كلير».

«نعم؟»

«أريد الذهاب إلى الحمام».

وضع ذراعيه حول رقبتها وهي تقوده لينهض من السرير.شمّت رائحة كأنها الشامبو الحامض، مع عدم وجود عطر لإخفاء العرق.جلس على السرير ووضع قدميه على الأرض وهو يلف ذراعه حول رقبتها ويتركها تسحبه حتى وقف أخيراً.كانت كلير بالحجم المناسب لينحني عليها، رأسها يرتفع قليلاً فوق كتفه، وذراعه تنزل بارتياح على ظهرها.أزاحت حصيرة خيزران على الأرضية وناورت على الممر الضيق بين سريره والسرير المجاور.قالت كلير وهي تحاول تخطي جسمٍ ممدد على الأرضية يلتف ببطانية، والرأس مخفي فلا تعرف إن كان رجلاً أم امرأة:

«كن حذراً، بابا، سوف تكون على ما يرام.أنت فقط تحتاج إلى الراحة».

ما أرادت قوله لكنها لم تقله أن لا يخاف.لن يموت هنا.لكنه خائف أكثر مما توقع.قبل ولادة ميشيكو والأطفال كان يعتقد بأنه سيموت على طائرة أو تحت عجلات شاحنة مسرعة، أي شيء سريع جداً مع توقف مفاجئ.الآن يعرف أنه ربما يموت من الخوف الكامن بداخله، في مكانٍ ليس من المفترض أن يكون فيه، على الجانب الآخر من العالم.تشبث بكلير بقوة وهي تمسكه من خصره، تناور به بين النائمين على الأرض عند طرف السرير وقرب الباب.تخطى احد النائمين على الأرض ورأى القدم، رفعت امرأة ذات شعر قصير مجعد رأسها وصاحت بالفيتنامية:

«ألا تكون أكثر حذراً؟»

عندها قالت كلير:

«اعتذر منك!»

لا بد أن المرأة من أقارب أحد المرضى، أو لعلها مريضة أيضاً.ولا بد أن كلير كانت نائمة على حصيرة الخيزران قرب سريره.هذا النوع من الإدراك كان يخترق ضباب الغيبوبة والخوف، ويتجلى في إحساسٍ قوي بالحب لابنته إلى درجة أنه يؤلمه.تذكرها في طفولتها، حين كانت ميشيكو تصر على أن تضعها بينهما على السرير، وكان يخاف أن ينقلب عليها أثناء النوم فيبقى مستيقظاً قلقاً حتى يزول مصدر القلق، أو ينزل إلى الأرضية وينام على السجادة.بعد سنوات قليلة، بدأت كلير تمشي وتسقط أو تزحف لكنها بقيت تنام معهما، في أكثر الأحيان على صدره، وحين تفتح إحدى عينيها وتغمض الأخرى فذلك يعني أنها تطلب أن تؤخذ إلى الحمام.المشي وحده في الظلام إلى الصالة كان مخيفاً.وكان يتنهد، وينهض، ويقودها ببطء، خطوة حذرة بعد أخرى، ويدها تمسك أحد أصابعه.

قالت كلير:

«بابا، «بابا، هل أنت تبكي؟»

كان بابُ الحمّام مستطيلاً اخضر تحت زرقة القمر أمامهما.قال:

«لا، يا ابنتي، لست ابكي».

مع أنه كان يبكي.

شخصٌ آخر قربك

كانت صديقة أبي تعيش في مجمع شقق يشبه القرية، والبنايات مطلية بالجص تتبعثر حول مرجٍ منبسط مرقط بمواقد الشواء.خلف إحدى البنايات كنت اسمع طنين جزازة العشب وأنا اتبع أبي على ممرٍ متعرج مرصوف بالحجارة، بالقرب منه بركة للسباحة نشم منها رائحة الكلور، ثم نصعد درجات سلم خشبي تصدر صريراً.وأخيراً توقفنا في الطابق الثاني، واستخدم أبي مفتاحاً مربوطاً بسلسلة وسكيناً من مخلفات الجيش السويسري لفتح باب الشقة.ثم ناداها ــ ميمي ــ وتلك أول مرة اسمع فيها اسمها.

رأيتُ ميمي تجلس على أريكة بيضاء من الجلد في غرفة الاستقبال، تستعمل جهاز التحكم عن بعد وتشاهد التلفزيون في إحدى الزوايا.نهضت، ولم يظهر عليها أي استغراب لرؤيتي.كان بنطلونها الرياضي بلون الأجاص يلاءم جسمها النحيل.لمحتُ صوراً فوتوغرافية لأمي قبل الزواج تظهرها نحيفة جداً، لكن في نهاية حياتها انتفخ كلُّ شيء فيها وتراخى، إلا شعرها الذاوي.حين ماتت كانت تضع الباروكة التي أهديتها لها في عيد ميلادها، من شعر بشري حقيقي.كان شعر ميمي طبيعياً وغزيراً ومنسدلاً على كتفيها في موجات كستنائية، بحيث يتماشى مع امرأة في سنها.

قالت وهي تمد يديها معاً لتصافحني:

«كنت انتظر رؤيتك منذ مدة طويلة!»

كانت بشرتها بيجية ملساء على نحو طبيعي، مثل نايلون جواربها.فأجبتها:

«شكراً».

على شاشة التلفزيون فتاة تغني، ذات شعر متموج، تلبس صدرية خفيفة وتنورة قصيرة حمراء.فوق التلفزيون لوحة باهتة الألوان للعشاء الأخير، مع يسوع والحواريين تحيط بهم أنوار نيونٍ قرمزية.احتك بي أبي في طريقه إلى الأريكة، فقلت:

«لقد سمعتُ عنك الكثير».

رفع أبي صوت التلفزيون وقال:

«يريد أن يتبول».

«بطبيعة الحال».

بقيت ميمي تبتسم وهي تقودني عبر الصالة إلى الحمام، وكنت ابتسم لها بفظاظة قبل أن أغلق الباب.كان الحمام نظيفاً جداً وتتصاعد منه رائحة الأوراق العطرية، على العكس من حمامات البيوت المستأجرة التي نشأت فيها، والتي كنت دائماً أشم فيها روائح غريبة من الستائر البلاستيكية العفنة والأمونيا.بعد فترة لا بأس بها فرغت المرحاض.في السيارة قلت لأبي إنني أردت الذهاب إلى الحمام حتى أرى هذه المرأة، واعرف كيف تعيش.حين تفحصت صيدليتها المنزلية، كل ما وجدته هو الأسبرين، وكريمات تجميل، وعدة أنواع من طلاء الأظافر.كنت أتوقع أن أجد عينات من الفياغرا، مثل التي وجدتها زوجني السابقة سام ذات يوم في علبة حلاقة أبي بعد أن سألها، دون تفكير، أن تأتي له بمقص الأظافر.

حين عدت إلى غرفة الاستقبال كان التلفزيون مطفئاً، وأبي يقرأ الصحيفة على الأريكة.كانت ميمي تحضّر القهوة في المشرب الذي يفصل الغرفة عن المطبخ، وضوء السماء ينعكس على الفرن الكهربائي.كانت أمي في حياتها تطبخ على فرنٍ غازي قديم تحت ضوءٍ مرتعش، ثم أصيبت بتمدد الأوعية الدموية في السنة الأخيرة وهي بعمر ثلاث وخمسين سنة، وماتت وهي تعمل في المطبخ.أتصور أن مفاجأة وفاتها وهي بذلك العمر جعلت ظهر أبي ينحني في الجنازة وهو يتذكر منظرها حين وجدها تتمدد على مشمع الأرضية، وكان يسمع طقطقة عظام الدجاج تغلي على النار.

سألتني ميمي:

«هل تريد الحليب مع قهوتك؟»

قلت:

«أنا آسف، علي الذهاب».

«لكنك جئت قبل قليل.وعندي بسكويت وكرواسان».

«جئت فقط لأوصل أبي.سيارته سُرقت ليلة البارحة».

فوق الموقد كانت صورة بالأبيض والأسود ذات إطار من خشب الورد، يظهر فيها رجلٌ نحيف في الستين من العمر يضع نظارات ويلبس سترة سوداء.

«سمعت بهذا.هذه ضريبة العيش في لوس أنجلس».

انتبهت ميمي لي وأنا انظر إلى الصورة..

«إنه زوجي، توفي قبل خمس سنوات.كان سيناتوراً، كما تعلم».

وضع أبي الصحيفة جانباً ونهض واقفاً..

«عليه أن يذهب.الصبي لديه عمل».

كنتُ في الثالثة والثلاثين، لكن أبي ما زال يعتقد أن أي شخصٍ لن يصبح رجلاً ما لم ينجب الأطفال.لقد رزق بخمسة أطفال من أمي.الأبناء الثلاثة الآن أطول منه، لكن اغلب الناس، وأنا منهم، يميلون لنسيان طوله.الناس لا يلاحظون إلا أنه رجل قوي عريض المنكبين، مفتول العضلات، والشعر على ذراعيه غزيرٌ كما كان حين كنت أتعلق بهما وأنا طفل صغير.جسمه بقي صلباً بحيث يلاءم بدلة المظليين الكلاسيكية التي كان يلبسها أثناء الحرب.في هذه الأيام لم يعد يلبس تلك البدلة غير مرة واحدة كل بضعة أشهر، حين يمشي ضمن حرس الشرف في الاستعراضات والمناسبات التذكارية في سايغون الصغيرة.كان دائماً يفعل ذلك وهو يدقق النظر في الناس بعمق كما تتذكر سام من لقائهما الأول، حين وجدت أنها لا تستطيع إبعاد نظرها عنه، كأنها حيوانٌ بري أصيب بالشلل فجأة إذا داهمه حيوانٌ مفترس آخر اشد منه بطشاً.

لعل ميمي كانت تشعر بنفس الشيء.كانت تنظر إلى أبي وتخاطبني:

«تعال على العشاء في أي وقت».

في لحظةٍ تصورتُ أنها تقصد ذلك.ثم رافقني أبي إلى الباب وأشار بالإصبع إلى ساعته ذات البوصلة.سطح الساعة كان بحجم دولارٍ فضي، وسطحها ورباطها في حالة يرثى لها ومع ذلك فهي متينة الصنع وتعمل بدقة كما كانت يوم أهديت إليه سنة 1958، في مدرسة فورت بيننغ للمحمولين جواً.قال قبل أن يغلق الباب بوجهي:

«تعال غداً صباحاً لأرجع معك».

قلت:

«على الرحب والسعة».

كنت متعوداً على طريقته هذه في اغلب شؤون حياته، ابتداءً من كلماته إلى سيارته موديل 82 هوندا التي لا يتخلى عنها.حين جاء إلى شقتي قبل ستة أسابيع كان كل ما يحتاج إليه في تلك السيارة التي لم يتغير فيها شيءٌ حتى الراديو الذي يلتقط فقط قنوات الاي أم بشكل مشوش.أردت أن أقدم المساعدة، ومددت يدي إلى حقيبته.عندما حاولت رفعها كنت اعرف أنني ارتكب خطأ ما.لا بد أنها تحوي المقوّيات الجنسية الخاصة به، وكانت الثواني تمر بصمت وأنا أحاول سحب الحقيبة بيدي معاً وأخرجها من الصندوق الخلفي.حين أخرجت الحقيبة أخيراً ووضعتها على الرصيف، تنهد وأخذها مني بسرعة، ورفعها بإحدى ذراعيه ووضعها على فخذه.ثم علق حقيبته التي من القماش على الكتف الآخر واستدار ليصعد السلم.كانت الحقيبة تتدلى مع كل خطوة يخطوها وترتطم بساقه، وترك لي أكياس القماش.في الشهر الماضي أصبح أبي في الثالثة والستين من عمره، وكل همهمة كان يقوم بها تؤكد ظنوني الآن.العيش معه أصبح أصعب مما كان عليه في طفولتي.

طوال الصباح كنت أراجع الحسابات والقوائم واستمع إلى وكلاء المبيعات، وحين رجعت رأيت أبي وميمي يجلسان على الأريكة الجلدية البيضاء، يشاهدان القناة الفيتنامية على التلفزيون.كانت ميمي أولى عشيقات أبي اللائي رأيتهن، وهي واحدة من نساء مجهولات كثيراً ما كانت أمي تتشاجر مع أبي حولهن في غرفة النوم حين كنت أنا وأخوتي وأخواتي أصغر سناً.أتذكر الآن وجه واسم تلك المرأة التي كانت تجلس مع أبي بحضور زوجها.أبي حتى لم يضع صورة لأمي، كما تقتضي العادة، قرب صور والديه المتوفين على طاولة الزينة.

وجدتُ الأمر مسلياً ذات يوم أثناء استراحة الغداء أن اتصل برقم بيت سام وأصغي إلى صوتها على ماكينة الرد الآلي.«مرحباً، أنت شخصٌ غريب، تعرف ما الذي يجب أن تقوم به».لقد تعلمت من مهنتها في تدريس الهندسة لطلاب الثانوية أن تتكلم بطريقة مهذبة.كانت سام تتصرف بمرح مع طلابها، مثلما يفعل أبي مع طلابه.كان يعمل مشرفاً تربوياً على المدارس الثانوية، وفي كل مناسبة لأعياد الميلاد تُرسل عشرات البطاقات إلى الرجل الذي يسمونه السيد ب.ويخبرونه بآخر المستجدات بشأن مهنهم وعائلاتهم.كنت اشك في أن طلاب السيد ب.يتخيلون يوماً أن لديه عشيقات، أو انه في أيامه الماضية كان يقفز من الطائرات ويصدر الأوامر إلى فصيل المظليين.كان يقول للطلاب إنه كان جندياً.وكان الرجل متواضعاً حقاً ولا يحب الكلام عن حياته الخاصة مع الناس الذين لا يعرفهم أو عن أطفاله أكثر مما قلته عنه لزملائي في العمل.كان أصدقائي المقربون يعرفون أنني مدير خدمة الزبائن لشركة في بوربانك التي تبيع أدوات السمع، وقناني الأوكسجين، والكراسي المتحركة، لكني في الليل اعمل حارساً في إحدى البنايات على شارع ولشاير بالقرب من جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلس وأتلقى أجراً جيداً.لا احد يمكنه القول إنني رجل كسول، مثلما أقرّت سام في إحدى المناسبات في العام الماضي.

كان العمل يناسبني تماماً، لأني بعد أن تركتني سام وتوفيت أمي، أصبحت أعاني من الأرق.الشوارع في الليل هادئة ولا يتطلب عملي جهداً كبيراً.من حين إلى حين أتمشى في الردهات،

وافحص السلالم، والكراج الذي تحت الأرض، لكني في أكثر الأحيان اجلس في الصالة الرخامية، أراقب كل ركنٍ من البناية على شاشات أجهزة المراقبة.كنت اقرأ إحدى الصحف التي احضرها معي أو اختار لعبة من الكومبيوتر.وخلال فترات الاستراحة اسحب ورقة عشوائية من ورق اللعب فإذا كانت الورقة المطلوبة في ذهني اتصل بسام.فإذا أجابت على الهاتف لا أقول لها شيئاً، وانتظر لأرى كم من المرات تقول، «مرحبا؟» قبل أن تغلق الخط.

يا لها من امرأةٍ صبورة! لكن صبرها استنفد في العام الماضي، حين بلغت الرابعة والثلاثين من العمر.ذهبنا ذات يوم إلى مطعم بالمز ثاي في هوليوود للاحتفال بعيد ميلادها، لأنها من المعجبات بالمطرب ثاي الفيس الذي يهتز خصره بشكل عجيب وهو يرقص على المسرح بزيٍ مختلفٍ كل ليلة.وفي ذلك المساء كان يلبس سترة ضيقة مذهبة وهو يغني «اسمح لي أن احبك» لفرقة تيدي بير، ويضع نظارات شمسية مزينة بالورود على انفه وأصابعه مزينة بالجواهر.

سحبت سام خصلة طويلة من شعرها خلف أذنها، وقالت وهي تحاول إخفاء خجلها:

«أريد أن أنجب طفلاً، توماس.أريد أن أنجبه منك».

الخصلة كانت مصبوغة بالأرجوان، بينما بقية شعرها أشقر وطبيعي.كان قرط ألماسٍ بحجم رأس الدبوس يتدلى من منخرها الأيسر، والحروف الأولى لأسمي منقوشة بالوشم الأزرق على معصمها الأيمن كتذكار عني، كما قالت، كلما أرادت معرفة الوقت.لسببٍ ما سحرت روحها المتمردة أبي، إلى درجة أنه بعد الطلاق قال إنني أنا المذنب.

قلتُ لها:

«لا اعرف إن كنت على استعداد الآن، أو هل سأكون أباً صالحاً».

لم تكن هذه أول مرة نتحدث فيها عن المسألة:

«هيا، توماس.لن تتصرف مثل أبيك».

كان أبي في كثيرٍ من الأحيان يوقظني مع أخوتي، بينما كنا ننام على الأريكة، لنمارس معه ألعاب الجمباز.كنا نتمدد على الأرض بينما تقف إحدى أخواتنا على ظهورنا، أو نضع المجلدات الكاملة لقاموس ويبستر على صدورنا، أو نركض على مسار فيه عقبات من إطارات قديمة في الباحة الخلفية ونستعمل غصن بلوطٍ في القفز، ونلهث حتى نسقط منهكين.بعد ذلك نمارس رياضة التصويب بالبندقية، ونغلق عيوننا ونطلق النار على العلب الفارغة المليئة بالرمل.ونركض أميالاً، ولا نتوقف حتى يتقيأ احدُنا، وذلك دليلٌ على نجاح أبي بأن يجعلنا رجالاً.

تصوّرت أن سام تدرك المخاطر التي كنت أواجهها، قلت:

«إنه مجنون.ألا تشعرين بالقلق لأني أمارس تدريبات الجنود؟ أو أتعرف على امرأة غيرك في مكان ما؟»

صبت لنفسها كوب ماء من القارورة التي على الطاولة وقالت:

«كما قلت.أنت تختلف عن أبيك».

انتهت مناوبتي فجراً.كنت على بعد أربعين دقيقة بالسيارة من الجانب الغربي إلى شقتي في الجانب الشرقي، بعيداً عن تقاطع سنسيت، ولكن ليس بعيداً عن جادة سيزار شافيز.كانت عصابات سرقة السيارات تنشط في ايكو بارك وطائرات الهليكوبتر التابعة للشرطة تحوم في السماء، وكنت قد انتقلت إلى هذا المكان بعد الطلاق.في الصيف الذي ماتت فيه أمي عرفت معنى العزلة، وبعد انتهاء مراسم الجنازة ظننت أن أبي ربما يحس الوحدة مثلي فدعوته ليأتي للعيش معي.لكني لم أتوقع موافقته فوراً.

اليوم لدي إجازة من كل أعمالي، بعد أن نمت لساعتين فقط نهضت، وأخذت حماماً، وحلقت ذقني، ولبست خلال خمس عشرة دقيقة.وبعد نصف ساعة كنت اعبر من ايكو بارك إلى الحي الذي تسكن فيه ميمي، وسط الحي الصيني على جادتي اتلانتك وفالي.فتحت لي الباب وكانت ترتدي ملابس رياضية من القطيفة القرمزية.وكان أبي يستحم بعد جولته الرياضية الصباحية، وأصرّت على أن تحضر لي كوباً من القهوة.سمعته يغني في الحمام بينما عادت ميمي ومعها كأس الثلج بإحدى يديها والحليب السميك في الأخرى مع مصفاة القهوة.وبينما كنا ننتظر القهوة السوداء أن تترسّب في القاع، ابتسمت وقالت:

«أبوك يتكلم عنك بخيرٍ دائماً».

«ليس كما يتكلم عنك».

«يقول إنك تعمل في الصناعات الطبية».

«إنني أبيع أدوات السمع.وفي المساء اعمل حارساً ليلياً».

«فهمت».

سمعنا توقف الماء في الحمام.قلت:

«يبدو أنها شقة غالية في هذه البناية، النساء يرتدين معاطف الفرو فقط لأنهن قادرات على دفع أثمانها».

ابتسمت ميمي ولمحتُ بين شفتيها بريق سنٍ ذهبي..قالت:

«ليس من الصواب لشابٍ مثلك أن يعيش بلا امرأة، أبوك اخبرني انك لا تخرج مع الفتيات».

«إنني استرد عافيتي من إحدى التجارب».

تجاهلت ميمي ذلك وبدأت تصف لي الفتيات اللواتي تعرفهن، فضلاً عن فتيات الحي القديم في كان ثو، وكلهن يبحثن عن أزواج يحملون جوازات سفرٍ أمريكية.المرأة الفيتنامية، كما قالت لي، تنحني لك احتراماً وتضع يدها على ركبتيها، وتوفر لك أفضل فرص الراحة بالقياس إلى الأمريكيات، اللواتي يمتزن بتقلب المزاج وكثرة الطلبات.الفيتناميات يعتنين برجالهن، يعشقنهم، هؤلاء النساء يردن رجالاً مثلي، ليسوا أمريكيين ولا فيتناميين.هزت رأسها لأبي الذي ظهر في المدخل، يلبس قميصاً مزرراً وبنطلوناً قصيراً.تجاهلها ونظر لي قائلاً:

«اليوم سوف نستأجر سيارة».

سألته ميمي:

«هل تعود الليلة إلى الشقة؟»

قال:

«غداً، الآن أسرع واشرب قهوتك قبل أن يذوب الثلج».

حالما انتهيت من شرب القهوة أرشدني إلى الباب.لم يقل شيئاً ونحن في السيارة، كانت المفاتيح تخشخش في جيبه إلى أن توقفنا عند تقاطع شارعي هاربر وهوليوود.لمحنا طائرات الهليكوبتر التابعة لمحطات الأخبار تحوم بتثاقل على الطريق السريع باتجاه وسط البلد، أبراجها ظلال شاحبة تختفي وراء ستارة من الضباب.أشعلت سيجارة، وانزل أبي نافذة السيارة قربه.بعد وفاة أمي تخلى عن عادة تدخين علبة واحدة من السجائر يومياً، ليس لأنها كانت تعترض على التدخين؛ كانت تشكو فقط من داء الشقيقة وتصر على إطفاء أضواء غرفة النوم لتغفو.«إنه رأسي»، كانت تشكو دائماً وتئن.«رأسي».

فجأة سألني أبي:

«متى كانت أول مرة تكلمت معها؟»

«من؟»

تصورت أنه يقصد أمي..

«سام».

«منذ أشهر.اتصلت لتقول إنها آسفة على موت ماما».

نفخت دخان السيجارة من النافذة..

«كيف ترجع إليك إذا كنت لا تتكلم معها؟»

«هذا ليس من شأنك».

«أنت تستسلم بسهولة.انظر إلى نفسك».

سام أخبرتني بنفس الشيء بعد لقائنا الأول بوقتٍ قصير، في السنة الأخيرة من الكلية..ونظرتُ إلى نفسي.قلت:

«ماذا بي؟»

ثم ضرب على بنطلوني..

«أصبحت مترهلاً.لم تمشط حتى شعرك.ولم تكو ملابسك.على الرجل دائماً أن يكوي ملابسه».

«أظن أن ماما هي التي كانت تكوي ملابسك».

ضرب يده على لوح أجهزة القياس في السيارة توكيداً لكلامه..

«يبدو منظرك مريعاً.كم سيجارة تدخن في اليوم؟»

«ستة أو سبعة».

«لا تكذب».

لم اقل شيئاً، فانتزع السيجارة من فمي وألقاها خارج النافذة، ثم امسك كتلة لحمٍ حول خصري، وعصرها بقوة..

«تبدو كالمرأة».

دفعت يده:

«بحق المسيح، لا تفعل هذا!»

«هل ترى سام هذا؟»

«من قال لك إنني أريدها أن ترجع؟»

«لا تكن غبياً.كنت نصف رجلٍ قبل أن تلتقي بها، ورجعت الآن نصف رجل».

من نافذتي رأيتُ سيارة ميتسوبيشي صغيرة تقترب منا، ولمحت شاشة تلفزيون صغير مخفية في وسادة رأس تبث مشهد طريقٍ مزدحم.كانت الكاميرا تركز على فريق دورية مراقبة الطرق السريعة الذين يلبسون بدلات العمل السمراء وينكّسون بنادقهم، وكانوا يطوّقون إحدى السيارات.ذلك طريقنا الذي نسلكه، أصبح مزدحماً بعد أن سمع الناس الأخبار ورأوا الهليكوبترات.

قلت:

«ماذا عنك؟ هل ستتزوج تلك المرأة؟ ثم تجد نفسك على الهامش؟»

بدأ السائقُ الذي خلفي يزمر، وسرعان ما صارت كل السيارات على الطريق تزمر.تذكرت أمي وهي تسحبني جانباً ذات يوم، حين كنت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة، كنت أريد أن اعرف أين يختفي أبي في ليالي الجمعة.لم تكن لدي فكرة.لسبب ما كان جوابها مرعباً أكثر من تلك المرة وهي تلاحقه إلى الحمام.حين أغلق الباب عليها، وحاولت أن تكسر الباب بالكرسي، وتركت السيقان الخشبية ثقوباً بحجم قبضة اليد على الباب الأجوف.

مد أبي يده وداس على بوق التنبيه مرة، ثم مرتين، وثلاث مرات..

«سام امرأة طيبة.من الخطأ أن تتخلى عنها».

وكأنما أردت أن اثبت له مدى حقارتي بدأت ابكي.

كان يحدق أمامه مباشرة، وعرفت أنه يفكر في الجنازة.لم يذرف دمعة واحدة أثناء القدّاس، وأنا كذلك، لكني حين أخذته بالسيارة من الكنيسة إلى المقبرة، تفجر شيءٌ في داخلي، وتدفقت الدموع.توقف عن الكلام آنذاك أيضاً.كان قلقاً، كما أتصور، يخشى أن ارتطم بإحدى السيارات.ثم توقفتُ عن البكاء واستأنف الحديث عن الجنازة.لكن اليوم، والسيارات تطلق أبواقها في كل مكان، تنهّد وقال:

«هذا يكفي.حان الوقت لنفعل شيئاً بشأنك».

بدأت السيارات تتحرك من جديد.والأبواق توقفت، وتحوّل أبي إلى الراديو، التقط قناة تبث موسيقى روك خفيفة حيث كان بول مكارتني وستيفي وندر يغنيان «الأبنوس والعاج».لم اعرف ماذا يعني بـ «عمل شيء ما».كان يقول ذلك كلما كان على وشك أن يعاقب إخوتي أو يعاقبني.وقال ذلك عندما أتيت ذات يوم إلى المنزل وكنت في الصف الرابع وأخبرته أن صبياً من الشارع بصق على طبق السردين والرز الذي وضعته لي أمي في حقيبتي.ثم شتمني الصبي ونعتني بالأعور.

لم يكن أبي مفتشاً في المدارس الثانوية في ذلك الوقت.كان مجرد بوّاب ليلي في احد مكاتب وسط البلد وطالب دراسة مسائية يلبس زي البوّاب، وأخذني معه من الشقة إلى منزل الصبي، حيث انتظرتُ على الرصيف بينما صعد أبي درجات السلم وطرق الباب الأمامي.الرجل الذي فتح الباب كان أطول منه بست إلى سبع بوصات، ويلبس بدلة ميكانيكي زرقاء مفتوحة الأزرار إلى أسفل بطنه.وشعره بني غزير على يديه، وصدره، وأذنيه ـ غزير في كل موضع باستثناء الرأس.

لم اسمع ما كانا يقولانه، كلاهما كان يتكلم بصوتٍ منخفض، غاضب، حتى اللحظة التي قال فيها الرجل، «سأريك ماذا افعل».عندها ضربه أبي بين فخذيه دون أن ينطق كلمة أخرى، وانحنى الرجل وهو يئن من الألم فضربه مرة أخرى في رقبته.بعد أن سقط الرجل على وجهه رأيت ابنه واقفاً خلف الباب الزجاجي، وكانت عيناه مفتوحتين.لم ينظر أبي إلى الخلف وهو يمشي عائداً باتجاهي.لم يكن ثمة فرح أو انبهار على وجهه وهو يربت على كتفي، وخلال لحظة تصورتُ أنه سوف يطلب مني أن أتعارك مع ذلك الصبي، لكنه قادني إلى المنزل فحسب، وكان يربّت على كتفي بلطف طوال الطريق، ولا يقول شيئاً.

استأجرنا سيارة من مجمع انتربرايز في لوس فيلز، وهي فورد بحجم عربة الغولف لكنها أكثر اقتداراً.ثم أخذني أبي إلى محل حلاقة كان يتردد عليه في الحي الصيني القديم، عبر زقاقٍ بعيد عن برودواي، حيث بدأ رجلٌ شعره برتقالي ويلبس حزاماً اسود مرصعاً بالنجوم يقص شعري ويثرثر عن الأيام الخوالي التي كان يقضيها مع غانيات مقابل عشرين دولاراً في سايغون.بعد أن انتهى الحلاق لم اعرف أيهما أكثر قبحاً، الفورد المستأجرة أم تسريحة شعري، كان شعري قصيراً جداً وكأنما سُرّحت الآن من الجيش.وكنت اشعر بالنسيم بارداً على فروة رأسي في ذلك المساء،

يدفعني من بالدوين هلز إلى عتبة باب سام.لقد انتقلت سام إلى هنا بعد طلاقها، في منزلٍ يقع على مرتفعات لاسينغا، يطل على حقلٍ من رافعات النفط.

قلت:

«انك ترتكب خطأ الآن».

لكن أبي طرق الباب..

«لم نرها منذ مدة، سوف نتحدث فحسب».

قال أبي إننا سنعمل لها مفاجأة، رغم أننا كنا في المنطقة التي تسكنها سام.كان أقصى غايات الرجل العجوز أن يفعل شيئاً من أجلى.لكنه نسي أن يستكشف النوايا أو يتهيأ لأسوأ لسيناريوهات.ومع ذلك، حتى لو كان يتذكر لا أظن أنه تهيأ لأن يرى سام تفتح له الباب بثوب الحمل مع كشكش من قماشٍ خفيف لا يخفي بطنها المنتفخة.

قالت:

«أوه، أنتما آخر من توقعت رؤيتهم».

كان شعرها قصيراً كالفتيان..

قلتُ لها:

«أنت حامل؟».

«جيد انك لاحظت، توماس.مرحباً بك سيد ب.»

قال أبي:

«حسناً؟ انظري إلى نفسك».

«من الجيد رؤيتك أنت أيضاً.لا اقصد الإساءة ولكن كان عليك أن تتصل».

سمعنا من خلفها صوت التلفزيون في غرفة الجلوس..

قلت:

«كنا فقط نقوم بنزهة، ثم أحببنا أن نراك».

كانت سام تعرف أنني وأبي لا نركب السيارة معاً للمرح، لكنها أشارت إلينا بالدخول على كل حال.كنت أتوقع أن يكون معها رجل آخر ودخلت بحذر، وكنت أتفحص كل ركنٍ قبل المضي في طريقي.أكوام من أوراق الامتحانات كانت مرتبة ومصنفة على سجادة مطرّزة بالافوكادو، عند سيقان كروم لأريكة مصنوعة من جلدٍ صناعي كنا قد اشتريناها من محلات كورية على الجادة الغربية.قالت سام وهي ترتاح على الأريكة:

«أنا آسفة على هذه الفوضى».

جلس أبي على أحد الكراسي، واضطررتُ للجلوس على طرف الأريكة بعيداً عنها.لمستُ كومة من أوراق الامتحان، واحدة عليها علامة C حمراء في أعلى ورقة.قلت:

«إنهم لا يبلون جيداً».

أجابت:

«اعتقد أنني فقدت لمستي السحرية».

يقول الناسُ إن المرأة الحامل تزداد جمالاً وتألقاً مع الحب والآمال.كنت أرى هالة على وجوه بعض النساء، لكن الهالة التي على وجه سام المنتفخ كانت مجرد انعكاسٍ للمعان الدهن والعرق.ثم أضافت:

«إنني لا أتمتع الآن بالحيوية مثلما كنتُ في السابق، وهذا يؤثر على الطلاب».

علق أبي على كلامها قائلاً:

«على المدرس أن يكون نموذجاً لطلابه».

أغمضت عينيها لحظة، كانت تبدو متعبة حقاً:

«أنت تقول هذا دائماً، سيد ب.هناك بعض قناني البيرة، يمكنكما خدمة أنفسكما.إذا أردت النهوض احتاج إلى رافعة».

قلت:

«لديك بيرة؟»

«إنني احتفظ بها عادة للضيوف».

رفضتُ عرضها بدافع الأدب، ولكن أبي ذهب فوراً إلى المطبخ لإحضار البيرة.وضعت سام يديها على بطنها وهي ترمقني بنظرة محايدة.ثم سألتني:

«ماذا تفعل مؤخراً، توماس؟»

«اعمل، وأنام».

«وأنا كذلك».

«أبي انتقل ليعيش معي».

ضحكت..

«لا بد أن ذلك شيءٌ ممتع.من يتولى منكما الطبخ؟»

«هو، بطبيعة الحال».

عاد أبي ومعه زجاجتين من البيرة، وصحن مكسّرات، وكأس ماء.قال:

«سيد الخدمات السريعة».

قالت سام وهي تأخذ الكأس من أبي:

«شكراً، سيد ب.، احتاج فعلاً إلى شيءٍ بارد.أحس حرارة في داخلي».

ثم لذنا بالصمت وكنا نشاهد برنامجاً على التلفزيون عن الممارسات الوحشية في صناعة اللحوم.وكسر أبي الصمت بأن أطرى على ترتيب منزلها ففرحت سام وقالت إن اغلب الديكورات من ابتكار رفيقتها التي تسكن معها، وهي مُدرّسة خرجت الليلة.أشار أبي بزجاجته إلى التلفزيون الذي عليه غليونٌ من الصاج، منقوش بشكل تنين مع كرة أفيون في فمه:

«من أين اشتريته؟»

«من هيو.لكنه لا يصلح للتدخين».

نطقت اسم المدينة بصيغتها الصحيحة.هتفت مع أبي بصوتٍ واحد:

«أنت ذهبت إلى فيتنام؟»

«في الصيف الماضي.لم تكن لدي دروس صيفية لذلك ذهبت في رحلة.أحياناً..» ـ توقفت ـ «تحتاج المرأة إلى إجازة».

قلت:

«الم تفكري بي؟»

حولت سام ثقلها على الأريكة إلى اتجاهٍ آخر، وكانت تضع إحدى ساقيها على الأخرى ثم تفكهما، فيظهر كاحلاها وباطن ساقيها.ابتسمت لي كأني أحد طلابها.ثم نظرت إلى أبي، الذي كان ينظر إلى السقف الذي يشبه سقف الكوخ..

«بطبيعة الحال فكرت فيكما معاً».

خبط أبي زجاجة البيرة على الطاولة..

«لن ارجع.أنت لا تعرفين الشيوعيين.أنا اعرفهم».

«إنهم ليسوا سيئين إلى هذا الحد.يريدون فقط أن يعيشوا حياتهم».

هز أبي رأسه متأثراً..

«أنت امرأة أجنبية ولا تعرفين شيئاً.إنهم يسلبون أموالك ويقولون لك كلاماً جميلاً».

قالت بهدوء:

«ربما كان عليك أن ترجع، يمكنك الحصول على عفو».

ضرب أبي سبّابته على حنجرته وأصدر صوتاً من حلقه:

«لن ارجع.إذا رجعت سوف يعتبروني مجرم حرب.يدخلوني في عملية إعادة تأهيل وتثقيف، ولن تسمعي بي مرة أخرى».

تزحزحت سام عن الأريكة، ثم نهضت قبل أن يبدأ أبي الكلام عن مدى إجرام الشيوعيين وما فعلوه وما سوف يفعلوه.كان سيقص هذه الحكايات طوال المساء.

قالت:

«اعذرني، يجب أن اذهب إلى الحمام».

بعد أن ذهبت استدار أبي لي واخذ يغمغم، مشيراً إلى بطنه وكان يرسم منحنى مدوراً في الهواء بيده.تجاهلتُ ذلك ونهضت لأتجول في غرفة الجلوس باحثاً عن أي شخصٍ يمكن أن يكون مختبئاً.لكني لم أجد شيئاً غير آثار من حياتنا السابقة.كنت قد أعطيت سام كل شيء حين انفصلنا باستثناء النقود، لكني لم أتوقع منها أن تحتفظ بصورنا التذكارية.فوق رف الموقد رأيتُ تماثيل راقصاتٍ اشتريناها أثناء شهر العسل الذي أمضيناه في هاواي، وعلى أحد الرفوف مساند كتب من الكريستال بشكل دلافين كنا قد اشتريناها في بورتو فالارتا.وقرب المدفأة لوحة لروبرت دواسنو اشتريتها لها في سنة التخرج، وهي صورة بالأبيض والأسود لرجلٍ وامرأة يقبل أحدهما الآخر على احد شوارع باريس.

قرب مساند الكتب صندوق مجوهرات، ظننت أنها اشترته من فيتنام.كثيراً ما كنا نتحدث عن زيارة فيتنام، لكني لم ارغب أبداً في الذهاب إلى هناك.أنا لم أولد هناك، أمي أنجبتني في مخيمٍ للاجئين في غوام، وأعطاني أبي اسماً على اسم صديقه الأمريكي الذي أهداه ساعة البوصلة.لم افهم ما الذي يجذب سام إلى فيتنام، ربما أرادت أن تنهي حياتها هناك.لعلها تجد ذلك.كانت تبدو سعيدة وهي تأتي بمغلفين للصور من رحلتها وأخبرتنا بالقصص إلى وراءها.«إنه بلدٌ جميل»، قالت، وذلك ما يقوله الجميع عن فيتنام.«بلادٌ فقيرة وحارة، لكنها جميلة».

همهم أبي باستهزاء وهو ينظر إلى الصور.لقد هبطت سام في سايغون ثم سافرت شمالاً إلى هيو وهانوي، وذهبت إلى خليج هالونغ وجبال سابا.اغلب هذه من الأماكن التي قرأ عنها فقط، منذ أن منعت الحرب أبناء جيله من رؤية بلادهم.أعطاني أبي صورة سام على متن أحد القوارب، وكانت تضع على رأسها قبعة سفاري وتلبس بلوزة زرقاء من نورث فيس، اشتريتها لها في أعياد الميلاد.لقد اختفى النمش على وجهها ولم يعد يرى على بشرتها، وأصبح لونها قرمزياً من اثر الشمس، وكانت تنحني على كتف رجلٍ يلقي سترة بلون الرمل على كتفيه.

أشرت بإصبعي إلى وجه الرجل وقلت لها:

«هذا والد الجنين؟»

تنهّدت وهي تقول:

«لا تكن سخيفاً أرجوك، توماس».

«إنه مجرد سؤال».

«كانت لديك فرصة، توماس.كانت لدينا فرصة».

قال أبي:

«اسمحوا لي».

ثم نهض ومشى إلى الباب الأمامي دون أن يقل كلمة.بعد أن أغلق الباب هزّت سام رأسها وقالت:

«لم يتغير أيّ منكما قيد أنملة».

«لا أرى ذلك».

«وكيف تغيرت، توماس؟ إذا لم نأخذ تسريحة شعرك بنظر الاعتبار؟»

قلت بصوت مرتفع:

«أنت التي تغيرت.والآن أنت تغيرين الموضوع».

«يمكن للمرأة أن تحصل على طفل لوحدها، المرأة لا تحتاج إلى رجل ليكون والد طفلها، توماس».

لم ترتفع نبرة صوتها كما كان يحصل حين نتعارك، لكنها بقيت خانعة، كأنما يؤثر عليها وزن الطفل الذي لم يولد بعد.

«ربما يمكنك القول أيضاً إن الأرض مسطحة».

«أوه، يا الهي.أي زمنٍ تعيش فيه الآن؟»

مطت الكلمات بسخرية، تحاكي بذلك طريقة كلام طلابها في الصف، أولئك الذين تعوّدت أن تتكلم عنهم على طاولة الطعام.

أردت أن اسألها ماذا تكون المرأة بدون زوج، ماذا يكون الطفل بدون أب، ماذا يكون الصبي دون رجل، لكن الأسئلة لم تخرج من فمي.قلت أخيراً:

«من يكون الأب؟»

«ليس لديك حق بأن تسألني هذا السؤال».

ربما كان مدرساً آخر، أو شخصاً التقت به على الانترنيت، أو غريباً شربت معه في إحدى الحانات ذات ليلة.وربما كان مرشداً سياحياً فيتنامياً محظوظاً.التفكير في هؤلاء الرجال جعلني اشرب ما تبقى من البيرة في الزجاجة، ولم يكن مذاقها حلواً في فمي بحيث رميتها على التلفزيون.ثم نهضت سام ومشت إلى الباب، ولم تترك لي مجالاً غير أن اتبعها.كانت قدمي على العتبة حين سمعت صوتها تقول:

«لا ترجع، توماس.تعرف أن لا فائدة من ذلك».

من فوق كتفها رأيتُ المذيع يقول شيئاً عن شركات النفط ورجال نيجيريين أقوياء يعملون فيها.

كان أبي ينتظرني بالسيارة يدخن سيجارة من العلبة التي تركتها هناك.كان قد شغل الراديو، ولأن الموسيقى الأمريكية لا تروق له فقد اشترى قرصاً مدمجاً لأغان حزينة لخان لاي.كان يقول إنه كلما استمع إليها يعود به الزمن إلى سنة 1969.صعدت للسيارة وأغلقت التسجيل.كان الشارع فارغاً وهادئاً، إلا من سيارات عابرة من شارع لاساينغا ونباح كلب في مكانٍ ما في أعلى التل.

قلت:

«كانت هذه فكرة عظيمة».

رمى سيجارته إلى خارج النافذة..

«هل أخبرتك من يكون الرجل؟»

«رفضت أن تقول».

رفعت رجلي عن دواسة البنزين وتباطأت السيارة، واصطفت مع سيارات أخرى مركونة على الرصيف.في منتصف الطريق قال:

«توقف».

كانت سيارة سام قريبة منا، إطاراتها باتجاه أسفل التل، وهي تويوتا رمادية قديمة، على نافذتها الخلفية المغبرة رسم أحدهم وجهاً عبوساً.قال أبي:

«اطفيء الأضواء».

انتظر حتى ابتعدتُ قليلاً قبل أن يُخرج سكينه السويسرية وينزل من السيارة.بعد أن دار مرة حول التويوتا انحنى على الإطار الذي تحت السائق ومدّ ذراعه اليسرى، والسكين في يده اليمنى.ضغط على الإطار بقوة بالسكين، واعمل الشفرة القصيرة الحادة بالمطاط عدة ثوان إلى أن عمل ثقباً بعرض عدة بوصات.لا اعرف إن كانت السكين أصدرت صوتاً حين خرجت من الإطار، فأنا لم اسمع شيئاً.

أعاد أبي نفس العمل على الإطارات الثلاثة الباقية، ثم أغلق السكين التي أصدرت طقطقة، ونهض، وركل السيارة بقدمه.نظرتُ من فوق كتفي إلى الشارع، لكن الرصيف كان خالياً، رغم أن بعض النوافذ كانت مضاءة بالوهج الأزرق لأجهزة التلفزيون، فلا احد ينظر منها.وحين استدرت عائداً إلى التويوتا وجدت أبي اختفى، خلال لحظة ظننت أنه هرب.لكن أبي برز فجأة من الظلام، رأيته في الجانب الآخر من التويوتا، كان يحمل حجارة بحجم البرتقالة في يده.رفع الحجارة فوق رأسه، وتوقف قليلاً ليضبط التوازن، ثم ألقاها على السيارة، ودفع جسمه كله وراءها.طقطقت الزجاجة الأمامية للسيارة وتكسرت بفعل الصدمة، لكن الزجاج لم ينفتح، وبقيت الصخرة عليها بينما تردد الصدى في أسفل التل.رجعت إلى سيارتنا وقلت له:

«أنت مجنون، أتعرف ذلك؟»

«هيا نمضي بسرعة، لا تقل شيئاً.لا تضيء المصابيح حتى نصل إلى أسفل التل».

كان يتكلم من بين أسنان مطبقة.انتظرتُ حتى استدرت من المنعطف قبل أن أشعل الأضواء الأمامية وأسرع بالسيارة، وضربت على عجلة القيادة بقبضتي وقلت:

«أنا لا أعرفك.لا اعرف لماذا فعلت ذلك».

«سوف تُلقي اللوم على السود».

كل السيارات التي كانت حولنا تعود للسود..قلت له:

«لم اقصد ذلك».

انحنى أبي على المقعد وأغمض عينيه..قال:

«إذن لماذا لم تقل شيئاً قبل قليل؟ كان عليك أن تُنزل زجاج النافذة وتمنعني.كان يمكنك أن تزمر، تجعل الناس يأتون إلى نوافذ شققهم».

مضينا بالسيارة مروراً برافعات النفط التي كانت مثل ظلال بجعات عملاقة.قبل أن تنتقل سام إلى بالدون هلز لم أكن اعرف أن لوس أنجلس فيها نفط.لكني أتصور أن النفط موجودٌ في كل مكان من العالم، مثل الغضب والحزن.على الإنسان فقط أن يعرف أين يبحث عنه.قلت:

«لا احد يعرف كيف يوقفك عند حدك، أنت دائماً تفعل ما تريد».

«كل شيء فعلته كنت أؤمن به».

خبطت السيارة رمبة عند مدخل طريق سانتا مونيكا السريع، وراح أبي يشتم ويلعن، ووضع يده على رقبته كأنما أصابته رصاصة، فسألته:

«ما خطبك؟»

فتح عينيه.وقال:

«اعتقد أنني أصبت بتشنجٍ عضلي».

«أنت تستحق هذا».

«أنت لا تعرف الخطأ من الصواب.السبيل الوحيد للرجل لأن يعرف الخطأ من الصواب حين يتخذ قراراً».

لم يكن ثمة أي اثر للغضب في صوته.قلت:

كانت الأضواء المتناثرة من أبراج وسط البلد تلمع من بعيد..

«هل كان من الصواب إذن أن تخون ماماً؟ هل كان من الصواب أن توصلها إلى قبرها مثلما فعلت؟ هل تعتقد انك فعلت الصواب؟»

تنهّد أبي كما تعوّد أن يفعل كل صباح في طفولتي حين يأتي إلى غرفة الجلوس ويرانا نائمين، أو نتظاهر بذلك على أمل أن يتركنا ننام ولا يسحبنا من السرير.توقعت أن يصفعني على أذني أو يلكمني عقاباً على كلماتي، لكنه لم يفعل.بقي صامتاً حتى اقتربنا من وسط البلد، حينها قال:

«لم أحب أمك يوماً».

«لا أريد أن اسمع هذا الكلام».

«لكني كنت احترمها، كانت امرأة مثابرة مخلصة، وزوجة صالحة.أبي هو الذي اختارها لي لأنها متدينة، رغم أنه كان يعرف أنني أحب فتاة أخرى، ولهذا لم اختر لك أي امرأة.أردتك أن تجد المرأة التي تحبها».

«لا تفعل هذا بي».

«ومن غيرك يهمني أمره؟»

أغمض عينيه مرة أخرى، منذ أن كنا في وسط البلد حتى وصلنا إلى الشقة، لم نتكلم بشيء.وحين وصل إلى سريره كان عليّ مساعدته في خلع قميصه والاستلقاء، كنت امسكه من الكتفين وهو يعانق عنقي ورأسي.ورأيت الندبة التي عرضها ست بوصات على صدره، والتي كنت أحياناً أراها وأنا طفل، بعد أن يخرج من الحمام بمنشفة حول خصره.لأنه لم يخبرنا بشيءٍ عن أيام الحرب كنا نبتكر القصص عن إصابته بإطلاق ناري اخترق صدره، أو أنه تلقى طعنة من زوج إحدى عشيقاته.كانت الندبة كتلة مترجرجة من الاحمرار في ذاكرتي، تتخذ زاوية بين عظم القص والقلب، وعلى الضوء الكليل لغرفة النوم، تبدو كإبزيمٍ قرمزي يمسك الجلد المترهل المجعد لصدره.

وجدت حبوب النوم في احد أدراج طاولة الزينة، مع زجاجة زيت اليوكالبتوس وعلبة حبوب سالونباس.قلت له، وأنا أضع الحبة في فمه:

«خذ واحدة».

بلعها من غير ماء وساعدته في أن يستلقي، حتى ذلك العمل كان يتطلب من المرء استعمال عضلات رقبته.وضعت بعض زيت اليوكالبتوس على كتفيه ورقبته وبدأت أدلك جسمه.بعد وقت قصير بدأ يسترخي ويتنفس بإيقاعٍ منتظم، ولما غطّ في النوم أخيراً لففت عليه أشرطة طبية بيضاء كانت رائحتها تذكرني بتلك الأوقات حين كان يضعها لي بعد الإجهاد من تمارين الصباح.

ثم أخذت قميصه وفتحت الخزانة.كانت حمالة الملابس في يدي وأنا انظر إلى الرف داخل الخزانة فرأيت باروكة أمي.ما الذي دفعه لأن يبقي هذه، من بين كل الأشياء، لم افهم.علقت القميص وأطفأت المصابيح قبل أن اذهب إلى غرفتي.هناك استلقيت على السرير، استمع إلى هليكوبترات الشرطة تحوم فوق رأسي كل ليلة أو إلى فرقة التراتيل الاسبانية يأتي صوتها من الكنيسة الإنجيلية المكتظة بالناس أسفل التل.كل شيء من حولي كان ساكناً على نحو غريب، حتى تصورت أنني لست في شقتي، وأغمضتُ عيني فرأيت الوجه البيضوي مرة أخرى، بالأنف المقوس والشفتين النحيلتين، بملامح بيضاء، جوفاء، بلا عيون، يحدق بي.

في ساعة متأخرة من ذلك اليوم عثر رجالُ الشرطة على سيارة أبي الهوندا على جانبٍ من شارع بويل هايتس.وفي الصباح، بينما كنت نائماً بين نوبات العمل، ذهب أبي مع ميمي لاسترجاعها من ساحة السيارات المحجوزة.عادا بينما كنت اشرب قهوتي السوداء الخالية من السكر.كان أبي يصفّر بنغمات لم أميزها حين فتح الباب، وميمي وراءه.قال:

«المعجزات تحدث على كل حال، السيارة لم يُسرق منها شيء.الشرطة تعتقد أنها مجرد عبث صبياني».

قلت:

«يا لك من محظوظ!»

«الأوغاد الصغار تركوا لي هدية».

راح يبحث واخرج شريط ستريو رخيص براحة يده، كانت حركته صلبة وخرقاء من توتر رقبته.

«اعتقد أنهم لم يتحملوا الراديو».

«ربما كان الشريط مسروقاً أيضاً».

«إذا لم يعترض رجال الشرطة فلا مشكلة لدي».

ثم خرج بالمكنسة الكهربائية والخرق لتنظيف السيارة وبقيتُ وحدي مع ميمي.كانت تجلس على حافة الأريكة، تلبس ملابس رياضية أرجوانية مع حذاء رياضي نظيف، وتطوي يديها على حضنها وتبتسم لي.كان ضوء الصباح يأتي من نوافذ غرفة الجلوس وينعكس على قماش الساتان ويضيء جسمها وسط هالة من الغبار.رؤيتها مع أبي جعلتني أفكر في أن سام ربما اتخذت القرار الصحيح.لعلها كانت تفكر بأبي وأمي حين طلبت الطلاق.أو كانت تعرف آنذاك ما اعرفه الآن، أنهما ما كان ينبغي لهما الزواج.الحقيقة أن أبي كان ينبغي أن يتزوج امرأة غير أمي، وهي كذلك، وفي تلك الحال لم أكن لأولد.

قالت:

«أحيانا اشعر بالأسف عليكم أنتم العزاب».

«ميمي».

تابعت الكلام:

«مدبرة منزلي تعمل بجد.إنها تبحث عن عمل آخر، إذا احتجت لمن يساعدك في التنظيف».

قلت:

«خالتي ميمي»

جعلتني مرارة القهوة أدرك مدى سذاجتي..

«إنها طاهية ممتازة، تقريباً مثلي».

ثم فاجأتها بقولي:

«أنت تعرفين أنه يخدعك، أليس كذلك؟»

لم تقل أو تفعل شيئاً، وملامح وجهها لم تتغير.ربما لم تسمعني، أو إذا سمعتني فهي تشعر بالصدمة بحيث لا يمكنها الرد.نهضت، واخترقت سحابة الدخان بحركةٍ خفيفة من يدها.توقعتُ أن تقول شيئاً، ربما كيف أنها تختلف عن أمي، لكنها لم تنطق كلمة.مشت إلى الباب دون أن تنظر لي، ابتسامتها ثابتة على وجهها، في لحظة تصوّرت أنها تتجاهلني.وبينما كانت تمسك أكرة الباب توقفت واستدارت لتنظر لي.

قالت وقد تحوّلت ابتسامتها إلى تجهمٍ واضح:

«اخبرني، ألا توجد بعض الأوقات التي تفضل فيها وجود شخصٍ قربك؟»

عدتُ لممارسة عملي كل يوم.وفي فجر أحد الأيام رجعت إلى المنزل من العمل الليلي، كنت منهكاً إلى درجة أنني لا أتذكر كيف اجتزت العتبة واتجهت إلى غرفة النوم ومتى نمت، حتى أيقظني ضربٌ متواصل على الباب.شخصٌ ما يطرق الباب الأمامي بإلحاح.نظرتُ إلى ساعة التنبيه فوجدتها تشير إلى السابعة والنصف، رأيتُ نفسي بالسروال فقط.قميصي وحذائي على السجادة.انتظرتُ أن يرد أبي، لكن الضربات كانت تزداد ودفعتني للنهوض من السرير.

من يكون ذلك الطارق المزعج الذي يرفض أن يرحل حتى افتح له.وحين فتحت الباب رأيت سام تقف وترفع يدها اليمنى لتضرب من جديد.كانت تلبس بلوزة حمراء غير مربوطة الأزرار على بنطلونٍ صوفي اسود مرن وبطنها تنتأ خارج الحزام، تاركة جزءاً من اللحم

مكشوفاً.السرّة في الوسط تشبه حدقة العين، قزحيتها حلقة ذهبية على البطن حصلت عليها في السنة الأولى من الكلية ذات ليلةٍ وهي ثملة.

قالت وهي تضربني على كتفي:

«لم أكن اعرف أنها معك».

كان ضوءُ الشمس خلفها يعمي البصر.أغمضت عيني وقلت:

«ماذا؟»

توقفت وسط غرفة الجلوس لتواجهني...

«سيارتي! أمضيتُ نهار الأمس كله في تصليحها.كيف يمكن أن تفعل ذلك؟ كيف؟»

كانت سترة العمل الليلي ملقاة على كرسي قرب الباب، وفي جيبها مغلفٌ مليء بالأوراق النقدية التي سحبتها من البنك أثناء استراحة الغداء يوم أمس.كنت انوي أن أدس المغلف الذي لم يكتب عليه شيء تحت بابها في ذلك المساء.أخذتُ المغلف وقدمته لها.

قالت وهي تضع ذراعيها على بطنها:

«ما هذا؟»

«هذا ثمن السيارة».

نظرت سام إلى المغلف لحظة وترددت.بينما بقيتُ ساكناً.لو أنني حركتُ المغلف أو قلتُ كلمة أخرى لرفضته وشتمتني واتجهت إلى الخارج.وبينما كانت تطيل التفكير وتحاول أن تتخذ قراراً كان منظر بطنها الكروية وستارة اللحم الملساء المشدودة تربكني.تساءلتُ هل أعطت الجنين اسماً الآن؟ هل تعرف جنسه؟ وفوق كل هذا وذاك، هل أخبرت الوالد المجهول؟

قالت وهي تأخذ المغلف:

«حين رأيتُ ما فعلته بالسيارة جزءٌ مني أراد قتلك، لكن جزءاً آخر مني فكر في انك تمزح بطريقتك الملتوية».

تقدمتُ ووضعتُ يدي على بطنها.قالت وهي مقطبة الجبين:

«على الأغلب كنت سأقتلك».

انحنيت مقترباً منها، ووضعت يدي على بطنها، السرّة بين يدي، وانتظرت أن يتحرك الجنين أو يركل أو يتقلب في الرحم، ولما لم يحصل ذلك جثمت على ركبتي ووضعت أذني على بطنها.هناك حياة تختبئ، إذا لمستها بيدي لا تكاد تساوي شيئاً.تكلمت مع الجنين وكانت كلماتي رقيقة جداً بحيث يمكن لذلك الكائن الذي يتلوى في بطنها أن يسمعني.قلت نفس الكلمات مرة أخرى بصوت مسموع:

«يمكنني أن أكون الأب».

أحسست يدها تمسك كتفي، وقلت ذلك مرة ثالثة، فقط للتأكد من أنهما سمعاني معاً.قالت:

«انهض، توماس، أريدك أن تنهض».

نهضت.كان احدنا يواجه الآخر، وبطنها بيننا.

سألتني:

«أتعرف ماذا تقول؟ هل لديك فكرة عما تفعل؟»

قلت:

«لا فكرة أبداً».

عضّت شفتها بقوة ونظرت إلى الأسفل، لكنها لم تتراجع عن موقفها.رأيتُ ثلاث ندبٍ سوداء على فكها.لم تكن موجودة قبل سنة، حين توصلنا إلى اتفاقية الطلاق ووقعناها معاً، دون تدخل المحامين ونحن نشرب زجاجة نبيذ.تعقبتُ منحنى خدها إلى الفك، حيث كانت علامات التقدم في السن مثل البقع على وجهٍ ميت.سمعتُ شيئاً يتزحزح في غرفة أبي فعرفت أنه ترك السرير، لا شك أنه يقف قرب الباب.التفتنا معاً، أنا وسام، إلى جهة الصوت، لكننا لم نسمع شيئاً.كان مثلنا ينتظر.

أرضُ الآباء

يا لهُ من شيءٍ مستهجن! كيف يمكن للمرء أن يفعل ذلك؟ هكذا كان يقول كل من سمع بأن والد فويونغ أعطى لأطفاله من زوجته الثانية نفس أسماء أطفاله من زوجته الأولى.كانت فويونغ، وهي البنت الكبرى بين هؤلاء، ترى طوال ثلاث وعشرين سنة، أن أشقاءها وشقيقتها من تلك الزوجة كانوا دائماً أكثر حظاً بالقياس إليهم.الدليلُ على ذلك موجودٌ في تلك الرسائل المقتضبة التي كانت تأتيهم سنوياً، ترسلها أم الفتاة التي تحمل نفس اسم فويونغ، الزوجة الأولى للسيد لاي، تسرد فيها كل منقبةٍ من مناقب البنت والولدين، قامتهم، وزنهم بالملليمتر.البنت التي تحمل نفس اسم فويونغ، على سبيل المثال، اكبر من فويونغ بسبع سنوات، وأطول بخمسة عشر سنتيمتراً، وأثقل بعشرين كيلوغراماً، ومن الرسائل التي أرفقت مع الصور، فهي ذات بشرة شقراء وردية؛ وانفٍ مستقيم أكثر نحافة؛ كل شيء فيها، الشعر، والملابس، والأحذية، والمكياج أكثر حرصاً على مواكبة آخر مستجدات الموضة منذ أن تخرجت من المدرسة الخاصة بالبنات، ثم أكملت دراستها في مدرسة للمتميزين، والتحقت بكلية الطب، وأمضت فترة الإقامة في شيكاغو.لقد قام السيد لاي بتغليف تلك الصور بالورق الشفاف لحمايتها من الرطوبة ولطخات الأصابع، وتركها مرتّبة على الطاولة بجانب الأريكة في غرفة الجلوس.

الأحرف الأولى التي نُقشت على الصور هي المعلومات الوحيدة المتوفرة لدى عائلة فويونغ عن هؤلاء، خلال فترة غياب سبعة وعشرين سنة، لم تكتب البنت التي تحمل نفس اسم فويونغ وأخواها الأصغر منها كلمة بأنفسهم.لذلك حين وصلت أول رسالة من تلك الفتاة تركت الكثير من الانبهار.كانت الرسالة معنونة إلى السيد لاي، الذي لأنه ولي الأمر في المنزل، يتولى بنفسه فتح رسائل البريد.كان جالساً على الأريكة وقام بفتح المغلف بحذر شديد، مستخدماً إحدى التحف الأثرية التي احتفظ بها من الزمن الماضي، سكين فضية ذات مقبض من العاج.بينما أحاطت به فويونغ وأمها، وأبناؤه المراهقون، هان وفوك، وكانوا واقفين أو جالسين على المساند يمدون أعناقهم لرؤية الكلمات التي يقرأها الأب بصوتٍ مسموع.كانت الرسالة اقصر من كل الرسائل التي كتبتها الزوجة السابقة، تخبرهم فيها أن شقيقة فويونغ سوف تأتي لقضاء عطلة أسبوعين، وأنها تنوي البقاء معهم.

قالت السيدة لاي وهي تقرأ الاسم تحت التوقيع في أسفل الرسالة:

«فيفيان؟ هل تستحق الاسم الذي أعطيته لها؟»

كانت فويونغ تعرف لماذا اتخذت أختها اسماً أجنبياً، وتعرف من تكون صاحبة الاسم الحقيقي: فيفيان لي، نجمة فيلم (ذهب مع الريح)، المفضل لدى أبيها، كما اخبرها ذات يومٍ في حديثٍ عابر.فويونغ سبق أن شاهدت الفيلم على شريط فيديو مقرصن، وأسرها فوراً سحر تلك الممثلة وجمالها الخلاب، وتأثرت بحزن سكارليت اوهارا، تلك البطلة التي تجسد الجنوب المنكوب.هل من المبالغة افتراض أن الكونفدرالية المدمرة، بإحساسها التراجيدي بالذات، تحمل أكثر من تشابهٍ مع جمهورية أبيها الجنوبية المندحرة وبقاياها التي تثير الاشمئزاز؟

كان من السهل إذن، في غضون الأسابيع القليلة قبل وصول فيفيان، على فويونغ أن تمضي أيامها بين المنزل والعمل وهي تتخيل سيناريوهات عن شقيقةٍ ارستقراطية رقيقة المشاعر، وقورة وحزينة بعض الشيء، تقتحم حياتهم فجأة وتتدخل في شؤونهم وتصبح المرشدة التي لم تتعوّد فويونغ وجودها.لكن النظرة الأولى إلى فيفيان في المطار أكدت لها أنها فعلاً تشبه النجمة السينمائية، رأت شابة تقف عند البوابات الزجاجية لممر الانتظار، تخفي عينيها وراء نظارات شمسية عريضة، وشفتاها منفرجتان قليلاً على وجهٍ عبوس لا يخلو من النضارة، وكانت تدفع عربة أمتعتها من حقائب قرمزية.قفزت فويونغ في مكانها وراحت تومئ لتلفت انتباه فيفيان، كانت متلهفة لرؤية أن شقيقتها لا تحمل أي شبه مع حشود الناس الذين ينتظرون في الخارج لاستقبال الوافدين، مئات الناس العاديين الذين يلبسون ثياباً خفيفة ويستعملون المراوح اليدوية للتخفيف من حرارة الشمس.

حتى بعد أسبوعٍ في سايغون لم تكن فيفيان تبدو مثل السكان المحليين، لم يتغير فيها شيء منذ اليوم الذي وصلت فيه، على الأقل حين تكون في الخارج.على الشوارع، أو في مقاهي الأرصفة، أو حين تصعد سيارة أجرة، يظن الناس أنها زوجة رجل أعمالٍ كوري أو سائحة يابانية ضجرة، وسرعان ما تذوب طبقة ماكياجها من حرارة الشمس الاستوائية.لكنها في بعض الأماكن تبدو سيدة بيئتها.كما حصل في مطعم نامكا، على شارع دونغ كوي، حيث تعمل فويونغ نادلة قبل سنتين منذ تخرجها من الجامعة.لقد قررت فيفيان أن تدعو العائلة لتناول العشاء في مطعم نامكا، احتفالاً بمرور نصف مدة إجازتها، وهي فكرة لم تؤيدها فويونغ، فأسعار المطعم أكثر مما تتحمله ميزانية عائلة فويونغ.

قالت فيفيان وهي تلقي نظرة على قائمة الطعام:

«لكنها جريمة، ألا تعتقدين ذلك؟ عليك أن تتناولي بعض الوجبات في المطعم الذي تعملين فيه على الأقل مرة في حياتك».

كانت طاولتهم قرب بركة للمياه تنعكس عليها أضواءٌ ملونة، وبجانبهم شابتان تجلسان على أريكة ذات وسائد، تلبسان ثياباً خفيفة من الحرير الصناعي بينما تداعب أناملهما أوتار سنطورٍ على

حضنهما.

قالت السيدة لاي:

«الجريمة حقاً أن تدفعي مبلغاً كبيراً مقابل وجبة يمكن أن نشتريها بدولارٍ واحد من السوق».

كانت السيدة لاي تبيع أقمشة الحرير في سوق بين ثان ولها عينا تاجر متمرّس في التفاوض، ونظرات لا تسبر أغوارها مثل نظرات لاعب شطرنج.

قال السيد لاي:

«انظري من حولك.إنها أسعار سياحية».

كانت نبرة صوته تدل على نفاد صبره.كل الزبائن الآخرين كانوا من البيض باستثناء زوج هندي وزوجته في إحدى الزوايا، الرجل يلبس بدلة أنيقة والمرأة ثوباً كشميرياً.

«بل هي أسعارٌ غبية».

صاحت بهم فيفيان:

«لنتجاهل الأسعار الآن، إنه مطعم ممتاز».

كان صوتها مفعماً بالتسلط، كما كانت تفعل على ما يبدو مع زميلاتها في أيام الكلية والامتحانات في شيكاغو.تخيلت فويونغ نفسها، ليس للمرة الأولى، مكان شقيقتها، تلبس معطفاً ابيض في غرفة بيضاء، تنظر من النوافذ إلى متاهة الثلج الأبيض.ثم لكزت ركبة فويونغ وقالت:

«ما رأيك؟ هذا موقف شجاع، أليس كذلك؟»

«أبداً! ربما تعوّدنا على هذا».

كانت فويونغ تأمل أن يظهر على ملامحها شيء من الثقة بالنفس والارتياح، على العكس من أختها وأخيها، هانه وفوك، اللذين كانا صامتين، ينظران بذهولٍ إلى قائمة الطعام المزينة بأشرطة بالحرير في يد كلٍ منهما، وكانت أكثر جمالاً من أي كتبهما المدرسية.

«هذا ما أريده».

نهض بعضُ الزبائن من طاولة مجاورة، وفي طريق الخروج توقف اثنان منهم قرب فويونغ، كانت معهم فتاة شقراء تلتقط صورة للعازفات على السنطور.قالت بلكنة استرالية وهي تنظر إلى الصورة في كاميرتها.

«كأنهن الفراشات، يا للنحافة ورهافة الإحساس!»

كانت فويونغ تنصت، وشعرت بالارتياح لأنها ليست في هذه المرة موضوع الانبهار.ثم فتحت صديقة الفتاة محفظتها لتفحص احمر الشفاه وقالت:

«أراهن على أنهما لا تكترثان لما تأكلانه.الملابس تناسبهما تماماً».

ليلة بعد أخرى كانت فويونغ تراقب سائحين مثل هؤلاء في المطعم، أصبحت شهادتها في علوم الأحياء مجرد ذكرى من الماضي وهي تفتح لهم كل يوم أبواب نامكا وتنحني قليلاً وتبتسم.عندما يأتي الزبائن للعشاء ينبهرون عادة بالأكلات الشعبية التي تقدم لهم بطريقة راقية، ويبدون إعجابهم بالتماثيل من التراث المحلي وباللوحات الصينية التي تزيّن الجدران، ويعجبون بها هي، بجسمها النحيف الرشيق، بثوبها الذهبي.أحياناً يطلب الضيوف التقاط صورة معها، في البداية كانت ترحب وتفخر بذلك لكنها شيئاً فشيئا صارت تنزعج.لكنها لا تستطيع أن ترفض، لأن مديرها يرحب بذلك، وكانت تجبر نفسها على الابتسام وتهز رأسها، وتتدلى خصلات شعرها الأسود الحريري على كتفها.تتخذ هذه الوضعية أو تلك، تتظاهر بأنها ليست مجرد نادلة تلبي طلبات الأجانب، بل هي عارضة أزياء، أو نجمة سينمائية، تحمل اسم شقيقتها.كيف كانت تبدو في تلك الصور؟ لا تعرف ذلك، كان كل شخص يعدها بأن يرسل لها الصور، لكنه لا يفعل.

عرضت عليهم فيفيان قائمة بالأماكن التي ترغب برؤيتها، مع أوقات تقريبية للسفر في القطار، أو الباص، أو السيارة، أو الطائرة.قالت إن الرئيس كلنتون نفسه جاء في السنة الماضية إلى هذا المكان، وتؤكد زيارته الشهيرة تلك لأمها أن فيفيان لا بد أن تعود سالمة، وخاصة وهي متسلحة بالجواز الأمريكي والدولارات.ونجحت فيفيان في التغلب على معارضة أبيها التي لم يعبر عنها بإلحاح شديد وأبدت استعدادها لدفع تكاليف الرحلات كلها التي سوف تقوم بها مع العائلة إلى كافة الأماكن.قالت له:

«إنني طبيبة، أليس كذلك؟»

في الوقت الذي تأثرت فيه فويونغ بتوسلات فيفيان، كأنما الاستمتاع بالعطلة يمنح شقيقتها المزيد من الامتيازات والتفوق، لكنها لم تكن مستغربة منها.في الرسائل التي كانت تأتي بين فترة وفترة من أم فيفيان، كانت ترى صورة شابة متحررة، طبيبة أطفال، غير متزوجة، تجوب بمفردها

أوروبا الغربية وتقضي عطلتها في هاواي، وجزر الباهاما، وريودي جانيرو.وتولى السيد لاي، الذي كان يعيش حياة متواضعة كمرشد سياحي، مراجعة مخطط الرحلة وقال:

«ما كنت لأعمل مثل هذا المخطط بنفسي».

كان من النادر للسيد لاي أن يُطري على احد، إلا إذا تعلق الأمر بأطفاله الثلاثة من زوجته الأولى.زوجته أخذتهم معها وهربت بعد الحرب، حين جرى نفيه إلى الإقليم الاقتصادي الجديد وجاءت عشيقته تطالبه بالنقود.لم تكن والدة فيفيان تعلم عن وجود امرأة أخرى في حياته حتى ذلك الوقت.وكانت استجابتها أن هربت من البلاد مع أطفالها في رحلة محفوفة بالمخاطر في قارب.ثم علم السيد لاي عن هربهم خلال منتصف فترة السجن التي امتدت لخمس سنوات، وتسببت تلك الخسارة بصدمة فظيعة له وإحباط شديد بحيث لم يغمض له جفنٌ حتى رجع إلى سايغون.لكن الحياة يجب أن تمضي، هكذا قالت له عشيقته، لذلك طلق والدة فيفيان، وتزوج عشيقته التي أصبحت السيدة لاي الثانية، وأنجب منها ثلاثة أطفال.كثيراً ما كان السيد لاي يقارن فويونغ بأختها الغائبة، مما غرس في نفسها إحساساً بالاشتياق إلى فيفيان وسرعان ما تحول ذلك إلى غيرة لا يمكن تجاهلها.بوادر الحسد كانت تطفو على السطح تقريباً في كل يوم منذ مجيء فيفيان، لأن والدها كان يتصرف على العكس من طبيعته، كأنما يتصارع مع نفسه ومع الآخرين ليرضي فيفيان.من دون سؤال أو انتقاد، اتبع خطة فيفيان بحذافيرها لزيارة المعابد والكاتدرائيات، ومراكز التسوق والمتاحف، والشواطئ والمنتجعات، وقد امتدّت رحلتهم جنوباً عبر دلتا الميكونغ، وشرقاً إلى فونغ تاو، وشمالاً إلى دالات، ثم إلى سايغون، من الأزقة الضيقة المعتمة للحي الصيني في شولون إلى الأضواء الساطعة لوسط البلد في دونغ كوي، حيث يقع مطعم نامكا، أغلى المطاعم على تلك الجادة.

قال السيد لاي:

«هذا المكانُ يذكرني بسايغون في الأيام الخوالي.حين كنا نقوم بجولات سياحية في شتى الأماكن، منها ميدان الأميرال على شارع ثاي لاب ثانه، وإلى البرج العاجي للإمبراطور تران هونغ داو.ونزور أفضل المطاعم التي تقدم أشهى الأكلات، حتى تعوّدت على تلك المطاعم».

كان يبتسم بمحبة وينظر إلى الستائر المخملية وأغطية الطاولات الحمراء في المطعم والأعمدة الرخامية.في زمن الحرب كان يملك مصنع أحذية، ومنزلاً على ساحل فونغ تاو، وسيارة ستروين مع سائق.تظهر الصور الفوتوغرافية القديمة التي بقيت من تلك الأيام رجلاً متأنقاً شعره صقيل وله شارب خفيف.أما الآن، أو على قدر ما تتذكر فويونغ، فهو يتلفع بثوب الحزن والاندحار، لا يهتم بهندامه إلا نادراً وتنتأ بطنه من تحت القميص الضيق بالقياس إليه الذي تساقطت بعض أزراره.

قالت السيدة لاي:

«ليس معي».

تساءل السيد لاي موجهاً كلامه إلى فيفيان:

«ماذا تنوين أن تفعلي غداً؟»

ملأت كأسه من زجاجة النبيذ الاسترالي وقالت:

«تركت ذلك البند فارغاً على الجدول، دائماً اترك يوماً أو يومين للمفاجآت».

سألتها هانه:

«هل يمكننا الذهاب إلى دام سين؟

هز بلوك رأسه بعصبية، وأعادت فيفيان مليء كأسها.قالت:

«ما هذه؟»

كانت فويونغ تشرب الليمون، مثل أمها وأختها وأخيها.قالت:

«إنه متنزه قريبٌ من هنا».

قالت فيفيان:

«عملتُ سابقاً في أحد المتنزهات عندما كنت في السادسة عشرة، كان صيفاً مجنوناً».

قال السيد لاي:

«يمكننا تأجيل الذهاب إلى دام سين إلى وقت لاحق، ما دمت رأيت المطعم الذي تعمل فيه شقيقتك، دعيني اصطحبك في جولة من اختياري غداً».

رفعت فيفيان كأسها، مقترحة نخباً بصيغة تعلمتها منه:

«موافقة، مائة بالمائة».

نقر كأسه على كأسها، ونظر إلى أبنائه بتعاطف، قال:

«يا لكم من جيلٍ محظوظ!»

قالت فويونغ:

«لا أرى أننا محظوظون جداً».

رفع أبوها يده عن الطعام وتركت فويونغ كأس العصير واستعدت لتسمع قصص والديها التي طالما سمعتها منهما..

«انتم لا تعرفون قيمة الأشياء التي لديكم.أنت تتحدثين عن الحظ السيئ؟ بعد أن رحل الأمريكان وأرسلني الشيوعيون إلى معسكر العمل، كنا نأكل جذور النباتات البرية لنعيش..ونلتقط الديدان في الرز، وكان المرق شبيهاً بالماء.الكثير منا أصيبوا بالديزنتري أو الملاريا أو حمى الضنك، كانوا يعانون من أعراض البرد الاعتيادي لكنهم بعد ذلك يموتون.كان من المذهل أن تبقى دماءٌ في أجسامنا تتغذى عليها اليرقات المتطفلة».

تمتمت السيدة لاي:

«لم يكن الوضع أفضل في الوطن، اضطررت لأن أبيع كل شيء للبقاء على قيد الحياة بعد الحرب.ماكينة الخياطة، وجهاز التسجيل الذي اشتريته لي، والأشرطة أيضاً».

كان السيد لاي يحدّق في كأسه، كأنما يرى التجارب التي مرّ بها في معسكرات العمل تحوّلت إلى قطرات تملأ الكأس.

«...الشيء الأكثر قسوة هو تلك الاعترافات التي أجبرنا على الإدلاء بها.في كل أسبوع كان علي ابتكار طريقة أخرى لانتقاد نفسي وإدانتها على أنني كنت رأسمالياً.وقد كتبت صفحات تصلح لسيرة ذاتية، كل فصل فيها يقول نفس الشيء على نحو مختلف».

تنهّدت فويونغ، لكن فيفيان كان تصغي باهتمام، وتضع يدها على حنكها، وحين رفع أبوهما رأسه لينظر قالت فيفيان:

«هناك شيءٌ لطالما أردت معرفته.لماذا أعطيت أطفالك من زوجتك الأخرى نفس أسمائنا؟»

هذا السؤال لم تطرحه فويونغ من قبل، كانت تخاف من الجواب الذي تتوقعه، أنهم مصدر الخيبة والندم في حياته.غير أن صراحة فيفيان لم يظهر أنها تفاجئ أو ترعب أباهم، الذي رفع نظاراته وقال لها:

«إن لم تكوني قد جئت لرؤيتي فأنا افهم هذا.لكني كنت اعرف انك سترجعين ذات يومٍ لرؤية البنت التي منحتها اسمك».

نظرت فيفيان إلى فويونغ، التي حافظت على رواقيتها.على كل حال، لم يكن خطأ فيفيان أن يفعل أبوهما ما فعل، يمارس لعبة تفضيل احدهم على الآخر، مشفقاً على نفسه.واجهت نظرات أبيها في تحدٍ صامت، وضربت كأسها على كأسه.

قالت فيفيان:

«ها أنا معكم الآن، وهذا نخب التئام الشمل».

قال السيد لاي:

«مائة بالمائة».

طوال سنوات عمل السيد لاي مرشداً سياحياً، لم يطلب من فويونغ يوماً أن ترافقه في إحدى جولاته.ولم يسبق أن طلبت منه ذلك، لكنها في صباح اليوم التالي، وهي تصعد الحافلة أدركت أنها كانت تحب أن يطلب منها.لم يبد أن فيفيان تكترث كثيراً لاهتمام أبيها الاستثنائي بها، أو تفرح لأن تكون سائحة في ذلك اليوم، بعد أن تركوا الأولاد في المدرسة وبقيت والدتها في سوق بين ثانه.بدل ذلك ركزت فيفيان على الحافلة المزدحمة، وكانت تهمس بعبارات التذمر في إذن فويونغ عن السائحين طويلي الشعر الذين يحملون حقائبهم على الظهر، والجالسين على مقاعد ذات وسائد خفيفة ويجعلون وجود والدهم مثمراً.بينما يفاجئهم الجو المشبع بالرطوبة حين ينزلون من الباص المكيف الهواء في بين دينه، لم يكن في وسع فيفيان إلا أن تتمتم بأن هذه ليست فكرتها عن المرح.

قالت فيفيان:

«لا أحب الجولات في العراء، أفضّل الذهاب إلى مجمعٍ للتسوق أو متحف، رغم أن المتاحف هنا تفتقر إلى التكييف».

وسارت الشقيقتان خلف رتل السائحين، تلتف بهم الطرقات بين أشجار اليوكالبتوس وخنادق محاطة ومغطاة بالخيزران من مخلفات الحرب.

قالت فويونغ بضجر:

«أبي يريد أن تريه وهو في ميدان العمل، إنه مرشدٌ سياحي بارع».

«لا تقولي له ما أخبرتك به الآن، حسناً؟ لا أريد أن أؤذي مشاعره».

قالت فويونغ بمشاكسة:

«إذن لدينا سرٌ مشترك؟»

قالت فيفيان:

«الأخواتُ دائما يتشاركن في أسرارهن.يا إلهي.ما هذا؟ الحرارة أربع وثلاثون درجة؟»

«هذا ليس سيئاً.الجو ليس حاراً جداً».

«أكاد احترق.يمكنني الإحساس بهذا.انظري إلى ساقي!»

كانت سيقان فيفيان وفخذاها مرقطة ببقع حمراء منتفخة كأنها لسعات البعوض أو تقرحات ملتهبة.بالقياس إلى طبيبة أطفالٍ وسائحة موسمية، أثبتت فيفيان عجزاً غريباً في العناية بنفسها.كانت فويونغ تلبس قفازاتٍ تمتد إلى أعلى ذراعيها والنايلون تحت بنطلون الجينز، أما شقيقتها فتلبس قميصاً خفيفاً يكشف أشرطة حمالات الصدر وبنطلوناً قصيراً يكشف أحياناً البطن والسرّة.رغم بشرتها العارية كانت فيفيان تهمل المرهم الواقي من البعوض وتشكو من حرارة الجو، التي حسب قولها، تكاد تزداد في كل ثانية من النهار والليل.مع أن ضعف شقيقتها كان مصدر انزعاج لها لكن ذلك يجعلها تحنو عليها أيضاً، مما يجعل فيفيان اقل احتمالاً لأن تخيب آمالها وربما أكثر استحقاقاً لأن تؤتمن على السر الذي تشتاق فويونغ للبوح به، ذلك السر الذي لم تخبر به أحداً من عائلتها، ولن يفهمه احدٌ غير فيفيان.

«هذه، أيها السيدات والسادة، رحلة محفوفة بالمخاطر».

كان السيد لاي يتكلم الإنكليزية، ويشير إلى مجموعة التي تتبعه بأن تتوقف.اقترب عشرون سائحاً تقريباً، كلهم من الغربيين، من باب فخ الخيزران.وهنا قام السيد لاي بلف عصي الخيزران على مفاصلها حتى أصبحت كتلة عمودية غليظة، وانكشفت حفرة عميقة كأنها القبر، وكانت عشرات الأوتاد الخشبية المدببة مغروسة في الأرض.

«..إذا مشيتم على باب الفخ تسقطون».

بعد أن التقط بعض السائحين صوراً طلب السيد لاي من المجموعة أن تتحرك.كان يرتدي قميصاً قصير الأكمام وبنطلوناً رمادياً قصيراً مع حذاء بني صقيل، بينما في المنزل يكتفي بالملابس التحتية.الشيء الأغرب في نظر فويونغ أن ترى أباها يمزح ويثرثر مع السائحين.كلما تكلم مع فويونغ في المنزل كان في الأغلب يطلب زجاجة بيرة أخرى، أو علبة السجائر، أو طبقاً محدداً للعشاء.

«..هذا، نفقٌ مثالي».

توقف السيد لاي وأشار إلى حفرةٍ عميقة مربعة، مغطاة بلوحٍ خشبي وعليها ستارٌ من أوراق اليوكالبتوس.

«..هنا، كان يعيش رجال حرب العصابات لسنوات ويهاجمون الأمريكان في أي وقت».

كان جميع السائحين تقريباً من الأمريكان، لكن لم يبد أن تلك المعلومات التاريخية تضايقهم.عوضاً عن ذلك، بدوا منبهرين ويرفعون كاميراتهم بينما كان السيد لاي يرفع اللوح ليريهم المدخل الضيق المظلم.على مسافة بعيدة أطلق مدفع رشاش وابلاً من الرصاص، كل رصاصة تكلف دولاراً، حسب قول أبيهم.بدت فويونغ مستغربة وهي ترى هؤلاء السائحين يريدون إنفاق نقودهم ووقتهم هنا، بدل أن يذهبوا إلى الساحل، أو إلى مطعم فاخر، أو إلى أرجوحة على ضفاف النهر أو مقهى.السر وراء هذا التصرف، كما قال أبوها، أن السائحين الأجانب لا يعرفون غير شيءٍ واحد عن هذا البلد، وهو الحرب.هذه الأنفاق إذن من الأشياء التي لا بد من رؤيتها ضمن جولاتهم.

«في وقت لاحق سوف نرى أنفاقاً جديدة، واسعة بحيث تستطيعون الدخول إليها.في آخر مرة دخل أمريكي إلى أحد هذه الأنفاق ولم يتمكن من الخروج.كان سميناً جداً!»

ولتوضيح هذا عملياً مد السيد لاي ذراعيه ثم ضمّهما، وعمل انشوطة في الهواء، وهو يقول:

«هل يريدُ احدٌ أن يجرّب؟»

ابتسم السائحون وهزوا رؤوسهم، وكان أقصر سائحٍ يضاهي والد فويونغ في قامته.كانت فويونغ تخشى أن يطلب منها أن تدخل النفق، ولما لم يتطوع احد قطب جبينه ورفع قبضته.صاح:

«هكذا انتصرنا في الحرب، أعدنا توحيد بلادنا بالبسالة والتضحية!»

والتقط احدهم صورةً له.والتقطت صورتان أخريان بينما كان أبوهم يتخذ ذلك الوضع البطولي..همست فيفيان:

«لا أكاد اصدق ما اسمع».

«إنه لا يعني ما يقول.هذا مجرد تمثيل».

لكن فويونغ ساورها الشكُ في أن السائحين يعتبرون ذلك حقيقة.لأنهم من الأجانب لا يستطيعون معرفة الفارق بين الشيوعي والإنسان الذي تعرّض للنفي من قبل الشيوعيين إلى الإقليم

الاقتصادي الجديد.خلال بضعة أيام، أو أسبوع، أو أسبوعين، سوف يرحلون، وتبقى ذاكرتهم تحتفظ بشيءٍ حيوي عن هذا اليوم كتجربة مثيرة في الزحف عبر النفق، مع ذكرى غامضة عن مرشدٍ سياحي مرح لغته الانكليزية غريبة بعض الشيء.نحن لا نختلف عنهم كثيراً، كانت فويونغ تتفهم هذا بمزاجٍ من الحنق والخجل ـ صغار، جذابون، سريعو النسيان.لكنها كانت قلقة من أن شقيقتها ربما تنظر إلى الأمر بهذه الطريقة، لكن حين تحرك أبوها مع السائحين وتبعتهم فيفيان بدت مهتمة فقط بطرد البعوض الذي يحوم حولها في سحابة.

في الليلة قبل الأخيرة التي أمضتها فيفيان في سايغون، شربت مع أبيها أربع قوارير من عصارة الرز في مطعم صيني في شاو لون.بعد الرجوع إلى البيت ذهب يتمشى مع زوجته لإزالة اثر الخمر من رأسه بينما جلست هانه وفوك على السجادة في غرفة الجلوس، وكان سريرهما قرب دراجات بخارية.في الطابق الأعلى، بعد أن أغلقت فيفيان باب الغرفة التي تتشارك في جزءٍ منها مع فويونغ، أخرجت إحدى حقائبها القرمزية من تحت سرير فويونغ الضيق.كانت الحقيبة محملة بالهدايا التي اشترتها لهم هي وأمها، بناطيل جينز، وقمصان، وأدوية، وأدوات ماكياج، وحتى الشامبو ومكيف الشعر المعبأ في الولايات المتحدة، وكان أغلى من نفس الماركة التي تصنع محلياً.وبعد أن عبأت الحقيبة بالهدايا التذكارية التي اشتروها لها، دمية من الخزف ملفوفة في قماش حريري إلى أم فيفيان، مع تمثال تراثي تقليدي من خشب الصاج، وزجاجة نبيذ الرز مع أفعى كوبرا تطفو بداخلها إلى والد زوجها، ولأصدقائها أخذت قمصاناً عليها صور العم هوشي مينه.وحين فتحت فيفيان الحقيبة لم تخرج منها هذه الأشياء التذكارية أو مقتنياتها الخاصة.كانت تفتش في الداخل حتى أخرجت محفظة قرمزية صغيرة مجعدة إلى حدٍ ما بعد الرحلة، وقدمتها إلى فويونغ وهي تقول:

«لدي شيءٌ احتفظت به لك، يا أختي الصغيرة، لم أكن واثقة من أنه يستحق أن أقدمه هدية إليك، لكني فكرت في أنني يجب أن اترك لك شيئاً للذكرى».

رأت فويونغ حروفاً مطبوعة على المحفظة بخطٍ مائل «أسرار فكتورية».وأخرجت منها فيفيان حمالة صدرٍ سوداء مزركشة بأسلوب أنيق وملابس تحتية سوداء ناعمة الملمس قدمتها إليها لتلبسها بدل تلك التي من القماش القطني الخشن المليء بالأزرار التي اشترتها لها أمها بالجملة.

قالت فويونغ وقد احمرّت وجنتاها من الخجل:

«لن البس هذه! إنها فاضحة!»

«هيا، جربيها.لا يمكنني تخيلك في هذه الملابس التحتية التي تعود إلى زمن جدتي».

وضعت فيفيان هديتها من الملابس الناعمة بين يدي فويونغ.وبقيت فويونغ مترددة لحظات، لكن فيفيان كانت مُصرّة على أن تقوم بدور شقيقتها وطبيبتها في آنٍ واحد، وقالت لها أن لا داعي

لأن تخجل.ثم نزعت عنها ثياب النوم التي من الحرير الصناعي وملابسها التحتية القطنية، وفكت حمالة صدرها.وكانت فيفيان تهز رأسها مرة بعد أخرى في إعجاب بمنظرها وقالت:

«الآن تبدين مغرية جداً.بعض الشباب سيعجبون بك في هذه الثياب».

«لن تسمح أمي أو أبي بارتداء هذه.الفتيات الوقحات فقط يلبسنها».

بعد ذلك مدت فويونغ يدها في تردد إلى المرآة الصغيرة المعلقة على مسمار الجدار.وكانت ترتعش وهي تحس الملمس المخملي الناعم على جلدها، ولمحت نفسها وهي شبه عارية.

قالت فيفيان وهي تتثاءب:

«الآن يجب أن تذهبي إلى سريرك، يا إلهي، نسيت انك في الثالثة والعشرين! لا يمكنك تخيل الأشياء التي فعلتها وأنا في عمرك».

حتى بعد أن نزعت فويونغ ثياب النوم كانت ترى صورتها على المرآة اليدوية وتحسّ ملمس النسيج الناعم.سحبت الستارة التي تفصل جانب الغرفة الذي تنام فيه عن سرير والديها وانسلت لتنام مع فيفيان، التي ألقت حقيبتها على الأرض وارتدت بيجامتها.بينما كانت تمسك ذراع شقيقتها أحست أن الهدية أضفت على علاقتهما مسحة من الثقة.

«ما هو أول شيء تفعلينه إذا رجعت إلى شيكاغو؟ تتصلين بأمك؟»

«أقود سيارتي وحدي إلى مسافة بعيدة.كم اشتقت إلى سيارتي!»

«لا اعرف أحداً يملك سيارة هنا».

كانت فيفيان تنظر إلى مروحة السقف تعبث بالهواء الحار في ليلةٍ مثقلة بالرطوبة.النافذة المفتوحة تسمح بنفاذ اقل ما يمكن من النسيم.

قالت فيفيان:

«هل يمكنني أن افشي لك سراً؟»

«أخبرتني سابقاً بأحد الأسرار».

«ما هو؟»

حين أدارت فويونغ رأسها كانت ترى إذن فيفيان، وقناتها السمعية الصغيرة الداكنة.

«ذلك السر، في موقع أنفاق كوشي».

قرصتها فيفيان على رقبتها.

«كنت أتصور أنني إذا أتيت إليكم سوف أحب أبي».

ربّتت فويونغ على يدها وهي تقول:

«أنت لا تحبينه؟ لم تكوني تحبينه؟»

تنهدت فيفيان:

«هل كان من السهل علي أن أحبه؟ أو من السهل عليه أن يحبني؟ تلك هي الطريقة التي ينبغي أن تكون عليها الأمور.إنه يتذكر كل شيء عني.وأنا لا أكاد أتذكر عنه شيئاً.أيمكن أن تحبي شخصاً لا تتذكرينه؟ أيمكن أن تحبي شخصاً لا تعرفينه؟»

«لست واثقة.لكني اعرف أن ليس من السهل على المرء أن يحبه».

جاءتهما قهقهاتٌ من الممشى في الخارج، عجائز يجلسن في الجوار على عتبات بيوتهن يضحكن ويثرثرن قبل للنوم.

«المرأة لن تحب رجلاً تشعر بالأسف عليه.أتستطيعين أنت؟»

«لم يحصل أن أحببتُ أي شخص، لا اعرف.لكنك تقولين ذلك بشكل خاطئ.أنت لن تعشقيه، تريدين فقط أن تحبيه».

أعلن صريرُ الباب الأمامي عن عودة أبيهما.

«أتعلمين ما أخبرتني به أمي حين قلت لها إنني سوف اذهب إلى فيتنام؟»

سكتت فيفيان قليلاً، ثم قالت:

«قالت لي إنه سوف يفطر قلبي أنا أيضاً».

استدارت فيفيان لتنام على جنبها الأيسر وتواجه الجدار، حيث تعلق عليه أبو بريص اخضر.كانت السلالم تصدر صريراً مع نزول السيد والسيدة لاي، النغمات المتخالفة لخطواتهما تشكل نهاية يومٍ مألوف في حياة فويونغ جعلها وصول فيفيان تنتبه إليها أكثر من السابق.كان وجود شقيقتها على سريرها ولمساتها الحنونة على جسمها سبباً في شحذ قدراتها على الإدراك، أتاح لها أن

ترسم في ذهنها بدقة الخطوط العريضة للشخصيات في حياتها.ما من شخصية مرسومة بوضوح أكبر من شخصية أبيها، الذي تشعر بالإشفاق عليه، والأسوأ من ذلك أنها لا تكنّ له أي احترام.لو كان مجرد فتى لعوب، سيكون ثمة سببٌ للاحتقار، لكنه رجل ناضج في حالة انهيار، الفشل في حياته يتسلل خلسة على درجات بطيئة من السلوك السيئ.هذه مسالة حقاً تستحق الحزن والإحراج، وحين ظهر ظل أبيها في المدخل استدارت هي أيضاً.التصقت بظهر أختها مما زاد الإحساس برطوبة الليل، حتى اكتشفت أن فيفيان تعرق وهي نائمة.

في مدينة الملاهي صباح اليوم التالي، التقط السيد لاي صورة فوتوغرافية لأطفاله عند البوابات بكاميرا رخيصة، أهدتها له زوجته السابقة، وجلبتها فيفيان معها.بعد أن دفعت فيفيان ثمن التذاكر للعائلة كلها تولت هانه وفوك زمام القيادة، الأولى كانت تمسك يد أمها.ساروا جميعاً وسط حشدٍ فوضوي من طلاب المدارس الابتدائية من صبيانٍ وفتيات، يلبسون قمصاناً وقبعات حمراء.ثم اخترق الحديقة قطارٌ للأطفال وطغى صوته على أصوات الناس، وعلى مسافة كانت باخرة عملاقة تصعد وتنزل وتتأرجح.ولفتت انتباه فويونغ قاعة للعرض، كان اسمها مثيراً للفضول بالإنكليزية «الفانوس الجليدي».على لوحة إعلاناتٍ في الخارج عُرضت صور مشرقة الألوان لنماذج جليدية لبرج إيفل، وتاج محل وغيرها من العجائب التي من صنع الإنسان، يضيئها قوسٍ قزح من أضواء النيون.

قالت فويونغ:

«دعينا نؤجل الكلام إلى وقتٍ آخر، إذا وجدنا مكاناً نرتاح فيه».

قالت فيفيان، وكانت تحرك دليل مدينة الملاهي لتجفف العرق عن وجهها:

«فكرة جيدة».

بعد الانتهاء من لعبة دولاب الهواء التي جاءت بطلبٍ من هانة وفوك أصرّت السيدة لاي على زيارة معرض الزهور اليابانية.هناك توقف العديد من العرسان الشباب لالتقاط الصور من زوايا مختلفة، العرائس يرفلن في ثياب الزفاف والعرسان في بدلات بيضاء، بينما الحروف الأولى لأسمائهم مرسومة بالورود الحمراء.كانت السيدة لاي مشدودة إلى المنظر، لكن هانه وفوك كانا ينظران إلى فيفيان ويسألان عن الوجهة التالية، هل هي عبّارة فيريس التي تدور ببطء فوق المسطحات المائية.صعدت السيدة لاي أولاً إلى إحدى مقصورات دولاب الهواء مع الأولاد، بينما رفض السيد لاي الانضمام إلى بناته في مقصورة أخرى، مدعياً أنه يعاني من رهاب الألعاب البهلوانية.وبينما كانوا يصعدون نظرت فيفيان من نافذة ذات حواجز على الجانب، وعلى المقصورة التي تحتها رأت من وراء الزجاج الأزرق طفلة نحيفة ذات شعرٍ مجعدٍ ترسم بأصبعيها علامة النصر.كانت فويونغ تحدق من فوق كتفيها، وأنفاسها تداعب خصلة شعرٍ تتدلى على إذن

فيفيان.سحبت فيفيان شعرها وأشارت إلى عربات تتدحرج ببطء على السكة الملتوية وتصعد ثم تهبط بسرعةٍ جنونية والناس فيها يصرخون مذعورين، كأنها جرار مقلوب رأساً على عقب مع عشرات الأذرع البشرية ترتفع في الهواء.

قالت فيفيان:

«كنت اركب مثل هذه الأشياء مع صديقاتي، بعض الشباب كانوا يأتون إلى الحديقة كل يوم بحثاً عن الفتيات».

انحنت فويونغ على ذراع شقيقتها وهي تقول:

«هل وجدت صديقاً؟ هل كان وسيماً؟»

لم تخبر شقيقتها بأنها ما تزال تلبس هديتها، تستمتع بها مثل طفلة حصلت مؤخراً على لعبة سحرية جديدة.

«كان رود لطيفاً جداً معي.كان يصطحبني بسيارته إلى المنزل، ونذهب إلى احد الأزقة قرب منزلي، يوقف السيارة و...يقبلني.لا أتصور انك فعلت مثل هذا الشيء؟»

«ليس بعد».

«ألم تجدي شاباً تعشقينه؟»

قالت فويونغ بحزم:

«لا أريد أي ارتباطات، لا أريد شخصاً يضطرني للرجوع».

«ترجعين إلى ماذا؟»

في وسط مدينة الملاهي بحيرةٌ واسعة الجوانب، تتجول على سطحها بعض القوارب الصغيرة الملونة وتنتشر على ضفافها الكازينوهات.كانوا ينوون استكشاف البحيرة ظهراً، هناك مطعم يتخذ شكل رأس التنين، يقسم المياه إلى نصفين، مثلما سوف يفصل رحيل فيفيان غداً العالم إلى الذين يبقون والذين يرحلون.قالت فويونغ:

«هل يمكنني أن أفشي لك سراً الآن؟»

ابتسمت فيفيان.

«حتماً».

بحثت فويونغ عن كلمات مناسبة تعبر عما لم تبح به لأي شخص من قبل، كيف أنها ذات يوم، كانت تتمنى أن ترحل أيضاً، لأن سايغون تبعث الملل، والبلاد كلها رغم اتساعها لا تكفي لتحقيق طموحاتها.أخيراً قالت فويونغ وهي تمسك يدي شقيقتها:

«أريدُ أن أكون مثلك، أريد الذهاب إلى أمريكا فأكون طبيبة لأساعد الناس.لا أريد أن اقضي حياتي في انتظار الآخرين، أريد أن ينتظرني شخصٌ ما.أريد أن ارحل إلى أي مكان، في أي وقت أشاء.وإذا رجعت إلى هذا المكان اعرف أنني أستطيع السفر.إذا بقيت هنا سوف أتزوج شاباً ليس له مستقبل وأعيش مع عائلته ويكون لي أطفال خلال وقتٍ سريع وأنام في غرفة يمكنني لمس كل جدرانها في وقتٍ واحد.لا اعتقد أنني أستطيع تحمل ذلك، لا اعتقد..ألم تشعري يوماً بهذا؟»

قالت فيفيان وهي تنظر إلى سقف المقصورة:

«أوه، يا إلهي، لقد أخبرتها بأن تقول لكم الحقيقة».

كانت فويونغ ترى الانبهار في عيني شقيقتها، لكنها لم تكن مستعدة للذعر الذي لاح على وجه فيفيان.

كانت مقصورات دولاب الهواء تنزل على سكتها، والركاب يصرخون.وحين حولت فيفيان ثقلها وسحبت ذراعها عن كتف فويونغ سمعت صوت امتصاصٍ رطب، لم يكن الهواء ابرد مما في الأسفل.

«عم تتحدثين؟»

«أمي.هل تعلمين أنها حين جاءت إلى الولايات المتحدة أخبرت السلطات أنها في الخامسة والعشرين؟»

استنشقت فيفيان الهواء بعمق ونظرت مرة أخرى من الحواجز.لاحت قطرات من العرق على لوح كتف فويونغ.

«وماذا يعني ذلك؟»

«كانت في الثلاثين».

«يمكنني أن افهم السبب الذي يجعل امرأة تفعل شيئاً مثل هذا».

«أمي أخبرت السلطات أيضاً بأنها أرملة.وكانت تكذب أيضاً حين أخبرت والدنا بأني طبيبة».

التفتت فيفيان لتواجه نظرات فويونغ الحادة.طرفت عينا فويونغ وقالت باستغراب:

«أنت لست طبيبة؟»

«أنا مجرد موظفة استعلامات عاطلة عن العمل.طردوني قبل شهر من مجيئي إلى هنا.أمي وزوجها لا يملكان منزلاً في الضواحي.إنهما يعيشان في شقة مستأجرة في ويست توسلا.أمي لا تملك صالون نايس نيل بيوتي.إنها تعمل فيه كخبيرة تجميل».

«ولماذا تقول لنا إنك طبيبة؟»

«لأنكم تريدون أن تعرفوا كم اكسب في كل شهر، وما ادفعه من أقساط الرهن العقاري، وما سعر سيارتي.كان من الأسهل الإجابة على تلك الأسئلة بدل الاعتراف بأني لست طبيبة.الآن تعرفين أن القصة كلها عن أنني طبيبة أطفال كانت من اختراع أمي، ولست أنا.أمي أخبرتني كذلك بأن اقطع علاقتي مع رئيسي في العمل، وخاصة إذا كان متزوجاً».

وصلت مقصورتهما إلى أقصى ارتفاعها، وشاهدتا في الأسفل منطاداً على شكل فيلٍ عملاق يتدلى من كاحله، وأرجوحة ترفع الأطفال عالياً في الهواء.

«رئيسك في العمل؟ ما علاقة هذا بالأمر؟»

صاحت فيفيان:

«قال إن الأمر لا علاقة بشخصيتي، إنه الاقتصاد، هل سمعت شيئاً سخيفاً كهذا؟»

قالت فويونغ:

«لا، لم يقطع احدٌ علاقته بي من قبل».

«هذا يحصل كثيراً.لذلك فكرت في المجيء إلى هنا للتغيير.شيءٌ سخيف، أليس كذلك؟»

كانت عينا فيفيان نديتين بالدموع..

«تصورت انك جئت لرؤيتنا».

«أردت فعلاً أن أراكم».

«من أين لك كل هذه النقود؟ وجبات العشاء والتذاكر؟ والرحلات إلى دالات وفونغ تاو؟»

لم تتمكن فويونغ أن تحصي في ذهنها كل النفقات التي صرفتها شقيقتها خلال هذه المدة القصيرة، لكنها تعرف أنها كانت بالآلف الدولارات.مغلفات النقود والهدايا وحدها التي وزعتها فيفيان عليهم في الليلة الأولى لوصولها إلى سايغون كانت تتضمن ستمائة دولار إلى السيد والسيدة لاي، ومغلف إلى فويونغ، وأختها وأخوها استلما مغلفين.

بحثت فيفيان في محفظتها بينما كانت المقصورة مستمرة في الصعود..

«في أمريكا يدفعون لك مبالغ إضافية إذا فصلوك من العمل.حتى موظفي الاستعلامات يحصلون على شيك جيد من الشركات الكبيرة.لدي بطاقات ائتمان.لا اكترث للنقود.أردتك أن تستمتعي بأوقات جميلة.أنت لم تسافري إلى أي مكان».

كانت أبرز علامة إرشادية في مدينة الملاهي تلوح أمامهما، جبل ثلجي مضاء بألوان قوس قزح، كيان أجوف أخرق.قالت فويونغ:

«لا يهم، لست مضطرة لأن تكوني طبيبة لتتدخلي بحياتي».

لا شيء يهم فعلاً، تلك الأكاذيب أو حقيقة أن فيفيان لا تملك شيئاً، وحتى اسم فويونغ، الذي لم تكترث له كثيراً.

«أين مناديلي؟»

مسحت فيفيان دموعها بيديها..

لمست فويونغ ذراع شقيقتها، كان ملمسها لزجاً من العرق.بينما كانت مقصورتهما تقترب من المنصة..

«لن أضايقك بعد الآن.سوف أجد عملاً آخر.واهتم بنفسي أكثر.واهتم بك أيضاً».

أغلقت فيفيان محفظتها وهي تبكي..

«أنا آسفة، فويونغ.إذا رجعت سوف أحاول لملمة حياتي المبعثرة من جديد.علي أن ادفع نفقات أربع بطاقات اعتماد ونفقات دراستي وآمل أن لا تؤخذ مني شقتي».

«ولكن...»

كانت فيفيان تمسك يدي فويونغ بيديها المرطبتين بالدموع..

«لن يسمح لي وقتي للاهتمام بشقيقتي الصغيرة.هل تتفهمين ذلك؟ رجاء؟»

حين فتح العاملُ باب المقصورة كان أبوهما يقف بالانتظار، يمسك كاميرا صغيرة على عينيه، وزوجته خلفه مع الأولاد.دارت مقصورة الدولاب جانبياً واستقرت في مكانها المحدد ببطء بما يكفي لأن يخرجوا، ونزلت فيفيان أولاً.بعد أسبوع طبع أبوهما الصور، لكن الأمر تطلب من فويونغ لحظات لتدقق النظر في الصورة قبل أن تتذكر الملامح التي تختفي وراء الورق البلاستيكي الصقيل.رأت فيفيان تقف في المدخل، والدموع تترقرق في عينيها والمكياج ملطخ، وبالمصادفة، في نفس التوقيت، لم تكن فويونغ مرئية.

بينما تطلب الأمر من فيفيان سبعاً وعشرين سنة لإرسال أول رسالة إلى الوطن، جاءت رسالتها الثانية بعد شهر فقط من سفرها.عادت فويونغ ذات مساءٍ من مطعم نامكا لتجد والديها وإخوتها متجمعين حول طاولة غرفة الجلوس، يقلبون مجموعة الصور التي أرسلتها فيفيان.كان السيد لاي يبتسم مبتهجاً ويشير بالرسالة إلى فويونغ، صفحة واحدة قرأتها وهي جالسة على ذراع الأريكة.الرسالة تسرد ذكريات فيفيان الرائعة معهم، وهي تتناول العشاء في مطعم على ضفاف نهر سايغون، يرتاده زبائن محدودون، يركبون عربات تجرها الأحصنة حول بحيرة زوان هيونغ في دالات، قالت إن أفضل يوم كان يوم وصولها وأسوأ يوم كان يوم رحيلها:

«نظرتُ إلى الخارج من نافذة الطائرة حتى اختفت البلاد، كل شيء غارق في الاخضرار.خلال لحظات غطت الغيوم كل شيء، وأحسست أني أريد أن أعود».

هكذا تمضي الرسالة، الغطرسة الواضحة في كلام شقيقتها جعلتها تشعر بالاشمئزاز وبالكاد منعت نفسها من تمزيق الرسالة.

قال السيد لاي، وهو يرتب الصور التي أرسلتها فيفيان:

«غداً أريدك أن تضعي هذه الصور في البوم».

قالت فويونغ وهي تلقي الرسالة على الطاولة:

«لماذا؟»

بدا السيد لاي مرتاباً:

«ماذا تقصدين، لماذا؟ ليكون لدينا شيءٌ نتذكرها به حتى رجوعها».

نظرت فويونغ إلى أبيها وهو جالس على الأريكة، بين أمها وإخوتها، يمسكون الصور كأنها أوراق مائة دولار التي أعطتها لهم فيفيان.للمرة الأولى في حياتها تشعر بالإشفاق عليه، كانت واثقة من أنه ذات يوم سوف يفطر قلبها.فكرت في أن تخبره بالحقيقة، بأن فيفيان لن ترجع، وأنها هي الأخرى سوف ترحل عنه، ربما في وقتٍ قريب، إلى عالم تحب فيه رجلاً لا تعرفه.إنها مسألة وقتٍ وإرادة ليس إلا، وهي تعرف الآن من أين تبدأ.

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي كانت وحدها في المنزل، الأولاد ذهبوا إلى المدرسة، ووالداها في العمل.لبست هدية شقيقتها، وفوق الدانتيللا بلوزة وتنورة قصيرة.من الأفضل، كما تصورت، أن تنفذ خطتها في الخارج، لذلك وضعت كرسياً عند الباب الأمامي وإناءً معدنياً على حافة الممشى.فتحت مغلف الصور وكانت أول صورة تظهر أباها مع فيفيان يرتعشان من البرد في قاعة الفانوس الجليدي في مدينة الملاهي، آخر محطة يتوقفان فيها.في غرفة الاستراحة أعطاهم مرافقهم سترات من الفرو ذات قلنسوة تصل إلى الركبة، بألوان النيون الأصفر، والقرمزي، والبرتقالي، والأخضر.حتى مع تلك السترات كان الانتقالُ من الاستراحة إلى قاعة الثلج يشكل صدمة، لأنها في جوهرها ثلاجة هائلة، تُسمع فيها الأصداء تتردد في كل مكان، ويرى المرء فيها المعالم السياحية الشهيرة في العالم، على شكل تماثيل من الثلج ليست أطول من قامة الإنسان.وأضواء النيون الساطعة بنفس طيف ألوان الفرو تنعكس على التماثيل، والحشود مسرعة، والأطفال يتزحلقون على الثلج ويصرخون.«يا له من شيءٍ غريب!» كانت فيفيان تقول وهي تلوي كتفيها من البرد وتقف أمام نسخة مصغرة من جسر تاور بردج في لندن.أمام هذا الجسر وقفت فيفيان مع أبيها لالتقاط صورة، غير بعيد عن أهرامات مصر وأبي الهول المتحجر.بينما كانت فويونغ توجه الكاميرا كان الأب يلف ذراعيه حول خصر ابنته.التقطت فويونغ الصورة دون وعي، لم تنتبه حتى إلى شاشة الكاميرا.لكنها الآن، وهي تحمل الصورة وتجلس على الكرسي، يمكنها أن تركز على تفاصيلها.القبعات على الرؤوس، وأبوها وشقيقتها شاحبان كالأشباح، مثل براعم بيضاء تطفو على وسائد الزنبق للنيون الأخضر.على وهج الفانوس الجليدي كان وجه شقيقتها يشبه وجه أبيها أكثر مما يشبه وجهها، ذلك التشابه العجيب يوضح ما تفكر فيه فويونغ الآن.أبوها يحب شقيقتها أكثر منها.

احترقت الصورة بسهولة حين قرّبت فويونغ عود الثقاب منها.ثم أسقطتها في الإناء، راقبتها تتلوى، ذكرتها باللحظة التي اقتربت فيها فيفيان بعد التقاط الصورة وحاولت تلافي الموقف.قالت فيفيان وهي تبتسم وتمسك يد فويونغ، «لم أتصور أنني سأجرّب هذا، لكني اشعر بالبرد».

بعد شهر، ما زالت فويونغ تشعر بالقشعريرة، تتذكر كيف كانت ترتجف وتبتعد باتجاه رمال مصر الكريستالية.ثم ألقت في النار صوراً أخرى واستشعرت دفئاً، وسرعان ما اختفت

عشرون صورة واحدة بعد الأخرى وبقيت واحدة، فيفيان مع فويونغ في المطار صباح يوم سفرها، فيفيان تلقي ذراعها على كتف فويونغ وترسم علامة النصر بأصابعها.

على العكس من شقيقتها لم تكن فويونغ تبتسم.أبوها اجبرها على ارتداء ثوبٍ فيتنامي لتوديع فيفيان، كانت متجهمة في ثوب الحرير.قسماتها توحي بأنها عجوز من جيلٍ غابر تقف أمام الكاميرا، لالتقاط صورة بمناسبة نادرة مثل حفلات الزواج أو المأتم.احترقت الصورة فوراً حين لمستها النار، ذابت ملامح فيفيان قبل ملامحها هي، وجهان يختفيان في اللهب.بعد أن انطفأت آخرُ الجمرات، نهضت فويونغ ونثرت الرماد.كانت على وشك أن تستدير وتدخل المنزل حين هبت رياحٌ على الممشى، فوقفت لحظات تراقب الرماد يتبدد.ارتفعت سحابة على السقوف المجاورة، كانت منبهرة تنظر إلى السماء التي يتلاشى فيها الرماد، صحن ازرق مقلوب من أجود أنواع الخزف يغطي سايغون كلها بقدر ما ترى عيناها.

كتب أخرى للمؤلف

رواية (المتعاطف) صدرت عن الدار العربية للعلوم/ 2017

أعمال غير قصصية:

(لا شيء يموت أبداً: فيتنام وذكرى الحرب)

الأعراق والمقاومة: الأدب والسياسة في حياة آسيويي أمريكا

دراسات من ما وراء المحيط: أطر جديدة لميدانٍ في طور النشوء

(تحرير بالاشتراك مع جانيت هوسكنز)